عبد الله بن مرزوق القرشي



قراءةٌ تفكُّريّة في آيات الكتاب العزيز

وجوه
WOJOOOH

لعلهم يتفكرون

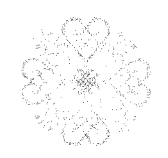
عبدالله القرشي

ح/ عبدالله مرزوق فاحس القرشي، ١٤٣٥هـ.
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القرشي، عبدالله مرزوق فاحس
لعلهم يتفكرون./ عبدالله مرزوق فاحس القرشي - الرياض، ١٤٣٥هـ
١٤٢ ص؛ .. سم
ردمك: ٥-٩٧٨-٦٠٣-٠١-٤٧٥٩
١-القرآن والعلم ٢- القرآن-الاعجاز العلمي ٣-التفكير
أ. العنوان
ديوي ٢٢٩،٤٥ ١٤٣٥/٣٣٧٤
رقم الإيداع: ١٤٣٥/٣٣٧٤
ردمك: ٥-٩٧٨-٦٠٣-٠١-٤٧٥٩

الطبعة الاولى
1435 هـ - 2014م



www.wojoooh.com
المملكة العربية السعودية - الرياض
الهاتف:4562410 الفاكس:4561675
للتواصل والنشر:
info@wojoooh.com
www.facebook.com /wojoooh
@wojoooh1



المقدمة

«وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)»

[النحل:٤٤]

اللهم لبّيكَ وسعديك !

سأحاول مَرَّةً بعد أخرى أن أتقرب إليك ياربّ، بعبادة (التفكُّرِ) في آياتك، وعظيم بيانك.

اللهم إن أخطأتُ فاغفر لي خطئي، واجبُر لي زللي، وإن أصبتُ فتقبله مني وبارك لي فيه !

اللهم إني أشكو إليك ذنوبي، وتفريطي في أمري، اللهم اجعل لي من التفكُّر في كلامك عفوًا وغفرانًا، وامحُ به خطيئتي، وارفع به درجتي، واكتب لي حبك وقربك، واقبلني في عبادك الصالحين !

اللهم إنا نستغفرك ونتوب إليك؛ وقد تركْنا الرِّواء في كلامك، ونحن نَهِيم عنه ظمأً وعَطَشًا !

هذا الكتاب هو الجزء الأول من مشروع «لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»و ستلحقه أجزاءٌ أخرى -بإذن الله-. وهو قراءةٌ تفكُّرية في آيات القرآن الكريم، متعلقة بالتفكير والمنهج، والدعوة والإصلاح، وموضوعات أخرى. وكم في هذا القرآن من المعاني والآفاق والأسرار لا يصل إليها المؤمن بغير التفكُّر، ومهما تكاثرت وتتابعت كتب التفسير، فإنه لن يُحيط المفسر المحدود في علمه وعقله بالنص الرباني الخالد.

داخل هذا النص معانٍ عظيمة، وعلينا أن نعمل أبدًا على استنطاقها والاستهداء بهديها. هذه الحروف المقدسة ظلت شامخةً فوق الزمان والمكان والأجيال، وظلت حركةُ العلوم والاكتشافات الحديثة تدفع بالجديد؛ فترتعد كل الكتب القديمة أمام كشوفاتها وحقائقها.. إلا القرآن، فإنهم لن يجدوا حرفًا واحدًا يخالف اكتشافا جديدا.

إنّ في واقعنا وتفكيرنا وأفكارنا ومنهجنا عللًا وأدواء، وفي القرآن

شفاؤها ودواؤها، لو كانوا يفقهون.

أين العقول المؤمنة التي تتبتّل لربها في محراب التفكُّر ؟! حين يدخل العقل متواضعا لعالَم القرآن، كأنما يلبس إحرامه الأبيض، ويجول بتدبره وتفكيره في هذا العالَم الطاهِر، يستشفي لأدوائه، ويستهدي لحيرته وضلاله . «يا عبادي، كلكم ضالٌ إلا من هديتُه؛ فاستهدوني أهدكم».

القرآن لا يكبر عليه أحد، والمؤمن يجلس في رحابه كما يجلس التلاميذ الصغار في الكتاتيب، وهدايات القرآن أقرب لمن سجد عقلُه وقلبُه بين يدي ربه.

لقد التزمتُ في هذا الكتاب بمراجعة التفسير في كل آية أريد أن أتفكّر فيها، ثم عرضت ما كتبته على جماعة من أهل العلم والفضل، زيادة في الطمأنينة بألا أكون قلت في كتاب الله بغير علم، وغاية ما أريده أن يكون خطأ الكتاب مغموراً في صوابه، وأن أكون معذورًا في الخطأ لا مأزورا.

وهذا الكتاب بين يديك أخي القارئ، أنتظر قراءتك وتقييمك، ونقدك وتوجيهك؛ حبًّا في القرآن؛ وخدمةً لمعانيه الكريمة.

وهنا شكرٌ واجبٌ لصاحب الفضل والإحسان سبحانه، فله الشكر من قبلُ ومن بعد، على نعمه العظيمة، وآلائه الجسيمة.

والشكر بعد ذلك لجميع السادة الفضلاء، الذين أكرموني بوقتهم وعلمهم، وحبهم ونصحهم، وعونهم ومساعدتهم. لهم جميعا أصدق الشكر والثناء، ولهم في سجودي خالص الدعاء، ولست أجد ما يكافئ فضلهم غير الدعاء، والله هو الغني الكريم.

المؤلف

عبدالله بن مرزوق القرشي

إيميل: a0503704440@gmail.com
تويتر: @aabualmonther

الوقفة الاولى

في نظام التفكير

تصحيحُ (التفكير) أهم من تصحيح (الأفكار)

بين الأفكار والتفكير:

ذهبَتْ كثيرٌ من الجهود والأعمار في سِجال (الأفكار)، وهي على أهميتها وخطورتها أقل تأثيرًا وأهميةً من (التفكير) ذاته؛ فإن التفكير هو النظام الذي يتعامل مع هذه الأفكار، وهو المعيار الذي يحكم عليها بالقبول أو الرد، وهو المَعْنِيُّ بطريقة التعامل مع الفكرة الصحيحة وطريقة استثمارها. نحن بحاجة إذن إلى حديث عن (نظام التفكير) أكبر من حاجتنا للحديث عن الأفكار، (وإذا ارتفع البحر ارتفعت معه جميع السفن).

ماذا ستنفع المعلوماتُ الصحيحة إذا استقبلها نظامٌ في التفكير خاطئ؟! وماذا ستضر الخرافات إذا اصطدمت بنظامٍ دقيقٍ في التفكير، وآلية مِهَنية في التصديق والتكذيب؟!

لقد أنقذ (نظامُ التفكيرالصحيح) فتيةً صغارًا، كان كل ما يملكونه أمام تراكماتِ الخرافة، وسلطانِ العادة قانونًا فكريًا صحيحًا: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ ﴾ [الكهف: ١٥].

المطالبةُ بالدليل والبرهان كشفت لهؤلاء الفتيةِ الزيفَ المستبدَّ بعقول

قومهم، وأنقذتهم -بفضل الله- من عدد هائل من الخرافات والأفكار الخاطئة، والإسلام كما جاء بالحقائق والأفكار الصحيحة، فقد جاء كذلك بتصحيح التفكير والنظام العقلي.

صراع العقل والنقل:

لقد بالغ بعض الناس في تعظيم الدليل النقلي، والتهوين من شأن الدليل العقلي، حتى أصبح العقلُ تهمةً وريبة! وربما كان ذلك بسبب غلوٍّ آخر في تعظيم العقل، وممارساته الخاطئة على حساب النقل الصحيح، ويبقى الحقُّ متمايزًا عن الغلاة، والحق لا يتعارض، إنما يتعارض وَهْمٌ سمَّوْه عقلًا، أو كذبٌ سمَّوْه نقلًا.

وحين نعرض على أحدهم الدخول إلى الإسلام، فكيف يقبلُ الإسلام ويرفض بقية المذاهب والأديان؟ ما لم تكن هناك قواعد عقلية محايدة، تكشف أن الإسلام هو الدين الحق، وأن ما عداه هو الباطل!

إن عدم احترام هذه القواعد العقلية والفطرية يمنح الحق لكل أحد أن يدَّعي صحة دينه ومذهبه، ولن يبقى معيارٌ محايدٌ يكشف صحة الدعوى أو زيفها.

وفي القرآن خطاب عجيب لهذا الإنسان بعقله وفطرته وعاطفته، حتى إن الآية الواحدة منه قد تكشف للإنسان الهداية، وتُخرِجه من العَماية، وتصل إلى أعماق عقله وفطرته، ومن ذلك ما ذكره ابن كثيرٍ -رحمه الله- في تفسير قول الله تعالى: ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴾[الطور: ٣٥]. يقول رحمه الله: «هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية،

فقال تعالى: ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴾ أي: أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا .

قال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان قال: حدثوني عن الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ۝٣٧ ﴾[الطور: ٣٥-٣٧]، كاد قلبي أن يطير .

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من طرق، عن الزهري.

وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركا، وكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك».



الحقّ لا يتعارض:

إن التفكير الصحيح لا يقبل بعض الحق ويرد بعضه، ولا يضرب بعض الحق ببعض، فكما أنه لا يجوز أن يضرب الوحي المنزل بعضه ببعض، فإنه لا يجوز أن يضرب الوحي المنزل بحقائق الكون وسننه ونواميسه، فالوحي من عند الله، والكون ونواميسه خلق الله، والحق لا يتعارض، مثال ذلك: ما نراه من تفوق الكفار في قوّتهم واقتصادهم ونظامهم ورفاهيتهم، فربما فهم بعض الناس أن كفرهم يمنعهم من ذلك، فإما كابر الواقع، أو شك في الوحي، ولم يعلم أنّ من سنن الله في خلقه العدلَ، فهو يؤتي في هذه الدنيا من أخذ بأسبابها، وسعى لها سعيها، والإيمان بالله وحده لا يكفي لأن يجعل أتباعه أكثر قوة، أو أغنى مالًا، أو أحسن نظامًا.

وإذا فهم الإنسان من الوحي ما يعارض سنن الكون ونواميسه الثابتة؛ فعليه أن يعود ليتأكد من فهمه للوحي، وفهمه لنواميس الكون، فلابد أن خطأً ما وقع في فهمه لأحدهما، وقد نص القرآن على أن الدنيا يؤتيها الله لمن طلبها بصدق: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾، [هود: ١٥]، ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠].

إذن فعقل المسلم ونظامه في التفكير يجب أن يستوعب حقائق الوحي، ونواميس الكون، وأن يستفيد منها علمًا وبصيرة، وألا يفرض التعارض بين أمرين مردُّهما لله وحده، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]



لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن:

حين يغيب (نظام التفكير) يصبح العقل مرتعًا للخرافة، ومَجْمعًا للتناقضات، ومن المؤسف أن التوحيد الذي جاء حربًا للخرافة، أصبح بعض أتباعه لا تتحرج عقولهم من قبول خرافات دينية وسياسية ومجتمعية؛ ذلك أنهم أخذوا (فكرة التوحيد) ولم يأخذوا (نظام التفكير الذي فرضه التوحيد)، ولذلك؛ أصبحت هذه العقول تقبل الأفكار والأخبار دون أن تُعرِّضها لهذا القانون الصارم: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤]، ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ [الكهف: ١٥]، ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾، [الزخرف: ١٩]، ﴿أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾، [غافر: ٤٠].



للضلال بابان:

إن القرآن يُعلّم أتباعه أن التصديق مسئولية، والتكذيب -كذلك- مسئولية، وللضلال بابان: تكذيب الحق، وتصديق الباطل. قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾[العنكبوت: ٦٨]، وقال سبحانه: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾[الأعراف: ٣٧]، ومن اعتقد أن مع الله إلها آخر ونحو ذلك فقد افترى على الله كذبًا. يقول ابن جرير الطبري -رحمه الله-: «يعني: ممن اختلق على الله قيلَ باطل، واخترق من نفسه عليه كذبًا، فزعم أن له شريكًا من خلقه، وإلهًا يعبد من دونه -كما قاله المشركون من عبدة الأوثان- أو ادعى له ولدًا أو صاحبةً، كما قالته النصارى». فنظام التفكير الصحيح يتوثق فيما يصدق، ويتوثق فيما يكذب، ولا يصدق إلا بنظام، ولا يكذب بغير نظام.

العقل المتناقض:

أما التناقضات، فإنك تعجب من قبول الفكرة وما يناقضها، وكأن الأفكار في بعض العقول متباعدة وليست متلازمة، فيمكن أن يقبل الفكرة وما ينقضها في وقت واحد!

لقد رفض عقلُ المشرك فكرةَ البعث والمعاد في ذات الوقت الذي قَبِل فكرة خَلْقه أوّل مرة، دون أن يشعر بالخيبة والتناقض، وكشف القرآنُ هذه المشكلة في بيان عجيب جمع بين قوة الإقناع واختصار العبارة: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٦٦-٦٧]، وفي موطن آخر: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾.[يس: ٧٨].

عقول أهل التوحيد لا ينبغي أن تغفل عن التناقضات، ويجب أن تحافظ على صحة نظامها وتفكيرها واطّرادها.



يستبدلون الهوى بنظام التفكير:

وهناك مشكلة كبيرة حين يصبح القبول والرفض للأفكار والأخبار يخضع لمنطقٍ آخر لا يحترم (نظام التفكير)، بل هو يقبل ويرفض بناء على حبه وهواه، أو بناء على موافقته لآبائه أو شيوخه أو مجتمعه، تلك مشكلة خطيرة تسمح لصاحبها أن يقبل الشرك الأكبر دون أن يشعر بضلاله وإشكاله.

عقل المشرك يستنكف من قبول الحقائق؛ لأنه لم يعهدها عند آبائه الأولين، ثم يسمح للخرافات أن تملأ عقله؛ لأنها من تراث قومه وآبائه!

وفي الحوار القرآني بين إمام الموحدين، إبراهيم -عليه السلام-، وقومه ما يكشف هذه المعضلة: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٧٢-٧٤].

كان إبراهيم يناقش الأفكار بنظام التفكير، وقومه يقبلون ويرفضون بناء على منطقٍ آخر، وهو منطق العاطفة والهوى، وموافقة آبائهم الأولين، وكل من التزم بنظام التفكير الصحيح فهو تابعٌ في ذلك لإبراهيم، وكل من جنح إلى الهوى والتقليد الأعمى فإنه يشابه في ذلك قومَ إبراهيم.

التفكير والهوى: غالبٌ ومغلوب:

إن نظام التفكير كما يتعامل مع الأفكار والأخبار العقدية الكبرى، يتعامل مع الأخبار والأفكار اليومية، ولذلك؛ تنحسر الشائعات والأكاذيب حيث يعمل هذا النظام، وتشيع الأغاليط حين يسترخي ويضعف النظام، وفي مملكة النبي الصالح سليمان لم يتخلف هذا النظام، حتى مع الحماس للتوحيد، والغيرة على دين الله من جريمة الشرك؛ فقد جاء الهدهد منتصرًا للتوحيد، متوجعًا مما رآه من الشرك: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٢-٢٦].

ورغم هذه الغيرة على دين الله، والانتصار لشأن التوحيد، بقي نظام التفكير والتعامل مع الأخبار قائمًا لا تُلغيه العاطفة، فقال له نبي الله سليمان: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧].

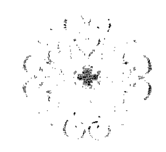
اختبارٌ صعبٌ لنظام التفكير حين يأتي الخبر كما نهوى؛ فأكثر الأخبار الكاذبة نقبلها حين نهواها، والأكثر قربًا من أئمة التوحيد هو من يحافظ على نظام تفكيره فيما يحب ويكره، ومن يبحث عن البينة في تصديقه وتكذيبه، ومن ينتصر نظامه في التفكير على عاطفته وهواه.

احترام الدليل:

نظام التفكير الصحيح يحترم البينة والدليل أيًّا كان مصدره، ويوسع مداركه ليأخذ العظة والعبرة حيثما كانت، فالحب ليس شرطًا في القبول والاستفادة، والكره ليس مانعًا من الاستماع والاختيار، وفي يوم عاشوراء قال رسول الله ﷺ كلمته النورانية، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، فَوَجَدَ الْيَهُودَ صِيَامًا يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَهُ؟» فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ عَظِيمٌ، أَنْجَى اللَّهُ فِيهِ مُوسَى وَقَوْمَهُ، وَغَرَّقَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ؛ فَصَامَهُ مُوسَى شُكْرًا، فَنَحْنُ نَصُومُهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَنَحْنُ أَحَقُّ وَأَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ، فَصَامَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ».

وقد وجدت بعضهم يتحرّج من ذكر الشهادات والثناءات على

رسولنا الكريم، بلسان الكفار والمخالفين، ويرى أن في ديننا ودلائلنا غُنية وكفاية. لاشك أن دين الله لا يحتاج لشهادة أحد من الكفار، ولكن للكلمة الصادقة المحايدة تأثير خاص، ولا يمنع أن يستفيد منها المسلم دون غلو ومبالغة، وفي قول الله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾[الأحقاف: ١٠]، أصلٌ على الاستشهاد بكلامهم، فقد جعل لانتسابه هذا مزية خاصة في شهادته.



أولمْ يهدِ لهم:

طرائق الهداية كثيرة ومتنوعة، ومن أنار الله بصيرته، فتح له أبوابًا عديدة للهداية، ولا يُشترط أن تأتي الهداية بكلام عربي مبين، بل قد تأتي الهداية عن طريق العجماوات والجمادات، المهم أن يكون نظام التفكير دقيقا لا يقبل باطلًا، ويَقظًا منفتحًا على ألوان الهدايات.

وفي قصة ابني آدم، بعدما قتل قابيل أخاه هابيل، ولم يكن يعرف سنة الدفن: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِ﴾[المائدة: ٣١]، وتأمل هذا التصريح بأن الله هو الذي بعثه، والتصريح بأن الهدف من ذلك تعليمه وهدايته كيف يواري سوأة أخيه!قال ابن

جرير الطبري -رحمه الله-: «فأحب الله تعريفَه السنة في موتى خلقه، فقيَّض له الغُرابَين اللذين وصف صفتهما في كتابه».

لقد كان هذا الغراب وصنيعه طريقًا للهداية والاستفادة، وعقل المسلم وتفكيره يجب ألا يعمى عن هذه الدلائل، وألا يُعرِض عن أسباب الهداية في وحيه أو خلقه.

وفي الجمادات أسباب للهداية لقومٍ يتفكرون، فمساكن الذين ظلموا وهي خاوية آيات بينات، والعقل البصير لا يمرُّ على هذه الديار غافلًا مُعرضًا، بل مستيقظا مستبصرًا يرى آياتها، ويسمع مواعظها: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦]، فجعل المساكن من أسباب الهداية، واعتبرها من الآيات لقوم يسمعون، وفي موطن آخر يقول الله: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨]، فأصحاب النهى والعقول البصيرة لا يمرون على هذه الجمادات دون هداية واستفادة.

إنصاف الرأي الآخر:

سماع الرأي الآخر ضرورة في التفكير الصحيح، ولا ينبغي أن يحارِب الرأي الآخر إلا الخائفون من سطوة الحق على مواقفهم الهشة.

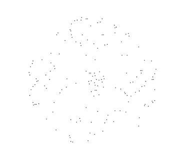
الحق لا يتضرر من الرأي الآخر، بل يزيده إشراقًا وبيانا، أما الرأي الضعيف، فإنه يطلب الحياة والبقاء بمحاربة الآراء الأخرى، وحجبها عن الناس: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦].

هل يليق بعد ذلك أن يخاف أهلُ الحق من الرأي الآخر ؟! هذا لا يعني تتبع الشبهات في مساربها وجحورها، بل سماع الآراء الظاهرة الحاضرة حول قضية معينة، سماع الرأي الآخر إما أن يزيد الحق وضوحًا، أو يبين بعض الجوانب التي حصل فيها نقص أو خلل، وربما يتبين أن الحق بخلاف ما عهد الإنسان عليه نفسه وقومه.

إن كل حقٍّ تأتي معه دعاية تشوه الحق وأهله، وما لم يحترم الإنسان آلية الرأي الآخر وضرورة سماعه، فإنه سيَحرم نفسه كثيرًا من الحقائق والمعارف.

الباحث عن الحق لا يمكن أن يستوفي بحثه دون أن يسمع الرأي الآخر.

في بعض الأحيان لسنا أمام حق وباطل، بل أمام مواقف اجتهادية، ولو كان أصحابها من الإسلاميين، مقابل آراء اجتهادية، ولو كان أصحابها منسوبين للعلمانية ونحوها، هنا يكون الرأي الآخر أكثر ضرورة؛ فإن غياب الرأي الآخر يغيب معه التطوير والاستدراك، وغيابه يعطي آراء البشر واجتهاداتهم منزلة فوق منزلة البشر.



العلة لازم المعرفة:

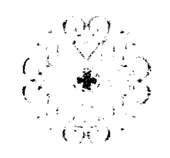
المعرفة المُعلَّلة لا يستغني عنها العقل الصحيح، وفي قصة موسى مع الخضر درسٌ وعِبرة؛ فإن موسى قد ذهب إليه بتزكيةٍ ربانية لعلمه ورحمته: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥]، وقد علم الخضر أن موسى لا يطيق صحبته؛ فإنه سيرى أفعالًا لا يعرف سببها وعلتها، وموسى من أحرار العالم وأذكيائهم، وعقلُه لا يطيق أن يقتنع دون حجة، أو يقبل بدون علَّة: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ [الكهف: ٦٧].

سبحان الله ! يعلم الخضر أن عقل موسى لا يستطيع أن يصبر على ما لم يُحِط بخبره وسببه وعلته، لا تنس هنا أن الذي دلَّ موسى على الخضر هو الله، وأن موسى خير من يؤمن بالله، وقد حاولَ جَهده أن يقبل دون سؤال، وأن يصبر على ذلك، ولكن غلبته خِلقته وفطرتُه السويّة، وربه يعلم بذلك ويرضاه، قال موسى: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴾ [الكهف:٦٩]، وقد اجتهد موسى -عليه السلام-، وفي كل مرة يندم على سؤاله ويعزم على ألا يعود، حتى انتهى به الأمر إلى عذره في ترك صحبته: ﴿ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴾ [الكهف: ٧٦].

إن إمام الموحدين والمؤمنين لا يصبر عقلُه على معرفةٍ غير معلَّلة، مهما حاول وصابر، ومن أراد أن يصبر الناسُ على معرفة غير معلِّلة، فقد أرهقهم من أمرهم عسرًا، ولهم في موسى أسوة حسنة إن تركوه وفارقوه.

إن موافقة المتربي لأستاذه دون دليل وحجة هو من نقص الحرية والعقل، وليس من زيادة الأدب والفضل، ومثل ذلك لا يُحتفَل به.

ذاك الذي لا يقبل إلا بالحجة أكثر ثباتا مع الأيام، وأقوى مراسًا مع الأعداء.



سلطة التفكير الجمعي:

للعقل الجمعي تسلط على عقل الإنسان، ومن الصعب أن يفلت الفرد من قبضته وهو يعيش وسط قومه وجماعته، ولذلك؛ ارتبط السجن بكثير من المراجعات، فقلّما تجد مقدَّما في قومه يدخل إلى السجن، ويصبح في خلوة مع عقله الخاص بعيدًا عن تسلط العقل الجمعي، إلا وهو أمام مراجعات وأفكار جديدة، كان محجوبا عنها بسلطة التفكير الجمعي، فأصبح يرى وحده ما لم يكن يراه داخل الجمهور والجماعة.

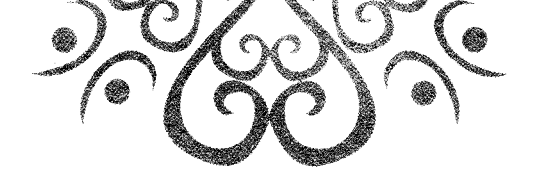
لابد للإنسان من الخلوة بنفسه مختارًا غير مجبور، خلوة في مسجده، أو سفره، أو نحو ذلك؛ يعيد النظر في خياراته وقراراته المهمة، ويحاذر من تسلط العقل الجمعي وحجابه. يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾[سبأ: ٤٦].

التفكر مطلوب، وآفته حين يُحجَب بالعادة والجماعة، والخلوة بالنفس أو بمن هو في مقام النفس، تمنح العقل القدرة على التفكر والبصيرة، وتسمح للرجل أن يستثمر طاقته في التفكر والتفكير، واختبارِ القناعات، وتحديد الخيارات، وتصحيح الطريق والمسار.

لقد كرر المشركون التهمة لرسول الله حتى أصبحت راسخة في العقل الجمعي، ولن يُعرِّض هذه التهمة للاختبار الحقيقي إلا التفكر، ولا يساعد التفكر مثل الخلوة بالنفس أو من هو في مقام النفس: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

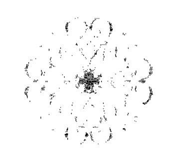
إن نظام التفكير عالَم آخر غير عالَم الأفكار، وهو بحاجة إلى اهتمام أعمق، ووقت أطول، وكثيرٌ من المواقف الخاطئة تعود لتفكير خاطئ، فنخطئ حين نركز على العَرَض ونترك المَرَض، ونشتغل بالنتيجة وننسى السبب، ونخطئ أيضا حين نتحدث في الأسباب، ثم نختزلها في الخيانة أو مثلِها، نريح عقولنا من عناء البحث والتحليل، ولكن لا نريح الحقيقة، ولا نكتشف الموقف.

وراء أفكارِنا ومواقفِنا الخاطئة نظامٌ في التفكير قادَنا لهذا الخطأ، وما لم نتدارك هذا النظام بالتصحيح والمراجعة، فسيظل الخطأ يعود إلينا من جديد.



الوقفة الثانية

في الدعوة إلى الله



وداعيا إلى الله:

يكاد بعضهم أن يستهين بوصف «الداعية»، ونسي أن سيدَ الخلق أجمعين هو إمام الدعاة، وصَفَه ربه بذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

فالدعوة إلى الله شرف عظيم، والداعية إلى الله يمضي في طريقٍ يرفع لواءَه سيدُ الخلق أجمعين ﷺ.

هذا التعظيم اللائق بالدعوة والداعية يوجب علينا اهتماماً أكبر في تأهيل الدعاة، وإكرامهم، والعناية بهم، وهذا التعظيم للدعوة يوجب على الدعاة-كذلك-أن يتذكروا دائماً أنهم دعاة إلى الله، فيجب أن يكون ذلك كما يحب الله، فالدعوة ليست لما يحب الداعية ويهوى، بل لما يحب رب العالمين.

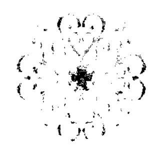
حين أدعو الناس لبعض أحكام الشريعة، وأُغفل في دعوتي ما هو أعظم وأجل عند الله منها، فهل هذه دعوة لما يحب الله، أو لما يحب الداعية ؟!

إن نظرةً سريعةً لطبيعة الموضوعات المكررة عند الدعاة اليوم تُبيِّن أنّ الأمر بحاجة إلى قدرٍ من المراجعة؛ حتى يصبح اهتمام الدعاة

وموضوعاتهم متوافقة مع أحكام الشريعة، وتفاوتِ منازلها في الأهمية.

كلما مررت على اللوحة الدعوية المعلقة على أبواب المساجد، أفرح بهذا الجهد المبارك، وألاحظ كيف تضخمت بعض الأحكام الشرعية المهمة على حساب ما هو أكبر أهميةً منها.

ومِن تعظيم الله، وتعظيم الدعوة إلى الله: أن نجعل أولويات الدعوة كما هي في الوحي الشرعي، وأن نراجع هذا الأمر مرة بعد أخرى.



القلب لا يمتلئ بشيء إلا فاض به على من حوله:

الدعوة للشيء فرعٌ عن حبه والتعلق به.. هكذا هو الإنسان، لا يحب شيئاً، ويتعلق به، ويتصف به، إلا ودعا إليه، ولذلك تجد لكل مذهبٍ وملّة، دعاةً يدعون ويُرغّبون، حتى البُخل، تجد الآمرين به، والداعين إليه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ ﴾ [النساء: ٣٧]، فإذا خَفَت همُّ الدعوة عندك، فاعلم أن ذلك لضعفٍ أصاب قلبك؛ فإن القلب لا يمتلئ بشيء إلا فاض على من حوله؛ دعوةً إليه، وترغيباً فيه.

صرفهم إليه:

الدعوة إلى الله اصطفاءٌ واختيار، والخلق كثير، والدعاةُ إلى الله قليل، وجديرٌ بالذاكر لربِّه، والمَعادِ إليه، أن يجعل في دعواته طلب التوفيق والهداية والاصطفاء لهذا الشرف العظيم.

وإذا صرفك الله للدعوة إليه، فزت وربحت، وقد صرف الله بعض الجن لرسوله محمد ﷺ، صرفهم إليه؛ حتى يستمعوا القرآن، ويدعوا قومهم إليه، وما أعظم نعمتهم، وأجلّ منّتهم بهذا الذي صُرفوا إليه:

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ [الأحقاف:٢٩].

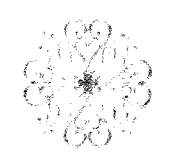
قلبه خلوٌّ من اليأس:

الداعية إلى الله لا ييأس من هداية أحد، أيّاً كان بُعده وفُجوره، عليه الدعوة، وعلى الله الهداية.

انتظر موسى -عليه السلام- يومَ الزينة، حيث التحدي والحشد الهائل؛ حتى يلتقي موسى مع كبار السحرة وأساطينهم. هو يدعو إلى الله، وهم يدعون إلى فرعون، هو يدافع عن الحق والحقيقة، وهم ينافحون عن الباطل والخرافة، ومخبوءٌ في القدر أن أول المؤمنين بموسى: هم ألدّ أعدائه، الطبقة الأسوأ في المجتمع، السحرةُ الكفرة: ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٥١].

الداعية إلى الله لا يستثني أحدا من دعوته، ولو كان خصمه ومعاديه، ولا ييأس من أحد، ولو كان الأسوأ والأبعد.

إن إيمان السحرة، وموقفهم المدهش في صبرهم وتضحيتهم يعطينا درساً كافياً في عدم اليأس من هداية أحد .



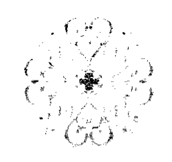
في أسوأ البيوت مسارب للنور:

في تجارب الدعوة المعاصرة تنتشر الدعوة في أماكن دون أخرى، وبينما تستجيب بعض الشرائح المجتمعية للدعوة إلى الله، تبقى بعض البيئات بعيدة بعض الشيء.

مع الزمن يتسرب شعور بأن تلك البيئات بعيدة عن الدعوة والتدين، وربما يزهد فيها أهل الدعوة.

حقائق التاريخ تثبت أن أسوأ البيوت يوجد فيها مسارب للنور، وأنه لا يجوز أن نعرض أو نيأس من بيتٍ واحد، فضلاً عن بيئة أو شريحة، مهما كان انتماؤها، ومهما كانت تجاربها السابقة مع الدعوة. لقد دخل النورُ بيتَ الملك الزعيم المحارب للرسالة والهداية، في الوقت الذي كان يحشد أجناده؛ ليحجب النور عن مملكته ! فآمنت زوجه، وأصبحت مثلاً للذين آمنوا: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: ١١]، وآمن رجل يكتم إيمانه، وكان مشغولاً بالدعوة والإصلاح من داخل القصر، بما يناسب حاله ومكانه.

إن بعض الانطباعات التي نلقيها على بيوت أو بيئات معينة هي من عمل الشيطان، وبعد بيت فرعون، لا ينبغي أن ييأس الداعية من أي بيتٍ آخر.



ياليت قومي يعلمون:(رحمةٌ في قلبه):

الدعوة إلى الله حبٌّ وعطاء، قبل الدعوة هناك تجربة إيمانية، يذوق الداعية حلاوتها وهدايتها، ثم يحب لغيره أن يشاركه هذه الهداية، فيظل يدعوهم؛ رحمةً بهم، وحباً في هدايتهم.

لقد كان الداعية إلى الله في سورة (يس) مثالاً عجيباً في هذا الحب، ظل يدعو قومه إلى الله، واتّباع المرسلين، منذ أن جاء من أقصى المدينة يسعى، وحتى مات مقتولاً مظلوماً، وظل يحب لقومه الهداية، منذ أن كان حياً بين ظهرانيهم، وحتى قيل له ادخل الجنة: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦].

ما أعجب هذا القلب الذي لا يجد الحقدُ إليه سبيلاً!

آذوه، وحاربوه، وقتلوه ظلماً وعدواناً، وظل قلبه مشغولاً عن الأحقاد بتمني الهداية لهم.

أخطر شيء على الداعية أن يسمح للأحقاد أن تستوطن قلبه. الدعوة حب، والحب لا يجاور الأحقاد ولا يساكنها.

ومن عجبٍ أن يستدل الداعية على قسوته بدعاء نوحٍ على قومه، ونسي

ما كان قبل هذا الدعاء من قرون متطاولة، يدعوهم ليلاً ونهاراً، وسرا وجهاراً. من تأسى بنوح -عليه السلام- في طول دعوته (لهم)من قبل، يصح له أن يقتدي به في دعوته (عليهم) من بعد. نبي الله نوح لم يبدأ بالدعاء على قومه، بل بالدعاء لهم، ولم يدع عليهم إلا بعد حياة مديدة من الدعوة والرحمة، وظلت بقيةٌ من هذه الرحمة حتى جاء الطوفان، وابنه كافر معرض، وهو يقول له: ﴿يَـٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢]، وبعد هلاكه وغرقه، ظلت رحمته في قلبه، ودعا ربه حتى نُهي، واستجاب -صلى الله عليه وعلى نبينا محمد-.

مسجد الحيّ:

هو نورُ الحيِّ، ومصدر بهجته ورحمته، هو البيت الذي يجتمع فيه أهل الحي خمس مراتٍ في اليوم والليلة، ليس لأحدهم هذا البيت، إنما هو بيت الله الرحمن الرحيم! هنا يجب أن يكون الحب والتواصل والرحمة، ويجب أن يكون المسجد للجميع، حتى لذلك الصبي مع أمه، وحين يصرخ الصبي ويبكي، ينبغي أن يحرك هذا الصراخ رحمةَ الإمام في قلبه؛ فيخفف في صلاته من أجل الصبي وأمه، ولا ينبغي أن يحرك هذا الصراخُ قسوةَ

الإمام في قلبه؛ ليوبخها ويقرعها بعد الصلاة، وإذا شاء هذا الصبي أن يرتحل الإمام، فينبغي أن يتريث في الصلاة؛ من أجل هذا الصبي، دون تعنيف وتوبيخ .

المسجد لنا جميعاً: لرجالنا، ونسائنا، وأطفالنا، ومن هنا تبدأ حكاية الحب والتعلق بهذا المكان: «وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ». والإمام الموفق من عمر بيت الله بما يحبه الله من تواصلٍ ومرحمة، وحب وشفقة.

تعظيم المساجد في عهد رسول الله ﷺ لم يمنع من صراخ الأطفال، ولا لعبهم، ولم يمنع من نوم الكبار، ولا لعب الحبشة، ولا إلقاء الشعر. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن عمر رضي الله عنه مرّ بحسان ينشد في المسجد، فلحظ إليه، فقال: قد كنت أُنشِدُ فيه، وفيه من هو خير منك.(متفق عليه). وكان عمر وقافاً عند كتاب الله.

المسجد في كل حيٍّ فرصة عظيمة لإقامة الدين، حين نتعامل معه كما تعامل رسول الله، وليس كما وجدنا عليه آباءنا الأولين. إمام المسجد: هو داعية إلى الله في ذلك المسجد، وينبغي أن يغرف لسانه من رحمة قلبه وحبه، وأن يصبر على جماعة المسجد، فخير الجماعات في خير المساجد بعد المسجد الحرام، تركوا خير الأئمة يخطب على منبره، وذهبوا للّهو والتجارة، ثم انظر لهذا الرفق والرقي في خطابهم: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ [الجمعة:١١].

بلسان قومه:

قربُ الداعية من قومه أنفع لدعوته؛ فمعرفةُ طبائعهم وتاريخهم ولسانهم وأعرافهم وعاداتهم، ومخالطتهم في غير ما منكر= أجدرُ في التأثير والإقناع: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقد يتسلل في المفاهيم الدعوية الرغبةُ في تمايز الداعية عن قومه، والتمايزُ هذا قد يجعله أكثر هيبةً واحتراماً، لكنه يُضعف قربه من قلوبهم، والتأثير عليهم، مع بُعده عن سمت الأنبياء.

إن مخالطة الناس في شئونهم وحياتهم حسنةٌ لا ينبغي أن يتنزه الداعية عنها: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وفكرة التمايز ذهب بها الكفار إلى الغاية، وافترضوا أن يكون الرسول من الملائكة: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [ق: ٢]، فهذا رأي الكافرين، أما اختيار الله فأمر آخر، اختار سبحانه أن يكون الأنبياء (منهم).

وكثيراً ما ينص القرآن على «الأخوة»: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [هود: ٥٠]، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء: ١٠٦]، ونحو ذلك.

إن الدعوة إلى الله تأثير، وفي القلوب مفاتيح التأثير، والقرب منهم، ومشاركتهم في أفراحهم وأحزانهم، وتلمُّس حاجاتهم، وإجابة دعوتهم، أدعى لحبهم وقربهم واستجابتهم.

يَبلُغُ الناس بكلّ سعْيِه:

وصول الداعية إلى جمهور الناس وعامتهم هدفٌ واضح، يصل إليه بكل طريق ممكن، فهو يبحث عن الناس ولا ينتظرهم أن يأتوا إليه، فحين قامت المناظرة بين فرعون ونبي الله موسى -عليه السلام-، وطلبه موعداً للتحدي، استثمر ذلك موسى عليه السلام للوصول إلى عموم الناس، قال موسى: ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه: ٥٩]. إن هذا الموعد لم يأتِ اتفاقاً، بل هو لهدف واضح في ذهن الداعية المشغول دائماً بإيصال دعوته وهدايته للناس، ويستثمر كل فرصة في تحقيق ذلك.

لقد كان بالإمكان أن يجري التحدي في قصر فرعون بعيداً عن أعين

الناس، لكن موسى مشغولٌ بالناس، واتخذ من هذا التحدي سبيلاً للوصول إليهم، ومن رسوخ هذا الهدف في قلوب الدعاة إلى الله: ما فعله الغلام المؤمن، وكان ثمن الوصول إليهم قتله، فرحب بقتله في سبيل الله، إذا كان ذلك هو الطريق الوحيد لدعوة الناس وهدايتهم، فقد روى الإمامُ مسلم في قصة الغلام المؤمن: «فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهما من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهما من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله رب الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صُدْغِهِ، فوضع يده في صُدْغِهِ في موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، فأُتِيَ الملكُ فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر، قد والله نزل بك حَذَرُكَ؛ قد آمن الناس ..».

في بعض الأحيان يوسوس الشيطان للداعية بأن احترام ما يدعو إليه يوجب عليه ألا يذهب للناس في أماكنهم، وأن يقتصر دوره في بيوت الله، ومن كتب الله له خيراً سيأتي بإذن الله، هذا من وسواس الشيطان، والداعية إلى الله لا ينتظر الناس حتى يأتوا إليه، بل يذهب إليهم حيث ما كانوا، ويستثمر كل وسيلة إعلامية وتقنية في تبليغ دعوته، ويسابق أهل

الشر والضلال في الوصول إلى الناس.

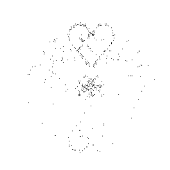
ويتعلق بهذا المعنى طريقة الخطاب الدعوي، فهناك خطابٌ نخبوي، وهناك خطابٌ جماهيري، فأيهما أولى وأحسن للدعوة بناء على هذا الهدف؟

أولاً: لكل خطاب ميزاته وعيوبه؛ فالخطاب النخبوي: جمهوره أقل عدداً، وأكثر أهمية، وأقل تفاعلاً، وأكثر نقداً. والخطاب الجماهيري: جمهوره أكثر عدداً، وأقل وعياً، وأكثر تفاعلاً، وأقل نقداً.

ثانياً: الجماهير محلٌ للدعوة، والنخبة محلٌّ للدعوة كذلك، ويجب أن يصل صوت الدعوة لكلَا الشريحتين، وأن يصل (بلسانهم) الذي يفهمونه ويتأثرون به.

ثالثاً: أما الداعية المعين، فيذهب حيث يجد مواهبه وقدراته، وكلٌّ ميسّر لما خلق له، دون أن يزهد أو يزدري الخطاب الآخر، وقليل هم أولئك القادرون على خطاب الجماهير والنخبة في آنٍ واحد: ﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ [الجمعة: ٤].

وغنيٌّ عن الذكر أن جميع الخطابات الدعوية يجب أن تلتزم بمعايير الشريعة، وألا تترك شيئا منها مسايرة لخطاب خاص، أو رغبة في تأثيرٍ خاص، فالوصول إلى الناس يكتسب أهميته حين يكون وصولاً صحيحاً، ملتزماً بمعايير الشريعة في الصدق والعدل ونحو ذلك.

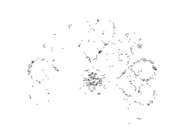


وما آمن معه إلا قليل:

بعضهم يحسب أن الحجةَ وحدها تكفي في كسب القناعة والهداية.. كلا؛ فالهداية اصطفاء ربانيّ، ولا يضير الداعية إذا أدَّى ما عليه ألا يجد استجابة، وله في بعض الأنبياء أسوة حسنة.

لقد جاء الأنبياء إلى أقوامهم بآياتٍ بينات وسلطان مبين، وكانوا سادة الأخلاق والذكاء والحكمة، ثم لم يؤمن كثيرٌ من أقوامهم حتى جاءهم العذاب الأليم. هل يملك أحد من الحجج والبينات أكثر من آيات الأنبياء؟! ومع ذلك لم يؤمن كثير منهم. ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ [الإسراء:٥٩].

المهم ألا يُقصِّر الداعية في وضوح حجته، وحسن أخلاقه، ورحمته، ودَأَبه على الدعوة والصبر عليها، ثم لا يلزم بعد ذلك أن يستجيب له أحد.

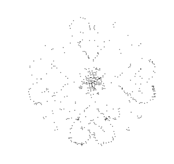


وإن يك كاذبا.. وإن يك صادقا:

من طرائق الدعوة في أحوالٍ خاصة: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨].

إن هذا الأسلوب -وما فيه من احتمال- قد يصلح- في بعض الأحوال- أكثر من الأسلوب الجازم والحاسم بصدق الرسالة واليقين بها، وربما يقال: هذا خاص بمؤمن آل فرعون، وما يقتضيه كتمان الإيمان، فالجواب: يكفي اعترافاً بهذا الأسلوب التوافق على أنه مناسب في مثل هذه الحالة، ثم إن هذا الأسلوب قد جاء في غير مؤمن آل فرعون: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٤-٢٥].

فهذا المنطق المحايد ليس شكاً في صدق الرسالة، بل هو أسلوب آخر في إقناع المدعو والتأثير عليه، وتهيئته للوصول إلى الإيمان واليقين. إنه أسلوب عقليٌّ يوصل إلى اليقين، وليس شكاً أو ريبة في مضمون الرسالة.



وجادلهم بالتي هي أحسن:

ومن طرائق الدعوة: إظهار المساحات المشتركة مع المدعو، فحين يدعو المسلم نصرانياً، ثم يكشف له مساحات الاشتراك، ويُسمعه الثناء على المرسلين قبل محمد ﷺ، والثناء على مريم وابنها عيسى -عليهما السلام-، يكون هذا النصراني أقرب للإيمان بمحمد ﷺ، وقد أمرنا ربنا أن يكون جدالنا بالتي هي أحسن، وإظهار هذه المساحة المشتركة بين الداعية والمدعو من التي هي أحسن في التعامل والجدال. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].



تعالق القول والعمل:

أيها الداعية: إذا حدثتك نفسك بقول الله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾، فحدِّثها بتمام الآية: ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾[فصلت: ٣٣].

الدعوة إلى الله يرتبط القول فيها بالعمل، وينبغي على الداعية أن يتعاهد دعوته دائماً في ارتباط القول فيها بالعمل، سواء في خاصة نفسه، أو دعوته، حيث يكون الكلام الطيب نابعاً من العمل الطيب، ويورث العمل الطيب.

ينجح الخطيب حين يخرج المصلي يبحث عن أمٍ يبرها، أو عن قريبٍ يصله، أو فقير يطعمه، أو ملهوفٍ يغيثه، أما إذا عاد المصلي بقلبٍ يشبه قلبه قبل الصلاة، ولا زاد من بره وإحسانه، فقد فاته النجاح، وارتباط الدعوة إلى الله بالعمل الصالح هو إغراءٌ بالعمل، وليس تزهيداً في الدعوة، فلا يسوغ حينئذ أن يترك أحدهم دعوته؛ لأنه مقصرٌ في العمل، بل يستمسك بدعوته ثم يجتهد في تدارك العمل، ويجعل من دعوته سوطاً يضرب به كسله وتفريطه في العمل الصالح.

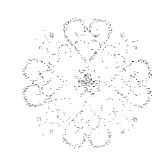
أصدقت أم كنت من الكاذبين:

حبُّ الدعاة إلى الله واحترامُهم وإكرامهم لا يعني السكوت عن أخطائهم، أو عدم التحقق من أخبارهم وأعمالهم؛ فإن ذلك يضر بالدعوة نفسها، التي كانت هي السبب في احترام هؤلاء الدعاة وإكرامهم. لقد جاء هدهد سليمان داعياً للتوحيد، وفي نفسه الغيرة على دين الله، جاء للملك الصالح المبعوث بالتوحيد (سليمان عليه السلام)، وأخبره متوجعاً من قومٍ يسجدون للشمس من دون الله، وهذه الدعوة والغيرة وحب التوحيد، لم تُعفِ الهدهد من اختباره، والتحقق من أخباره: ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [النمل: ٢٧].

وبهذا المنهج الصارم، ستبقى الدعوة إلى الله أكثر نقاء وصفاء.

لقد علمنا رسولنا الكريم أن إماطة الأذى عن الطريق صدقة.. والدعوة إلى الله أجلُّ الطرق، فإنه طريق إلى الله، فلا ترى أذى فيه إلا احتسبت الأجر في إماطته.

إن مما يحز في النفس أن تسمع الكذبة تتناقلها الألسنة، إنما روجها وأشاعها أحد الدعاة، فإن كان ناقلاً صح لومُه في تساهله وعدم تحققه، ويعظم الخطب إن كان هو اختلقها مهما كانت نيته.



واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام:

الشعور بالوصاية على الناس ليس من أخلاق الدعاة الله، الوصاية فيها معنى التزكية للنفس، والكبر على الناس، بينما الداعية إلى الله خائف على نفسه كما هو خائف على الناس، ويرى أنه مُعرَّضٌ للذنوب كلها، بما فيها الشرك الأكبر، لولا حفظ الله.

إمام الحنفاء والموحدين، أبوالأنبياء، إبراهيم -عليه السلام- يخاف على نفسه من الشرك: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [ابراهيم: ٣٥]، بينما تجد بعضنا يخاف على الناس، ولا يخاف على نفسه!

بمثل هذا الشعور، تنكسر حدة النفس وتزكيتها على الخلق، ويذوق القلب لذة التعلق بالله وحد، في هدايته وثباته: «يا عبادي كلكم ضالٌّ إلا من هديته؛ فاستهدوني أهدكم».





ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم:

القلب الأكثر رسوخاً في الهداية هو الأكثر تواضعاً والأقل ادّعاء، وحين يطفو على النفس شعورٌ بزيادة الإيمان، والتفوق على الآخرين، فإن ذلك من ضعف إيمانه لا من قوته.

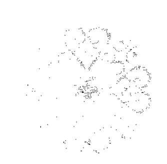
وقد حكى لنا القرآن مقالة الأعراب في الادِّعاء، وعالجها في آخر سورة الحجرات: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحجرات: ١٤ - ١٨]



واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات:

المؤمن والداعية إلى الله يتعامل مع ذنوب الآخرين بالاستغفار، وليس بالملاحقة والفضح والتعيير: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

وفي هذا الاستغفار معانٍ ضرورية لقلب الداعية: فهو مشغول بذنبه قبل ذنوب غيره، وفيه معنى الانكسار والتواضع، وذنوب المؤمنين لها في دعائه نصيب، وهذا يورث الحب والرحمة والشفقة، ويطرد القسوة والتعيير وغمط الناس وازدراءهم.



إن ربك هو يفصل بينهم:

كن على يأسٍ من حسم الخلافات في الحياة الدنيا، والدعوةُ إلى الله لن تحول جميع الخلق إلى هداة مهتدين: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥]، فحسم الخلاف والفصل

التام بين المختلفين من أعمال الربّ -جل جلاله- وسيكون في يوم الفصل، وما أدراك ما يوم الفصل!

في الدنيا لن يكون هذا الفصل، وستظل كل طائفة معجبة بدينها وأفكارها وتدعو إليه غيرها، وسيظل الدعاة إلى الله في حياتهم الدنيا يعملون في هذه الدعوة، ولن يأتي اليوم الذي تتعطل فيه الحاجة للدعوة إلى الله.

استحضار هذا المعنى يخفف من الطموح الذي قدَّر الله خلافه، ويساعد على مواصلة الطريق دون يأسٍ أو انقطاع، ويجعل الداعية أكثر ارتباطاً بمهمته الدعوية وعدم الانشغال بفصلٍ لا يقدر عليه إلا الله.



العبرة في الدعوة بـ (النية) لا بـ (النتيجة):

الداعية الصادق لا ينقطع عن دعوته لقلة المستجيب؛ فإنه يعمل لآخرته، ولو كان يعمل لدنياه، لحسب أرباحه وخسائره بعدد المستجيبين لدعوته، وعزاء الدعاة إلى الله: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

نجاح الداعية في مواصلة دعوته لربه دون كلل ولا ملل، وإن وجد نفسه في نهاية طريقه دون استجابة، فإن له في بعض الأنبياء أسوة حسنة: «ويأتي النبي وليس معه أحد» كما قال ﷺ.



اصبروا وصابروا:

إن النقاء والصفاء الذي يعيشه الداعية في داخل نفسه لا ينبغي أن يصل إلى حدٍّ يعجز معه عن التعايش مع نقائص المجتمع، وأخطائه، وخطاياه؛ فإنه إن عجز عن ذلك، هرب إلى العزلة، وانكفأ على خاصة نفسه، بعيدا عن المجتمع ودعوته وإصلاحه.

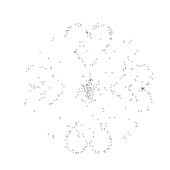
هكذا يريد الشيطان وأتباعه: أن تخلو الساحة من خصومهم؛ حتى تجتالهم الشياطين فيما يغضب الله ويسخطه. الرضا عن نقائص المجتمع خطيئة، والهزيمة أمامها ضعفٌ ونقيصة، ومقاومة ذلك بثباتٍ ودعوة وصبرٍ وحكمة.. حقٌّ وفضيلة.

النقاء الذي يحبه الداعية لن يكون في هذه الدنيا، إنما هو في الجنة وحدها. في الجنة (وحدها) لن تسمع ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦]، أما في هذه الدنيا فسيظل الداعية يسمع لغواً وتأثيماً، وهو يصبر ويصابر في استقامته ودعوته.



الوقفة الثالثة

عن الإصلاح



أولاً: شرف الإصلاح وضرورته:

١- من شرف الإصلاح أنه يدّعيه ويتمناه كلُّ أحد: البَرُّ والفاجر، والصالحُ والفاسد، حتى فرعون حارب نبي الله موسى -عليه السلام- باسم الإصلاح ومحاربة الفساد: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾[غافر: ٢٦]، ويقول لقومه: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، وكأنما الفرعون صاحب الإصلاح والرشاد، ونبي الله موسى صاحب الفساد!

نعوذ بالله من الكذب والضلال المبين!

والمفسدون في كل زمان رغم إفسادهم إلا أنهم يظلُّون متشبثين بهذا الاسم الشريف (الإصلاح): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

٢- ودعوى الإصلاح وحدها لا تكفي، فهناك فرقانٌ ظاهرٌ بين الإصلاح والإفساد، مهما بالغ صاحبه في الدعوى، ولذلك جاء الردُّ الرباني الحاسم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢].

٣- وهذا الفرقان بين الإفساد والإصلاح أَوْدعه الله في فطرة الخلق،

وأنزله وحياً يهدي به الناس، ويميز به بين الحق والباطل، ومن تولّى عن هذا الوحي؛ فإنه مفسد لا محالة؛ فالصلاح والفساد يُعرف بالوحي المعصوم، الذي لا تدخله الأهواء ولا الأدواء، فما وافق أمر الله فهو إصلاح، وما خالفه فهو إفسادٌ ولا ريب: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد:٢٢]، فجعل الفساد نتيجة حتمية للإعراض عن الوحي.

قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-: «والإفساد في الأرض، العمل فيها بما نهى الله جلّ ثناؤه عنها وتضييعُ ما أمر الله بحفظه، فذلك جملة الإفساد» (تفسير الطبري، آية ١١ من سورة البقرة)

٤- ولأن الإصلاح ضرورة في حياة البشر؛ جعله الله فطرةً في النفوس السوية، يشق عليها ترك الإصلاح ولو حاولت ذلك، فهذا نبي الله موسى وهو من أقرب الخلق إلى ربه، وأكثرهم استجابة لأمره، حين ذهب إلى العبد الصالح، وقد زكّاه ربه في علمه، وزكّاه في رحمته: ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥]، حتى إذا لقيه، أعطاه ما اشترطه عليه في صحبته: ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف: ٧٠]، ورغم ذلك؛ فإن موسى لم يستطع بنفْسِه الزكية، وفطرته القوية أن يترك الإصلاح، ويسكت عن ما يراه من أمر الباطل، وهكذا هي النفوس الزكية، لا تصبر عن الإيجابية، ولا تصبر عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد حاوَلَ موسى.. ثم لم يستطع عليه صبراً.

٥- والرغبة في الإصلاح ومناهضة الفساد طاقةٌ نفسية عجيبة، تشبه الطاقة التي تدفع الإنسان للغذاء، وتحمله بحثاً عن الرواء.

فحين تمالأ القوم لقتل موسى -عليه السلام- وهو من الإفساد في الأرض- تحركت طاقة الإصلاح المودَعة في نفس ذلك الرجل، وجاء من أقصى المدينة يسعى؛ حتى ينقذ حياة موسى: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

هذه الكلمة تستحق كلّ ذاك الجِدَّ والجَهد، ولذلك؛ ذكره ربه على سبيل الثناء والمدح؛ لأن الله يحب المبادرة والإيجابية في عمل الخير والإصلاح: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾[القصص: ٢٠].

ويشبه هذه اللفتة والإشادة، والموقف والريادة ما حكاه الله في سورة (يس) عن قصة الرسل الثلاثة مع قومهم، وقد كذّبوهم وهمّوا بهم: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، وكان من خبره ما كان، في حسن العاقبة والمآل.

٦- وللمجتمع المسلم شخصيةٌ اعتبارية، هي الأخرى يجب أن تكون فاعلةً في الإصلاح، وألا تترك الفساد ينتشر وسط سكونٍ وغفلةٍ وتشاغلٍ من أهل الصلاح والتقوى، فإذا تنازعت طائفتان داخل المجتمع، يجب

أن يتدخل المجتمع بينهما؛ رحمةً وإصلاحاً وحزماً، وتصل الفاعلية هنا إلى حد القتال للطائفة الباغية، إذا استوفى القتال شرطه، وهذا مظهرٌ صارخ في إيجابية المجتمع المسلم وإصلاحه:

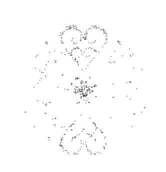
﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحجرات: ٩].

في هذا المجتمع الفاعل المُصلِح لن تجد يتيماً بلا كفالة، ولا كبيراً بلا رعاية، ولن تجد دمعة حزينة إلا ولها يدٌ حانية، تتلمس أوجاعها، وتمسح أحزانها، وفي هذا المجتمع الفاعل لن تجد الشيطان سيداً مطاعاً؛ فإن ما يُحدثه من فسادٍ وفتنة له رجالٌ مصلحون، يقاومونه بالإصلاح والتوبة.

٧- أما إذا خلا المجتمع من المصلحين، واستبدَّت بهم الغفلة والشهوة، وأصبح الفساد بلا مقاومة؛ فإن هذا المجتمع قد استوجب العقوبة الإلهية، بمن فيهم من الصالحين؛ فإن الصلاح الذي لا يقوى على نشر الإصلاح، هو كذلك لا يكفي لمنع العقوبة، فهو صلاح لا يدفع ولا يمنع: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧].

وفي الحديث تسأل أمُّ المؤمنين رسولَ الله ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال ﷺ: «**نعم، إذا كثر الخبث**» [صحيح مسلم(٢٨٨٠)].

فالإصلاح والمصلحون ضمانةٌ من العذاب، لو كانوا يعقلون.



ثانياً: وللإصلاح أعداءٌ له وخصومٌ:

١ - سنة الله في الحياة الدنيا أن يكون فيها العداوة: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦]، وأن يكون فيها المدافعة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وأن يكون في الأرض من يفسد فيها ويسفك الدماء؛ لحكمةٍ يعلمها الله جلّ جلاله: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

٢- وهذه العداوات لا سبيل للنجاة منها، ولا طريق لاسترضاء الأعداء-على الجملة-، مهما حاذر المصلحون من الأخطاء، ومهما اختاروا في سبيل إصلاحهم الطريق الأرفق والأرحم، فإنهم لن ينجوا من العداوة والأعداء، مادام لهم في الإصلاح قصدٌ وعمل.

يكفيك جرماً عند المفسدين أنك صالحٌ أو مصلح !

يكفيك جرماً عند أهل الخيانة أنك من أهل الأمانة !

﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، تطهُّرهم فحسب؛ سببٌ كافٍ للعداوة، والعملِ على إخراجهم من قريتهم !

٣- وهذا لا يعني أن جميع العداوات للمصلحين هي بسبب الإصلاح، بل يحدث من المصلحين بعض الأخطاء التي تستوجب المراجعة والتصحيح، ولا خير في إصلاح يستثني نفسه من المراجعة الذاتية، والإصلاح الداخلي، إنما المقصود هو اليأس من طريقٍ إصلاحي، لا تضحية فيه ولا أعداء.

ولا يسوغ للمصلح أن يستدل بالعداوة والتضحية وحدها على صحة طريقه ومنهجه؛ فـ(التضحية) ليست دليلاً شرعياً على صحة الموقف، كما أن (السلامة) ليست دليلاً على صحة الطريق، والدليل في موافقة الكتاب والسنة، وطريقة الاستدلال (بالسلامة) أو (التضحية) وحدها على صحة المنهج والموقف، طريقة خاطئة في الاستدلال، وقد حدث بعض هذا من قِبَل المنافقين: استدلوا (بالسلامة) على صحة موقفهم واختيارهم: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

٤- وأعداء المصلحين على أنواعٍ شتى: فمنهم المكاشح بعداوته لا يتخفَّى ولا يتوارى، وهؤلاء أقل خطراً من قومٍ آخرين يعيشون بين ظهراني المسلمين، ويتكلمون بلسانهم، ويتظاهرون بحبهم وولائهم، وهم يُضمرون العداوة، ويسعون بالفساد، ويتربصون بهم الدوائر، وربما اتخذوا المساجد والأعمال الصالحة غطاء يستر كيدهم وتدبيرهم،

كما فعلوا في مسجد الضرار، وفيهم أنزلت آيات كريمة ستظل درساً بالغ الحكمة في موقف المصلحين ممن أراد تمرير مشاريعه المفسدة، عبر لافتات مشروعة أو مقبولة.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٧].

٥- وبين المصلحين وأعدائهم جمهورٌ محايدٌ يسمع للطرفين، وربما اقتنع بقول المصلحين تارة، واقتنع بمقالة أعدائهم تارة أخرى، وعلى هؤلاء تكون المنافسة والتحدي بين الطائفتين، وعلى المصلح ألا يصيبه الإحباط، إذا رأى لبعض مقالات الأعداء آذاناً صاغية في صفوف المحايدين الذين لم يحسموا خيارهم، أو رأى بعض الصالحين يسمع بعض كلامهم، ويتأثر به، ففي أفضل المجتمعات هناك آذانٌ طيبة، تسمع وتتأثر بأصوات الفتنة والنفاق: ﴿ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ ﴾ [التوبة: ٤٧].

والواجب حينئذٍ مزيدٌ من العمل والمنافسة والإقناع والتأثير، وعدم الانشغال بالحكم على هؤلاء المتأثرين، أو الإحباط من صنيعهم.

٦- ومما يساعد هذه العداوات والأعداء: خوفٌ في بعض النفوس من أي تغييرٍ أو إصلاح،كما قال الله: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ

﴿ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ ﴾ [القصص: ٥٧].

والتغيير والانتقال لا يخلو من خوفٍ وإزعاج، والطفل يترك بطن أمه الضيق المظلم، ويقبل إلى سعة الدنيا وفسحتها، وهو يصرخ ويبكي.

فالإصلاح يحتاج إلى نفوسٍ كبيرة تصمد لهذه المخاوف، وتتجرد للحقائق، وتصبر على طول الطريق ومشاقِّه، ويحتاج لقدرٍ من التدرُّج المُطَمئِن أن الانتقال سيكون لما هو خير وأولى.

٧- ومِن أشد الأعداء للرسل والمصلحين: (الثبات): ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ [لقمان: ٢١].

والثبات على الشيء يصيره عادةً مستقرة، قال ابن القيم-رحمه الله-: «ما على العبد أضر من ملك العادات له، وما عارض الكفار الرسل إلا بالعادات المستقرة، الموروثة لهم عن الأسلاف الماضين، فمن لم يوطن نفسه على مفارقتها والخروج عنها، والاستعداد للمطلوب منه، فهو مقطوع، وعن فلاحه وفوزه ممنوع» (مدارج السالكين: ١٥٢/ ١).

ومفارقة كل عادة مستقرة أشبه بالمستحيل، ومحاربة العادات على الجملة، غير ممكن وغير مطلوب، ولكن تلك العادات المشتملة على سوء ومكروه.

والثبات لا يُحمد مطلقاً، ولا يُذم مطلقاً، إنما يحمد الثبات، إذا كان عن وعيٍ وبصيرة، وكان على حقٍ ودين، ويذم الثبات، إذا كان عن تقليدٍ وعَماية، وكان على إلفٍ وعادة.

٨- ومن أكثر الطبقات خوفاً من التغيير والإصلاح هي الطبقة المترفة، المستفيدة من قوانين المجتمع وشكله وعاداته، وأي تغيير فيه قد يُفقِدها بعض ترفها ونعيمها، إضافة لما يورثه الترف إذا تطاول عهده من عادات وأخلاق، مجافية للصلاح والرشاد: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤].

ثالثاً: ولأعداءِ الإصلاح وسائلُهم في العداوة:

١- من أهم وسائل الأعداء: الحملات الإعلامية الجائرة في تشويه المصلحين، ونواياهم، واختراع التُّهم الباطلة، والتخويف منهم، ثم الملاحقة الأمنية، والبطش الظالم، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

٢- ومن ذلك: ما اخترعه فرعون من ذنبٍ يريد أن يدين به السحرة حين آمنوا بموسى- عليه السلام-، ويبرر لنفسه البطش بهم: ﴿ قَالَ

﴿ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ ﴾ [طه: ٧١]، فالطغاة لا يعجزون عن تلفيق التهم، مهما احتاط المصلحون، ويسهل عليهم أن يخترعوا الأعذار؛ لبطشهم وملاحقتهم.

٣- التشكيك في النوايا، والنوايا مهرب يفزع إليه أعداء المصلحين، حين يشرقون بحجتهم وأدلتهم: ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ ﴾ [سبأ: ٤٣].

وفي قصة المصلح الرباني- موسى عليه السلام- قالوا له بعدما رأوا الآيات البينات على صدقه ونصحه: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس: ٧٨].

هربوا من منطقة الحجج والبينات إلى منطق اتهام النيات.

٤- الاتهام بالمؤامرة، وهي تهمة عريّة عن الدليل والبرهان، يفزع إليها أعداء المصلحين؛ هروبا من البينات والأدلة والبراهين: ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ ﴾ [طه: ٧١]، ﴿ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

وفي موقفهم مع محمد ﷺ: ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴾ [ص: ٦]

وهذا يعلمنا ألا نبالغ في الاعتماد على تهمة المؤامرة ضد خصوم الإصلاح؛ فالتحليل المؤامراتيّ، يعفي العقل من جهد جادٍّ في الرصد والتحليل، ومعرفة الفرق بين كل حالة وحالة، فإذا أُطلق العنان للتحليل المؤامراتيّ، تشابهت الحالات، واكتفى العقل عن الرصد والتفكير بالاتهام المجمل.

كما أن المؤامرة دليل غير كاشف، ولذلك يعتمد عليها أهل الباطل ضد أهل الحق، فهي لا تكلفهم أدلة وبينات، وهذا لا يعني إنكار وجود المؤامرات، والتآمر ضد أهل الحق والإصلاح، ولكن ينبغي أن نعتمد على الحجج والبينات، والأدلة والبراهين، أكثر من اعتمادنا على حقيقة نعتقدها لا نملك بينة ظاهرة عليها.

٥- التهوين من عدد المصلحين وأتباعهم، وأن غالب المجتمع ضدهم: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴾ [الشعراء:٥٤].

فإذا ظهر أمرهم، وفاتتهم القدرة على التقليل من عددهم، اتهموهم بأنهم قسموا المجتمع وفرّقوه، بينما هذا أمرٌ طبيعي، حين يكون داخل المجتمع طائفة تصر على مناوأة الإصلاح، ومحاربة أهله: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ﴾ [النمل:٤٥].

٦- وبعد أن تأخذ حملات التشويه حقها، يأتي الحل الأمني ملاحقةً وبطشاً؛ طمعاً في اختفاء الإصلاح وأهله: ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ

وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ [طه:٧١]، ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾.[الأعراف:١٢٧]، ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾[الشعراء: ١١٦]، ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾[الأعراف:٨٨].



رابعاً: وللإصلاح رجالُه وأخلاقُه:

١- من أهم صفات المصلح: الرحمة والإحسان، وفي قصة يوسف -عليه السلام- ارتباطٌ عجيب بين الإصلاح والإحسان منذ أن كان مع أصحابه في السجن: ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[يوسف: ٣٦]، وفي حال عزه وسؤدده: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٧٨]، وفي عاقبة أمره ومآله: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠].

وأيُّ إحسانٍ أعظم من إحسانه إلى إخوته، وهم في حاجته، وهو في سؤدده ورئاسته، وقد أبعدوه عن أبيه، وهموا بقتله، وجعلوه في غيابة الجُبّ على حداثة سنه وضعفه، وأخذه القوم بعيداً، وباعوه بثمنٍ بخسٍ دراهم

معدودة وكانوا فيه من الزاهدين، ودخل السجن غريباً وحيداً، ثم لازالوا بعد ذلك يقولون: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ [يوسف: ٧٧].

أيُّ إحسانٍ راسخٍ في نفس هذا المصلح، حين يغلبُ الإحسانُ بقيةَ النوازع، ويجود بالسّماح والغفران دون تريث: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [يوسف: ٩٢].

حتى الألفاظ في غاية الرقي والإحسان، حين يضطره سياق الشكر أن يذكر المحنة، وما وقع له: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فالشيطان هو سبب المشكلة، وهو وإخوته على مسافة واحدة من المشكلة.

لا أظنه يقدر على مثل هذا الإحسان إلا نبي، ولكن التشبُّه والمحاولة، والتسديد والمقاربة.

٢- إنّ ارتباط الرحمة والإحسان بالمصلحين أمرٌ فطري، والقسوة والغلظة والبطش عمل المستبدين المتكبرين: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩].

هما طريقان في عين الفطرة السوية: طريق المصلحين، وفيه الرحمة والإحسان، وطريق الجبارين، وفيه القسوة والغلظة.

لا تحاول أن تقنع نفسك أن بذاءة اللسان، والأخلاق السيئة والقاسية هي من الغيرة على دين الله، ومما يحبه الله ويرضاه.

٣- وفي صفات سيد المصلحين، قال الله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. [التوبة: ١٢٨].

لايوجد إصلاح حقيقي يقوده «الحقد».. الحقد يقود الدمار والانتقام، وفي قلوب المصلحين يجب أن تسود الرحمة والرأفة، والعفو والإحسان، والتحدي الأكبر في الثبات على هذه المعاني، رغم طول الطريق ومشقته وعنته.

٤- ومن أخلاق المصلحين ومهاراتهم: الإعراض الجميل عن الخصوم، والصمود إلى مشروعه النافع.

إن كثرة الأمر بالإعراض في القرآن ملفتة للانتباه، فالمصلح لا يسمح لردة الفعل أن تُخرِجه عن هديه وهدفه: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩].

يهزمك خصمُك.. حينَ يسلب منك اعتدالك وهدوءك، أو حين تنشغل به عن الاشتغال بنفسك، والمصلح مشغول بمعركته مع نفسه، في عفة لسانه، وكظم غيظه، ومواصلة طريقه.

والإعراض دربة تحتاج إلى تدريب ومجاهدة، وهو عملٌ إيجابي وليس

سلبياً، تُعرض عن أذيتهم، ولا تنقطع عن إصلاحك، ومشروعك النافع: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٤-٥٥]، فالأمر بالتولّي عنهم، مقرونٌ باستمرار العمل والتذكير.

والعاقل من اتخذ من أذية خصومه طاقةً جديدة، تورثه الإصرار، والتحدي على مواصلة الطريق، ولو انشغل المصلحون بما يقوله خصومهم، وانهمكوا في ردود الأفعال على أذيتهم، لم تتحقق مقاصد الإصلاح وآماله.

٥- ومما يساعد على الإعراض الجميل، وعدم الاكتراث الكبير بما يقولونه من سب وشتيمة وتهمة: أن هذا طريق المصلحين، ولم يسلم أحدٌ من ألسنة الخلق، حتى بلغت أذيتهم وفجورهم لمقام الرب عز وجل: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وعزاء المصلح أن المغرضين لا يملكون إلا الأذية، أما البراءة الحقيقية، والوجاهة، فمن الله وحده: ﴿ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

٦- وزادُ المصلح في طريقه الطويل هو التوكل على الله، والصبر، واحتساب الأجر في كل ما يلقاه من ضُرٍّ وابتلاء: ﴿ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا

مُنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء:٥٠]، ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ [الأعراف:١٢٨]، وقد قالت الرسل لأقوامهم: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[إبراهيم: ١٢]. وفي وصية الله لنبيه ﷺ مع أذية الكافرين والمنافقين: ﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤٨].

وفي الصلاةِ، والذكرِ، والدعاءِ، مددٌ وقوة، تعمر القلب بالإيمان، والتوكل، وإيثار الآخرة على الأولى، ومن كان مع الله لم يستوحش في طريقه، واسترخص كل غالٍ في سبيله، هم يهددونه بالقتل.. وعامة دعائه في سجوده: الشهادة في سبيل الله ! ولكنهم لا يفقهون.

٧- ومما يجب مراعاته في الإصلاح: شرط القدرة والتخصص، فالرغبة والنية الصالحة وحدها لا تكفي، وقد قال رسولنا ﷺ في قصة تأبير النخل: «أنتم أعلم بأمور دنياكم».

فمعرفة المصلح ما يحسنه وما لا يحسنه، وما هو من شأنه وما ليس من شأنه أمرٌ في غاية الأهمية، ويوسف -عليه السلام- قال للملك: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥].

فالعلم والقدرة هنا شرط لا يقل أهمية عن الأمانة والنية الصالحة.

٨- ومما يحتاجه المصلح: وضوحُ الرؤية؛ فإن وضوح الرؤية هو الذي

يستوعب كافة التفاصيل، فلا يضرب بعضها بعضاً، بل تتحول إلى اتجاه محدد، نحو رؤية واضحة تعود على المجتمع بالنفع والفائدة.

لا ينبغي أن يغرق المصلح في التفاصيل حتى يفقد (البوصلة)، وضوح الرؤية أنقذ أمة من المجاعة والمسغبة، فاستعدوا للسنين العجاف، بالعمل والادخار: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ [يوسف: ٤٧].



خامساً: وللإصلاح طرائقُه وأساليبُه:

١- الاتِّباعُ والإصلاح ليس حماسًا فحسب، بل هو فقهٌ وبصيرة قبل أن يكون عملًا وعزيمة، ويخسر بركةَ الهدي النبوي من اكتفى في المتابعة بظاهر العمل، وغفل عما يتضمنه ذلك العمل من شروطٍ عديدة، فيها زمان ومكان وإمكان، وطريقة وأخلاق، فإذا اجتمعت جميعا كانت من الحكمة التي تشهد لرسول الله بالإمامة والسيادة.

تَعجَبُ ممن يتعامل مع الاتِّباع والتشبُّه بالهدي النبوي بسطحيةٍ بالغة تكتفي بمراعاة ظاهر العمل، ولو فارق ما يتضمنه ذلك العمل من

حكمةٍ في مراعاة الوقت والمكان والطريقة والأخلاق، وما يترتب عليه من مصلحة تربو على المفسدة، وبالمثال يتضح المقال، فقد أُمِر رسول الله ﷺ باتباع أبيه إبراهيم -عليه السلام- كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣]، ولا يخالف إبراهيم عليه السلام إلا من سفه نفسه: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠].

ومن أعظم مواقف إبراهيم مع التوحيد ومنابذة الشرك، قصة هدمه للأصنام، فقد جعلها جُذاذًا في قصةٍ عجيبة خلّدها القرآن، وتحمَّل في سبيل ذلك شيئًا عظيمًا، حيث أجَّجوا نارهم العظيمة، وهو يراها وينتظر مصيره، ثابتًا صابرًا محتسبًا، ورموه فيها، لولا أن الله سلَّم وقال لها: ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

لقد سمع رسول الله هذه القصة وهو يدعو للتوحيد في مكة، والأصنامُ تُحيط ببيت الله الحرام، الذي رفع قواعده إمامُ الحنفاء، والذي أُلقي به في حُمَم النار؛ محاربةً للأصنام وأهلها.

فلماذا لم يبادر رسول الله وأصحابُه بهدمها ؟! ولماذا لم يفعلوا ذلك مهما

كان الثمن ولو تحمَّلوا في سبيل ذلك حُمَمَ النار ؟!

أليس الاتباع والتشبه بإبراهيم عليه السلام يقتضي ذلك ؟!

أليس التوحيد هو أعظم ما تدعو إليه الأنبياء، وهذه الأصنام هي الشرك الأكبر، وفي أطهر وأول بيت وضع للناس؟!

كلّ هذه الأسئلة تعصف بعقل ذلك الذي يرى الاتّباع عملًا وعزيمة، وينسى أنه قبل ذلك فقهٌ وبصيرة.

لقد مكث رسول الله ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة ولم يهدم الأصنام، ثم عاد لمكة معتمرًا، وطاف بالبيت العتيق، والأصنام حوله تُلوِّث المسجد الحرام بالشرك الأكبر دون أن يهدم منها شيئا، حتى إذا فتح مكة، جاء (الوقت) الأنسب لهدمها على الأرض بعد أن هدمها في القلوب، وبعد أن جاءت القوة التي تحمي التوحيد، ولا تسمح للشرك أن يعود في مكة على هيئةٍ أقوى وأرسخ، وأخذ يهدمها وهو يتلو: ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

حُبًّا في التوحيد؛ تأخر رسول الله ﷺ في هدم الأصنام، ولاريب أن رسول الله أحظى الخلق بإبراهيم عليه السلام، وأكثرهم (اتباعا له)، وقد كان اتباعه بأبي هو وأمي ﷺ فقهًا وحكمة وبصيرة، قبل أن يكون همَّة وعملًا وعزيمة.

الإصلاح والدعوة والاتباع إذا خلت من الحكمة ومراعاة الزمان والمكان والإمكان لم يكن لها حظٌّ من تلك الأسماء الشريفة إلا النية، والنية الطيبة وحدها لا تُقيم حقًا ولا تهدم باطلًا.

أخطر شيء في الاتباع أو الإصلاح حين نتعامل مع الأحكام الشرعية بعَماية، ونكتفي بظاهرها كيفما اتفق، ولو كان ذلك يعود على أصل الفعل بالنقض والإفساد، وإذا رأى نتائج فعله الخاطئ ومآلاته توهَّم أنها من الابتلاء في ذات الله.

الاتباع في الحكمة المُستبْطَنة داخل العمل أهم وأعظم من الاتباع لظاهر العمل، وربما تأخر المصلح في تنفيذ بعض الأحكام الشرعية كما تأخر رسول الله في هدم الأصنام؛ يبتغي لها أفضل الأوقات والأحوال: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

٢- ليس الإصلاح على وجهٍ واحد، فبينما كان موسى -عليه السلام- يحمل عبء الإصلاح الظاهر المعلن، حكى لنا القرآن قصة إصلاحٍ أخرى من داخل القصر، رجلٌ مؤمنٌ من آل فرعون يكتم إيمانه، وفي الآيات التي سجلت لنا تفاصيل كلامه وحرقته ودعوته بما يناسب حاله ما يبين لنا أن الإصلاح وجوهاً مختلفة، وأساليب متنوعة، والحكمة الشرعية تختار وتنتقي.

خطاب مؤمن آل فرعون مدرسة في (الإصلاح من الداخل)، بكل شفقة ورحمة وحكمة. وقد احتفى القرآن به، وأطال في حكاية أمره وإقناعه.

يستحق هذا الخطاب مزيداً من البحث والدرس.

٣- ومن التنوع في الإصلاح: التنوع في التعامل مع الخصوم والأعداء، فليسوا سواءً، وما يصلح لهذا قد لا يصلح لغيره، واشتراكهم في أصل العداوة أو الشرك لا يوجب التسوية في التعامل معهم. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة: ٨٢].

كيف يفهم هذه الآية، من يجعل أعداءه في سلةٍ واحدة ؟! التمييز بين الأعداء، وإدارة الصراع معهم، عملٌ شرعي، وهديٌ نبويٌّ.

لقد فارق رسول الله ﷺ في تعامله بين عمَّيهِ المشركَين: أبي طالب وأبي لهب، وفارَق في تعامله بين مشركَين آخرين: أبي جهل، يقاتله وينازله في بدر، ويُقتَل هناك شرّ قتلة، والمطعم بن عديّ، الذي يقول عنه رسول الله بعدما رأى أسارى بدر: «لو كان المطعم بن عدي حياً، ثم كلمني في هؤلاء النتنى، لتركتهم له».

إنه مشرك بالله، وهذا يوم الفرقان، وهؤلاء الأسرى هم فلذات أكباد عدوهم اللدود، ومع ذلك، لو سأله لأعطاه، هنا يجب أن ندرك أن البراءة

من الشرك وأهله لا تعني المساواة في التعامل معهم، وعداوة الإصلاح لا تعني عدم التفريق العادل والحكيم بينهم، والصراع كما هو عزيمة وهمة، فهو إدارة وحكمة، وحيث نفكر نحن كيف نهزم خصومنا، فإن كبار المصلحين يفكرون أيضاً كيف يكسبون بعض خصومهم، وكيف يحيدون بعضهم.

٤- في بعض الأحيان قد يوافق المصلحُ عدوَّه في أمرٍ معين، المصلح على نيةٍ وعدوُّه على نية أخر، ومن التزم أبداً بمخالفة عدوه، جعل قيادته في يد العدو، فكلما عمل عدوه عملاً، عمل المصلح خلافه، هذا ليس إصلاحاً له رؤية مستقلة، بل هو مناكفة عبثية تصل إلى حد التبعية للعدو، عن طريق مخالفته.

يقول الله لنبيه: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ [التوبة: ٩٥].

لقد أرادوا أن يعرض رسول الله عنهم، ووافقهم رسول الله في الإعراض؛ لأنه يختار قراره بناء على رؤيته، والأصلح لدينه، ومشروعه، ولا يهم بعد ذلك وافقهم أو عارضهم، وأحياناً أخرى، يتفق مع عدوه على مشروعٍ واحد، إذا كان هذا التعاون يحقق مقاصده النبيلة، كما هو الحال في حلف الفضول، وكما توافق هو ومن معه في المدينة من اليهود

وغيرهم، على ما يحفظ المدينة، ويحقق لها أمنها وحمايتها.

المخالَفةُ الدائمة ليست إصلاحاً، والموافقة الدائمة ليست إصلاحاً، والإصلاح رؤية واضحة ومستقلّة من تبعية الموافقة والمخالفة.

٥- ومن أهم أنواع الإصلاح، وهو الذي يُبقي على الإصلاح نقاءه وألقه: حركةُ التصحيح والإصلاحِ لمسيرة الإصلاح نفسه، الإصلاحُ يجب أن يرتبط بالمبدأ، وأن يتحرر من الأشخاص والتجارب، ولا يكون هذا التجرد إلا إذا تجرع أصحابه مرارة الاعتراف بالخطأ، وأمام خصومه المناوئين.

أعمال الإصلاح ومشاريعه ليست هي النسخة الأصلية من الإسلام، بل هي اجتهادات تخطئ وتصيب، ولذلك؛ يجب أن نصغي للمخالفين والمناوئين كذلك؛ فقد يقول المناوئ بعض الحق، والاعتراف بالخطأ حينئذ هو تجردٌ للحقِّ وللإصلاحِ ومبادئه النبيلة.

وفي قصة قتل ابن الحضرمي على عهد النبوة أسوة وعبرة.

لقد انتقد الأعداء صنيعاً فعله المخلصون للإسلام، والمضحُّون من أجله، قاتلوا في الشهر الحرام في القصة المشهورة، وانتقدهم المشركون المحاربون الظالمون، فنزل القرآن بالمنهج العظيم: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾[البقرة: ٢١٧].

هنا منهج عظيم لن نقف عليه كما ينبغي، حتى نستحضر ما بين الفريقين من سنوات طويلة، مليئة بالظلم، والاضطهاد، والبغي، والعدوان.. ولكن الحقّ أحقّ أن يتّبع.

ربما يجد المصلح في خطايا خصمه عذراً في عدم الاعتراف بخطئه، ولكن هذا سيجعل المصلح يستمرئ الخطأ، حتى يشبه خصمه، وكل مخطئ في هذا الطرف ينظر لمخطئ في الطرف الآخر، حتى يفقد الإصلاح تميزه وهدفه.

إنّ تركيزك الطويل في أخطاء خصمك يسمح لأخطائك أن تعيش وتنمو بأمان.

لابد من اليقظة التامة والمراجعة المستمرة؛ حتى لا تُثقِل مسيرةَ الإصلاح أخطاءُ التجارب، يقظةٌ تكشف الخطأ في تصرفات الأصدقاء؛ للتصحيح والتدارك، وتكشف الصواب والحق في تصرفات الخصوم؛ لتسبق وتنافس، ولا يوجد في طوائف الناس من هو شرٌّ محضٌ، ليس فيه خبرة أو حكمة، ولا يوجد خيرٌ محض، ليس فيه خطأ أو زلل.

وقف موسى -عليه السلام- أمام فرعون، رسولاً من رب العالمين، وحين خاطبه بأمر ربه، قال لموسى: ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨-١٩].

لا مجال إذن لإنكار الخطأ، مهما كانت جرائم فرعون، وبعد الاعتراف بالخطأ، يمكن أن يكمل الحديث بذكر خطايا فرعون: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء:٢٢].كما قال ربنا في الآية السابقة: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

٦- هل الرد على المخالفين أسلوبٌ في الإصلاح؟ بعضهم انهمك في الردود، حتى أصبحت أخطاء الآخرين هي التي تقود مشروعه، وبسبب ذلك وغيره؛ التزم بعضهم عدم الرد على المخالفين، والصواب أن بين الانهماك في الردود، والإعراض التام عن الردود خيارات كثيرة، والحكمة هي التي تؤيد الرد تارة، والإعراض تارة أخرى؛ مراعاة لأمور تختلف باختلاف الأحوال، والقرآن كانت له رؤية واضحة يبنيها في قلوب وعقول أتباعه، ومع ذلك، لا يترك الرد على الشبهات المناوئة، والأديان المنحرفة، وفي آية لها دلالة عجيبة يقول الله: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل ﴾ [البقرة:١٤٢]، فحكم عليهم بالسفه، ومع هذا رد على مقالتهم، وقال الملأ للمصلح الكبير -نوح عليه السلام-: ﴿ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [هود: ٣٢].

إن الرد في صورته الحكيمة: وقتاً، وقدراً، وأسلوباً فرصةٌ لبيان الحق والدعوة إليه، وتثبيتٌ للمخلصين من الأتباع ممن يقصر علمهم وحجتهم عن بعض الشبه، وبالتأكيد، فهناك تشغيبٌ لا ينتمي للحجج والشبه، وهناك سخرية واستهزاء لا ينبغي للمصلح أن ينزل إليها، فبضاعة أهل الحق والإصلاح: الحجج والآيات البينة، وبضاعة أهل الباطل: الاستهزاء والسخرية: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ [الصافات: ١٢ - ١٤].



الوقفة الرابعة

اجتماع الكلمة

ضرورة الخلاف وضرر التنازع

الخلاف شيء.. والتنازع شيء آخر:

الخلاف قدرٌ ربانيٌّ لا يمكن معاندته، وقد خلقه الله لحكمةٍ وفائدة، ولن تجد شيئاً مفطورًا عليه الخلق إلا وله فائدة ضرورية تعود على الحياةِ واستمرارها بالخير والنماء. الخلافُ شيء والتنازعُ شيءٌ آخر، التنازع هو الصورة الرديئة للخلاف، واستئصالُ الخلاف بكل صوره غير مقدورٍ عليه كوناً، وغير مطلوبٍ شرعاً، والمنافسةُ الشريفة هي من الصور الجميلة في استثمار طاقة الخلاف المودَعة في النفس البشرية، المنافسة الشريفة هي وقود النجاح: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾.

اعترفت الشريعة بطاقة المنافسة، واختارت القيم والمقاصد التي ينبغي أن يتنافس عليها العباد. إن الذي أنزل الشريعة هو الذي خلق الخلق سبحانه، ولا يمكن أن تأتي الشريعة لمعاندة الفِطرة والخِلقة، بل لتهذيبها وتزكيتها: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾.

وعندما جاء رسول الله ﷺ إلى المدينة آخى بينهم، لكنه لم يُلغِ ما بينهم من تنوع واختلاف، فبقي الأوس والخزرج في تمايزٍ مَردُّه إلى النسب، وبقي المهاجرون والأنصار في تمايزٍ مَردُّه إلى العمل، وكانت هذه الأسماء تزيد

من طاقتهم ومنافستهم في اتجاه الحق ورفعة الدين، ورغم ما يحدث بسببها في بعض الأحايين من عصبية جاهلية إلا أنها كانت تقاوَم بالتهذيب الذي يُبقي فائدة التنوع دون ضرره، ولم يُستأصل التنوع والاختلاف بالكلية، حتى لا يبقى نسبٌ أو عملٌ يمايز بينهم، وخير الهدي هدي محمد ﷺ.

الاختلاف ليس شرا محضا، ولم يخلقه الله ويقدّره إلا لحكمة بالغة، فالخلاف الرشيد يأخذ المجتمع نحو الأفضل، ويستخرج من النفوس أثمنَ ما فيها من طاقة وإبداع، والخلاف لمن أحسن إدارته ثراءٌ وتنوع، وحراكٌ وتقدم، أما من يفشل في إدارته فهو تنازعٌ يمزق الوحدة، ويعرقل المسيرة.

إن الخلاف داخل المجتمع ضرورة كونية وشرعية، وما لم يتم الاعتراف به مع تنظيمه وإدارته؛ فإنه يتحول إلى حالة نزاع وشقاقٍ وفُرقة، والمجتمعات لا تنهض ولا تتقدم دون خلافٍ وتنوع ومنافسة. ستلاحظ دائما أن إلغاء حق الاختلاف والتنوع لا يورث المجتمع (اجتماعًا وقوة) بل (تنازعًا وفتنة)، ولو خلت ديارنا من الاختلاف لكان من العقل والحكمة أن نستدعي بعض الخلاف؛ فالتقدم والتنمية والتطور لا يظفر بها مجتمع التنازع والفشل، كما أنه لا يظفر بها مجتمع الركود والتشابه.

الأهم في الخلاف إذن هو الاعتراف به، وإدارته بطريقة صحيحة تفرز بين الخلاف المقبول وغير المقبول، واتخاذ القوانين اللازمة في تنظيم هذا الخلاف وتحويله إلى طاقة جديدة للنجاح.

ليتنا نتوقف عن أحلامنا بترك الخلاف، لأنها أضغاث أحلام، تخالف القدر الكوني في هذه الحياة الدنيا، كما أنها لو تحققت -ولن تتحقق- تضر بقدر ما تنفع، وكل جهود يبذلها المصلحون في معاندة الخلاف ومكافحته هي تضييع للوقت الثمين الذي يجب أن يُبذَل في الاعتراف بالخلاف والعمل الجادّ على حسن إدارته.

البشر.. كل البشر، يجري في عروقهم الخلاف كما تجري الدماء، مسلمون أو غيرُ مسلمين، إنما يتفاوت الناس في حسن إدارتهم لهذا الخلاف، حتى يصبح الخلاف لقومٍ سُقْيا رحمة.. ولآخرين سُقْيا عذاب.

للخلاف قوانين تديره:

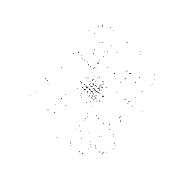
هناك أمور ستبقى محل نزاعٍ ومغالبة مهما كان القرار مِهَنياً وموضوعيا؛ لزيادة شهوتها وتَشَوُّف الناس إليها؛ ولذلك يجب فيها من الاحتياط والضبط والإدارة ما لا يجب في غيرها، فشهوةُ الرئاسة راسخة في النفوس، وربما بُذِلت فيها المهج والأموال، وما لم تكن هذه المنافسات والخلافات وفق قوانين صارمة للغاية تدير هذا الخلاف، فستحلّ الفتنة ويتمزق الناس وينتشر الهرج والمرج، وفي

القرآن ما يكشف حجم المشكلة، فقد اختار الله طالوت للمُلْك، وهو اختيارٌ رباني لقومٍ طلبوا من نبيهم ذلك: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ [البقرة:٢٤٦]، فلما اختار الله لهم ملكا اعترضوا ويا للعجب!

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

إنه اختيارٌ رباني، جاء بطلبهم وانتظارهم، واختار لهم من هو ظاهر التميز والتفوق؛ بسط الله له في العلم والجسم، ثم بعد ذلك

يعترضون ! لاسبيل إذن لعدم الاعتراض، وما لم تكن هناك قوانين في غاية الصرامة تدير الخلاف في مثل هذه الموضوعات، فستبقى محل نزاعٍ وفِتنة، وإضعافٍ للأمة.



التنوّع ضرورة:

بعض الخلافات بين الدعاة والمصلحين تشبه هذا الخلاف -وفي كلٍ خير: نبي الله سليمان يقول: ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِيٓ ﴾ [ص: ٣٥]، بينما محمد ﷺ يختار لنفسه أن يكون عبدًا رسولًا.

ليس بالضرورة أن نكون نُسخًا متشابهة، وطرائق متطابقة، وليس بالضرورة أن يكون أحدهما مصيباً والآخر مخطئًا، حتى الفاضل والمفضول قد يصبح المفضول فاضلًا في هذا الزمان أو ذاك المكان أو لذلك الشخص. وقد سئل رسول الله مرارًا أي العمل أحب إلى الله، فتنوعت الأجوبة ولم تأتِ بعملٍ واحد.

وربما قامت كلُّ طائفة بفرض كفاية وينفع الله بها نفعًا كبيرًا.

وكما يتقاسم الناس حاجات الدنيا فيقوم بعضهم بالطب أو الهندسة أو الزراعة أو البناء أو التعليم وتقوم دنياهم على هذا التنوع الضروري، فإن قيام الدين وقوته وانتشاره لابد له من مثل هذا التنوع.

الأجر والأجران:

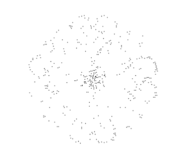
وبعض الخلافات بين الدعاة والمصلحين تشبه هذا الخلاف: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩].

يقع الاجتهاد في الحكم والإصلاح، وربما اجتهد أحدهم فأخطأ، ولا يُخرجه خطؤه عن فضل العلم وأجر الاجتهاد: ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا ﴾.

والمجتهد المخطئ ليس معذورًا فحسب، بل مأجور على اجتهاده، ومهما بلغ العاملون للإسلام من العلم والفضل وتحري الصواب، فإنهم مخطئون لا محالة، وبعضهم يكون أقرب للصواب من بعض، فهذان نبيّان كريمان يبتغيان العدل والإصلاح، كان أحدهما أصوب من الآخر: ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾.

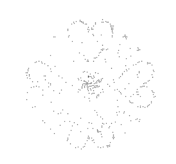
كذلك موسى وهارون اختلفا في التعامل مع حادثة العجل، فبينما بقي معهم هارون، كان موسى يرى مفارقتهم واتباعه: ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ [طه: ٩٢-٩٣].

الاختلاف ليس شرًا محضًا، إذا كان عن اجتهاد شرعي، وقبولُ الاجتهاد لا يعني التسوية بين الآراء، حتى لا تضيع الطاقة الحافزة للبحث عن الصواب، وقد جعل رسول الله ﷺ لأمته طاقةً حافزة للبحث عن الصواب بفتحه لباب الاجتهاد، وعذر المخطئ بعد اجتهاد، وإكرامه بالأجر والمثوبة؛ حتى لا يتهيب الناس عن المحاولة والبحث، ثم تمَّم هذه الطاقه وكمَّلها بتمييز المصيب بمزيد من الأجر والخير، حتى لا يسترخي بحثُه، ولا يضعف اجتهاده، وكم في هذا الاجتهاد من خير يعلمه الله، ففي حركة الاجتهاد حفظٌ للشريعة، حيث يفيئون إليها كلما اختلفوا، وتمييزٌ بين صحيحها ومنحولها حين يتفاوتون في الرأي ويتشاحون في الحجة، وبهذا الاجتهاد يُقبِل الأذكياء على علوم الشريعة، ويظهر العلماء الربانيون القائمون بأمر الله وشرعه.



هو سماكم المسلمين من قبل:

لا يوجد ما يمنع من الأسماء الخاصة: (سلفية، أو شافعية ونحو ذلك)، ولكن لا ينبغي أن تصل لمزاحمة هذا الاسم الشريف: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[الحج: ٧٨]، فعلى هذا الاسم تنعقد الموالاة والنصرة والنصيحة، أما الأسماء الأخرى فهي للتعارف والمنافسة على عمل الخير، وبهذين الأمرين يبقى للأمة اجتماعها وهيبتها باسم الإسلام، ويبقى لها حراكها وحيوتها بالتنوع والمنافسة.



ضرر التنازع:

التنازع إرادةٌ شيطانية: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ ﴾ [المائدة: ٩١].

إن الشيطان ينشر بضاعته داخل المجتمع المسلم بكل طريق، وربما دسَّ بضاعته في حقائب بعض المتديّنين، فظلوا ينشرون التنازع باسم الشريعة وهم لا يشعرون.

دينُ الله لا يزيد المجتمع المسلم إلا اجتماعًا وأُلفة، هذا صراط الله المستقيم، صراط الذي أنعم الله عليهم، أما المغضوب عليهم، فـ ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر: ١٤].

ومن هذه الأمة من يشابههم ويتتبّعهم، كما جاء في الحديث.

إن التنازع بين المسلمين يورث غضب الله، ويورث الضعف والفشل، وسنةُ الله لا تتخلف، وقد أصاب المسلمين ما أصابهم يوم أحد جرَّاء التنازع، وهم أكرم الخلق على الله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ

﴿ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وأهم أسباب التنازع: الإعراض عن دين الله كما أنزله الله، قال الله تعالى: ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

فالتولي والإعراض عن ما جاء به محمد ﷺ هو سبب الإفساد في الأرض، وسفك الدماء، وقطيعة الأرحام.

ومن الإعراض عن دين الله: الحسد، وسوء الظن، والغيبة، والنميمة وغير ذلك.

وبعض المفسرين جعل التولي هنا عن أمر الجهاد في سبيل الله، لسياق الآيات قبلها، ولاشك أنه من الإعراض والتولي عن دين الله، وفي هذا المعنى فائدة نفيسة، فإن من قصَّر في مناوأة الأعداء الحقيقيين انصرفت عداوته لإخوانه المسلمين، فتفرقت الكلمة، وتقطعت الأرحام.

إن في النفس الإنسانية مشاعر للعداوة والبغضاء لا يمكن أن تكبت، وما لم يصرفها الإنسان لمن يستحقها، فإنها تتسرب داخل المجتمع المسلم؛ فتفسد لُحمته، وتفرق جَمعته، فالإسراف في معاني الحب والتسامح لا يلغي الطبيعة البشرية، بل يجعلها تتسرب دون رقيب، وقد قيل: ما رأيتُ سَرَفًا إلا ومعه حقٌّ مضيَّع.

سبب الاجتماع:

من عرف أسباب التنازع عرف أسباب الاجتماع، فلا حاجة لإعادة الكلام وتكراره، ولكن يُضاف هنا سبب مهم للاجتماع، وهو سببٌ محايد يأخذه المسلم والكافر فيزيدهم اجتماعا، والاجتماع من زيادة العقل، والتنازع لقوم لا يعقلون.

إن إدارة الخلاف علم خاص، يتطور مع الأيام، ومن أهم أدواته: (الشورى)، والشورى يحبها الله ورسوله حتى لو كان الموضوع (فطامًا عن رضاعة): ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وقد أثنى الله على المؤمنين بأن أمرَهم شورى، كما قال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى: ٣٨].

والشورى أمر الله سبحانه، وخير الأمرِ أمره، أمَرَ به نبيه الذي يوحى إليه، ولو استغنى أحد عن عبادة الشورى لاستغنى صاحبُ الوحي ﷺ.

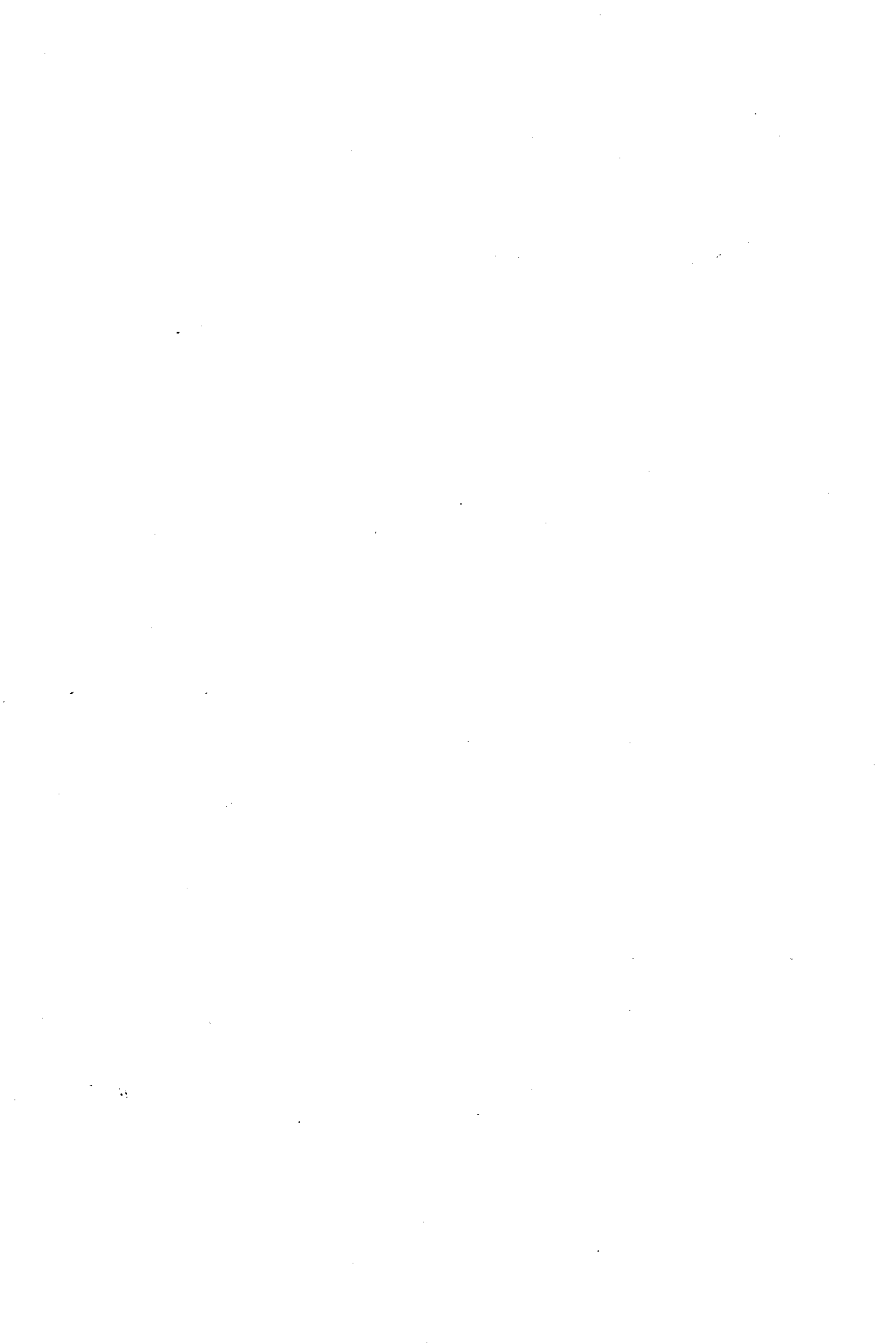
قال الله لنبيه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[آل عمران: ١٥٩]، وانظر كيف جاء الأمر بالشورى في سياق اجتماعهم وعدم انفضاضهم، ولا يجتمع القلوبُ على أحد دون الشورى التي هي أهم أدوات إدارة الخلاف.

إن في الشورى خيرًا وبركة، وما استعملها أهل خير إلا زادت برَّهم وخيرهم، ولا استعملها أهل شر إلا خففت من شرهم، وباعدت بينهم وبين أسباب الهلكة، وفي قصة يوسف كادوا أن يقتلوه، لولا (الشورى): ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [يوسف: ١٠].

إن الشورى معنى عام، وهي تتطور في أدواتها وطريقتها باختلاف الزمان والمكان والإمكانات.

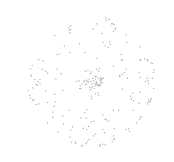
والشرع والعقل يشهدان للشورى ويدعوان إليها، وياللحسرة.. حين تنهض بالشورى أمم كافرة، فيجتمع شملها، ويلتم شعثها، وأمة محمد ﷺ في بُعْدٍ عن الشورى، غارقةٌ في بؤسها وتنازعها ومغالباتها.





الوقفة الخامسة

النقد



نعمة الندم:

(الندم على الخطأ) يشبه أَلَم المرض، هو مؤذٍ ومزعج، غير أنه خُلق لحكمة ربانية، تعود على حياة الإنسان بالنفع والفائدة؛ فألم المرض يوقظ صاحبه وينبهه على مرضٍ يحتاج للدواء، والندم على الخطأ يساعد صاحبه على الانتهاء. يقول الله تعالى: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمًا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، وكأن هذا الندم الذي يلحق المخطئ تحذير كافٍ من الوقوع في الخطأ.

والنقد يبين الأخطاء فيجلب معه الندم، ولذلك؛ يكره كثير من الناس هذا النقد، فكأن النقد يوقظ الندم من جديد، هذا في حال صحة النقد، فكيف إذا كان النقد بغيا وزورًا؟!.

الانزعاج النفسي من النقد أمر طبيعي، ولولا هذا الانزعاج لاستوى في نفس الإنسان الصواب والخطأ، ولم يحرص ويجتهد في تجويد العمل وإتقانه.

وللتعامل الجيد مع النقد وما يرتبط به من (نعمة الندم)؛ ينبغي أن يسمع الإنسان النقدَ بأُذُن عقله لا قلبه، فأُذُن العقل تفيد الخبرة، وأُذن القلب تُضعف الهمة، وينبغي أن تنظر للنقد على أنه فرصة لتحسين المستقبل،

وليس حكما على الماضي، وينبغي أن يعتدل هذا الندم؛ فإن الخوف من الخطأ إذا زاد، منع من العمل، فينفع قليل الخوف، ويضرّ كثيره، والقصدَ القصدَ تبلغوا!

إن البيئة التي تبالغ في الندم على الخطأ والخوف منه لا تصنع المبدعين، وتعاقب العاملين، كما أن البيئة التي تستهين بالخطأ ولا تندم عليه تفقد قدرتها على الإتقان والتطوير.

النقد والتصحيح الذاتي:

العاقل يستفيد من النقد أيًا كان مصدره، وأيًا كانت نيّة صاحبه، حتى الأعداء لِنقدهم نفعٌ وفائدة:

عِداتي لهم فضلٌ عليَّ ومِنَّةٌ   فلا أبعد الرحمن عني الأعاديا
همُ بحثوا عن زلَّتي فاجتنبتها   وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

ولأن النقد والتصحيح ضرورة؛ فلا ينبغي أن يكون دورنا معه القبول والاستفادة فحسب، بل نبحث بأنفسنا عن أمر يستحق التدارك، وخطأ ينتظر التصحيح، ويجب أن يكون هناك حركة ذاتية

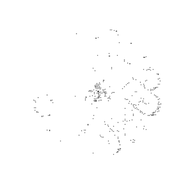
في النقد والتصحيح، وإلا فإننا سنحافظ على أخطائنا كما نحافظ على مزايانا، وستتحول الأخطاء مع الوقت إلى جزء من المنهج يُنكَر على من يفارقه ويخالفه. التطوير والمنافسة للأمم الأخرى لن تتم دون حركة النقد والتصحيح الذاتي.

وفي الآيات الكريمة التي نزلت بعد غزوة أحد مدرسة قرآنية في النقد والتصحيح، وتلك التجربة كانت مع الصفوة المختارة من خلق الله، محمد ﷺ وأصحابه ﵃.

تستحق هذه الآيات مقالات تستنطق منهج النقد فيها، وطريقته وأسلوبه، ولا مانع هنا من أن نذْكر أنّ النقد والتصحيح الذاتي على أهميته وضرورته، إلا أنه قابل للغلوّ الذي يضر بالواجبات الأخرى، فأهمية هذا الواجب لا تعني أن ننسى الواجبات الأخرى التي تتكامل معه، مثل الشكر والتشجيع على المزايا.

النقد والتصحيح (دواء)، والشكر والتشجيع (غذاء).. يموت جوعًا مهما أكرمته بأدويتك !.

وأهمية النقد والتصحيح لا تعني أن يقضي الإنسان عمره برِفقة العيوب والأخطاء، بحجة النقد والتصحيح.



التبرير والمكابرة:

للنفس الإنسانية قدرة على تبرير الخطأ، والالتفاف على النقد الصحيح؛ حتى يُرضي ضميره، وينجو من وخز الندم، وهنا مشكلة حقيقية، حين يجعل الإنسان بينه وبين النقد حجابًا نفسيًا يمنعه من مكاشفة نفسه، ومعرفة أخطائه، هذا الحجاب يكون بالتبرير تارة، وباتهام الناقد تارة أخرى، حتى يصل به الحال إلى اعتبار كلِّ نقد (شبهةً) تحتاج إلى ردّ، وكل (ناقد) مناوئًا يحتاج إلى تحذير ! يحدث هذا مع الشخص نفسه، أو مع الجماعة، أو الحزب، أو المذهب الديني.

علينا أن نتذكر أن سياسة التبرير مضللة، ويمكن أن يبرر الإنسان كل خطأ، ما لم يصارح نفسه، ويواجه الحقيقة.

إن الخطيئة التي اقترفها إبليس، وحلّت عليه اللعنة بسببها عمل إبليس على تبريرها: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف:١٢]، فهو لم يسجد، وعصى ربه، ثم لم يعترف بخطيئته ومعصيته، بل ذهب يفلسفها ويبرر لها، بخلاف آدم -عليه السلام-، الذي واجه خطأه بالاعتراف، وصحح زلَّته بالتوبة:

﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٢-٢٣].

تبرير الأخطاء، واتهام الناقد، والهروب من مكاشفة النفس بأخطائها، والجرأة على تصحيحها هي الأخرى خطأ لن تعترف به النفس التي أدمنت تبرير الخطأ، وعدم الاعتراف به، وهذا ما يجعل المشكلة عصية على المعالجة.

متى كان آخر خطأ اعترفت به دون تبريرٍ للخطأ أو اتهامٍ للناقد؟ هذا السؤال يساعد على اكتشاف المشكلة ومعرفة حجمها !

المدمن على النقد:

كما أن النقد يبعث ألمًا وندمًا للمنقود، فإن فيه لذة ومتعة للناقد، تصل هذه المتعة إلى إدمانٍ يستوعب غالب وقته وجهده؛ ففيها قدر من الاستعلاء والأستاذية، وفيها تهوين لما فاته من شرف العمل، وفيها مخاطبة لأهواء النفس التي تحمله هنا على إدمان النقد، وتحمله هناك على الغيبة أو السخرية.

الغيبة هي كشف للعيوب، ولكن على سبيل الهوىٰ والفساد، لا النصيحة والإصلاح، ومن أسرف في النقد شقَّ عليه العمل، ولا يستطيع العامل أن يدمن على النقد؛ لأنه مشغول بعمله، إنما يدمنه البطّالون، وأصحاب الألسنة الحداد، هم الأجبن وقت الحاجة للبأس والقتال، وهم الأبخل وقت الحاجة للإنفاق: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ [الأحزاب: ١٩].

الإدمان على النقد قد يقع فيه بعض الصالحين أيضًا، فبينما يعمل غيرهم في مشاريع الإفساد، يكتفي هؤلاء بإدمان النقد، وهذا الإدمان يوهمهم أنهم في مشروع نافع، فالتحذير والنقد ليس مشروعًا حقيقيا يزاحم مشاريع الإفساد، أفضل نقد للفساد أن تقيم مشاريعك المنافسة في الصلاح، ويبقى التحذير عملًا مُكمِّلًا لا يسوغ الاكتفاء به.

بثت بعض القنوات مسلسلًا تليفزيونًا فيه مخالفات شرعية كثيرة، وله أهداف في إفساد المجتمع، وفي كل عام، كان عمل الصالحين والغيورين الانهماك في التحذير منه، ونشر الفتاوى المحرمة له، وبعد سنوات طويلة، ظلّ المسلسل على حاله، والتحذير على حاله، دون أن ننجح في بناء مشاريعنا وخبراتنا المزاحمة والمدافعة لهذا الفساد.

لقد كان الواجب عدم الاكتفاء بالتحذير، بل الشروع في الإنفاق من المال، والوقت، والجهد، والخبرة، في بناء مشروع آخر، ينافسه

على مخاطبة المجتمع، ويتضمن القيم والمعاني الجميلة التي يحتاجها المجتمع المسلم.

النقد النافع بناءٌ وإيجابيةٌ وعملٌ، وليس تحذيرًا فحسب.

النقد غير الموضوعي:

لا علاقة لنقده بالموضوع، يكفي سببًا للنقد والرفض أنه صادرٌ من ذلك الشخص، أو تلك الجهة، هذا النقد يصعب معالجته، أوالاستفادة منه في تطوير العمل، هو نقدٌ جائر، نقدٌ دائم، سواء أصبت أم أخطأت، والعاقل ينتفع بالنقد الصحي، في تطوير العمل وتدارك الخطأ، وينتفع بالنقد الجائر في تحفيز الهمة والتحدي والإصرار.

لقد كان المسلمون الأوائل يتعرضون لنقدٍ غير موضوعي، يستهدف أشخاصهم وذواتهم، دون النظر للموضوع والعمل: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف:١١].لقد نقدوا الدين الذي ذهب إليه غيرهم،

دون النظر في أدلته وبراهينه، يكفي في نقده أنهم سبقوا إليه، وكأن الحق، والخير، والهدى، مرتبط بذواتهم دون غيرهم !

يظهر هذا النقد غير الموضوعي حين تشاهد بعض الكتابات الناقدة لبعض المشاريع الدينية، فهو نقد يستهدف (الإلغاء)، وليس (الإصلاح)، ولكن من العقل والدين والحكمة أن نقبل الحق ولو كان عن طريقٍ لا يريد الحق، وأن نُصرّ على مواجهة هذا النقد الجائر غير الموضوعي، بمزيد من الثبات على الحق، وتطوير العمل وإتقانه.

اختبار النقد:

لا يترك الناس النقد مهما بلغ الشيء إتقانًا وإبداعًا، وحتى يتمايز النقد العملي العادل من النقد الظالم، يأتي سؤال ما البديل؟ ما الحل؟

أمام هذا السؤال، يسقط نقد البطَّالين الذين ينقدون لمجرد النقد، ويسقط نقد المناوئين الظالمين الذين ينقدون ظلما وعدوانًا، حتى الحسنة تتحول في أعينهم إلى سيئة:

إذا محاسني اللاتي أُدِلُّ بها كانت عيوباً فقل لي كيف أعتذر؟

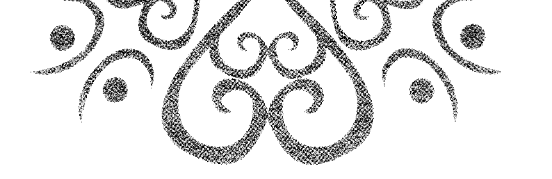
والقرآن واجَهَ النقدَ الجائر بمثل هذا: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [القصص: ٤٩]. بمثل هذا، تسقط أشباه الحجج، ويتعرَّى النقد الظالم.

إنّ النقد يجب أن يكون عملًا بنّاء، وليس تعليقا عابرًا يسجل تحفظه ورفضه فحسب.

التفكير في البديل والحل ينفع الناقد والمنقود، ويحول النقد من حالة نفسية متحفظة على التجربة فحسب، إلى عمل فكري يساعد التجربة على تجاوز أخطائها، وتحسين أدائها.

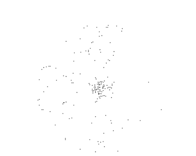
في موقف لطيف مع أحد طلبة العلم، كان ينتقد مفتيا يظهر في برنامج الإفتاء، ثم استرسل في نقد غيره، حتى أتى على جميعهم وهو لا يشعر، فسألته: من تراه مناسبًا للإفتاء في هذا البرنامج؟ فذهب الحديث وجاء، دون أن يعثر على أحد ! مثل هذا النقد لا يساعد على تطوير العمل، ولا ينفع القائمين عليه.

لن يترك الناس النقد الجائر، ولن يتميز النقد العملي العادل من النقد السطحي والجائر، إلا بمثل هذا الاختبار: ما البديل؟ ما الحل؟



الوقفة السادسة

الحقوق



الحقوق والأخلاق فوق الخلاف:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: ١٥].

هذه الآية أصلٌ في علاقة الخلاف بالحقوق، وعلاقةِ الخلاف بالأخلاق. لا يوجد خلاف أعظم ولا أكبر من الشرك بالله تعالى، هو الذنب الأعظم، والظلم الأكبر، ثم يجمع مع هذا الشرك دعوةً إليه، وإلحاحًا ومجاهدة عليه.

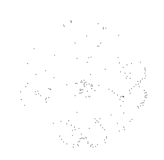
لقد بلغ بذلك الذروة من الخلاف، وكل خلاف يتطامن أمام هذا الخلاف، ومع ذلك لا يسقط حق الوالدين في الصحبة بالمعروف! هذا هو دين الله الذي نفاخر به الناس! الذي لا يُسقط الحقوق من أجل الخلاف، ولا يترك الأخلاق من أجل الخلاف، بالغًا ما بلغ هذا الخلاف.

فإذا وجدت تديُّنًا ينتهك الحقوق، ويتجاوز الأخلاق باسم الغيرة على دين الله، فانطق بلسانك وقلبك: سبحانك هذا بهتانٌ عظيم.

هل هناك أشد غيظًا وحنقًا من رجل تقبض عليه في أرض المعركة،

قَطَع الفيافي والقفار من أجل قتل الرجال، وسبي النساء ؟! فإذا تمكنت منه، وشددت عليه الوثاق، وأصبح أسيرًا في يدك، كان الإحسان إليه -مع شركه- طريقًا إلى الجنة: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨]. قال قتادة: لقد أمر الله بالأُسراء أن يحسن إليهم، وإن أسراهم يومئذ لَأهل الشرك.

ومهما تذكرتَ أحبابك الذين قضوا نحبهم في تلك المعركة، والأطفال الذي تيتموا، والنساء الذين ترمّلوا، وشركَه بالله العظيم، وحربَه للمسلمين، فإن ذلك كله لا يبيح إسقاط الحقوق والأخلاق. ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].



ليس علينا في الأمّيين سبيل:

الأمانة وحفظ الحقوق لا يُلغيها الخلاف، ولو كان خلافا في الدين، وقد كان بعض اليهود يستحلون الحقوق بحجة الخلاف في الدين، كما وصفهم الله في كتابه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[آل عمران: ٧٥].

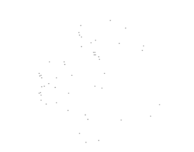
إن الله لا يأذن بتضييع الأمانة، وانتهاك الحقوق، ومن نسب ذلك إلى الله فقد أعظم على الله الفرية. يستعصي الخطأ عن التصحيح حين يُنسب للشريعة كذبا وزورًا، وهذا سبيلٌ قديم يحتاج إلى يقظة ومحاذرة: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨].

وفكرة ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ وإن كانت منسوبة لبعض اليهود، إلا أن بعض المسلمين يقع فيها أيضا؛ مصداقًا لقول النبي ﷺ: «لتتَّبعنَّ سَنَنَ الَّذين من قبلِكم. شِبرًا بشبرٍ، وذراعًا بذراعٍ. حتَّى لو دَخلوا في جُحرِ ضبٍّ لاتَّبعتموهم قُلنا: يا رسولَ اللهِ ! اليهودُ والنَّصارَى؟ قال: فمَن؟» متفق عليه. وهذا يوجب الحذر التام من دخول هذه الفكرة إلى الفروع الفقهية، وضرورة المراجعة المستمرة للتراث والفتاوى؛ فإنها ليست قولا مرجوحا، بل كذب على الله.

لقد كان أعلام الأمة في الصدر الأول، على يقظة تامة من استحلال بعض الحقوق بحجة الخلاف ولو كان في أصل الدين، ومن ذلك ما رواه ابن جرير عن حَبْر الأمة وترجمان القرآن، عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، أن رجلا سأله فقال: إنا نصيب في الغزْو من أموال أهل الذمة الدجاجةَ والشاة، فقال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال نقول: ليس علينا بذلك بأس! قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾! إنهم إذا أدّوا

الجزية لم تحلّ لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم.

وفي سورة الممتحنة نص القرآن على «حكم الله»، وفيه إعادة الحق لبعض الكفار: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الممتحنة: ١٠].



أحطتُ بما لم تحط به:

في مملكة سليمان -عليه السلام- كانت الحقوق محفوظة بشرعة الله وأمره، ولم يُؤتَ أحدٌ من ملوك الأرض ما أوتي سليمان من الملك والقوة: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [ص: ٤٠]

وذات يوم توعّد سليمانُ الهدهد وهو في غاية قوته وملكه، بوعيد شديد تنخلع له القلوب: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢٠- ٢١].

وفي مثل هذا الموقف، تُختبر العدالة وحفظ الحقوق -في حال التهديد والوعيد-، مِن أقوى ملوك الأرض، لطيرٍ ضعيفٍ مُستضعَف!

إن ذلك كله لم يَنتقص من حقوق الهدهد شيئا في مملكة النبوة، وجاء الهدهد في كامل حقوقه يقول للملِك المهيب: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢].

﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾!

هل نريد في حفظ الحقوق مشهدًا أروع من هذا المشهد ؟!

كم هي المسافة بين هدهد ضعيف وأقوى ملوك الأرض ؟!

وكيف استطاع الهدهد في حال التهديد والوعيد أن يعبر عن موقفه بكل وضوح ؟!

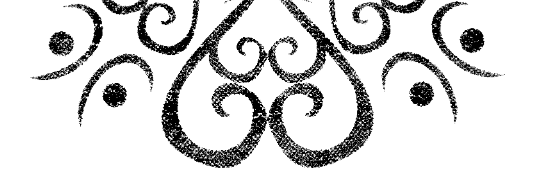
وكم هي الروعة والدهشة في مملكة النبوة حين حَفظت حقوق الهدهد

في الدفاع، والتعبير، ثم حفظت حقوق أولئك الذين اتهمهم الهدهد بالشرك ولم تبادرهم بعقوبة حتى تتثبت؟!

إن المسلم اليوم يتمنى أن يحصل على بعض حقوق الهدهد في مملكة سليمان عليه السلام !

لقد أضاع العالمُ الإسلامي حقوق الإنسان، وحقوق الحيوان، واستبد منطق القوة والغلبة، حتى غدت الحقوق بضاعةً غريبة ! وما هي بغريبة، بل هي شريعة الله التي أنزلها في كتابه، وامتثلها أنبياؤه، ولكن أكثرهم لا يفقهون!





الوقفة السابعة

العدل

العدل في الحكم والإجراءات:

بقراءة النصوص المستفيضة في الأمر بالعدل، وتحريم الظلم، والوقوف على تفاصيل العدل في أحكام الشريعة، وآثاره الحسنة في الحياة، وشؤم الظلم وآفاته على الناس، بعد ذلك كله تفهم كلمة شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «جماع الحسنات العدل، وجماع السيئات الظلم، وهذا أصلٌ جامعٌ عظيم».

وفي الحديث القدسي الصحيح ما يُزلزل القلب في تعظيم الظلم والتحذير منه: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا؛ فلا تظالموا». من يجرؤ بعد ذلك -وهو في عقله ورشده- أن يظلم ؟! بعدما حرم الله الظلم على نفسه سبحانه، وحرمه على خلقه. إنّ هذا الأسلوب في تحريم الظلم يكشف حجم التحريم ورسوخه.

ومع علمِه التام سبحانه بمن يستحق النعيم ومن يستحق الجحيم، إلا أنه سبحانه من تمام عدله أظهر دلائل العدل وأبانها، فاستنسخ الأعمال، واستشهد الشهود، ونصب الموازين، ولم يدخل إلى النار إلا من استحقها، وأظهر استحقاقه لها بالعدل ودلائله.قال الله تعالى: ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ

عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية:٢٩]، وقال تعالى: ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣-١٤]، وقال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٩].

واستشهد عليهم سبحانه شهودًا من أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت: ٢٠].

ونصب الموازين القسط، كما قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

وهذا كله يرسخ أمرين مهمين:

١- وجوب العدل وتحريم الظلم.

٢- أنّ العدل وحده لا يكفي حتى تَظهرَ دلائله وتشهر بيناته، ويستمسك بإجراءاته وقوانينه، وأن الذي يحكم بالعدل مقصرٌ حتى يلتزم في حكمه هذا طريقَ العدل، وإجراءاته، وقوانيه.

وما أحوج الخلق للعدل، وما أحوج العدل للالتزام بطريقه ودلائله وإجراءاته، ولا يكتمل العدل إلا بالإجابة الصحيحة على سؤالين:

- كيف حكمت؟ وهنا تظهر إجراءات العدل المحايدة والمستقرة والمعلنة.

- ماذا حكمت؟ وهنا يظهر الحكم العادل بعد الالتزام بطريق العدل وإجراءاته.

ما خَطبُك يا سامريّ ؟

السؤال والتثبت قبل الحكم والعقوبة -مهما كان الجرم-، هذا قانون العدل الذي لا يتخلف. لقد سأل الله إبليس حين لم يسجد -وهو أعلم به سبحانه- قبل أن يعاقبه بما يستحقه من اللعن والطرد: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾ [ص: ٧٥].

وموسى عليه السلام فُجِع بفتنة قومه وعبادتهم للعجل، وغضب من ذلك غضبا شديدا، ومع ذلك سأل السامري صاحب الفتنة: ﴿ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴾ [طه: ٩٥].

ورسول الله ﷺ هذا شأنه ودأبه، ومن ذلك قصة حاطب بن أبي بلتعة الشهيرة، وفيها وقع حدث عظيم، وفي ظرفٍ بَلَغَ الغاية في الحساسية والخطورة، مما يجعل العادل يذهل عن السؤال قبل أن يحكم، ورغم ذلك حافظ رسول الله ﷺ على هذا القانون العادل، وسأل قبل أن يحكم بشيء: «يَا حَاطِبُ، مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟».

العاقل خصيمُ نفسه:

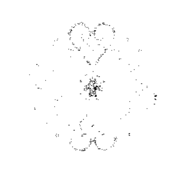
الإنسان دون دِين وعقل ظلومٌ جهول، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم:٣٤]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «والإنسان خُلِقَ ظلومًا جهولًا، فالأصل فيه عدم العلم وميله إلى ما يهواه من الشر، فيحتاج دائما إلى علمٍ مفصل يزول به جهله، وعدلٍ في محبته وبغضه ورضاه وغضبه وفعله وتركه وإعطائه ومنعه وأكله وشربه ونومه ويقظته، فكل ما يقوله ويعمله يحتاج فيه إلى علم ينافي جهله، وعدل ينافي ظلمه، فإن لم يمنَّ الله عليه بالعلم المفصل والعدل المفصل، كان فيه من الجهل والظلم ما يخرج به عن الصراط المستقيم».

أما الموفق، فإنه خصيم نفسه، يقضي على نفسه بالعدل قبل أن يخاصمه أحد، ومن ذلك ما وقع بين موسى والخضر، فقد قال موسى من تلقاء نفسه: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف:٧٦]، وهذا من اقتفاء العدل، ومخاصمة النفس، دون أن يحتاج الصاحب أو الشريك أو المخالف إلى المخاصمة أو المقاضاة، وتلك منزلة الكبار، الذين خرجوا من سلطة الهوى وشهوة الظلم إلى مقام العدل والإنصاف.

ومن رحمة الله: وجودُ أهل العدل في الناس، وإلا تقوّضت الحياة وفسد نظامها: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٨١]. والأنبياء بعثوا لإقامة العدل، قال تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[الشورى: ١٥]. وولاة الأمر مأمورون بأمر الله تعالى بالعدل في الرعية، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[النساء: ٥٨].

قال ابن جرير -رحمه الله-: «إن الله يأمركم يا معشر ولاة أمور المسلمين... ويأمركم إذا حكمتم بين رعيتكم أن تحكموا بينهم بالعدل والإنصاف، وذلك حكمُ الله الذي أنـزله في كتابه، وبيّنه على لسان رسوله، لا تعدُوا ذلك فتجورُوا عليهم».

وأخطر شيء يصيب العباد والبلاد، وينشر الفساد، أن يفسد القضاء؛ فهو المعوَّل عليه -بعد الله- في فصل النزاعات، وحسم الخلافات، فإذا فقد الناس الثقةَ في القضاء، وأصبح القضاء منحازًا لطرفٍ دون طرف -ولو كانت السلطة-، فإن الناس -حينئذ -سيحتكمون للقوة والغلبة، فإن استطاعوا حينها فالفتنة والفوضى، وإن لم يستطيعوا تراكمت ظِلامات الناس في نفوسهم، وضاقت صدورهم بالغبن والقهر، حتى تحين ساعةُ ضعفٍ، فيتحكم الانتقام والثأر، وتلك مصيبة على البلاد لا تقل شؤمًا عن الظلم الأول. إن جهاز القضاء هو السدُّ الأخير بين الناس والفتنة، فإذا عبثت الفئران في هذا السد، وغفل الناس عنها، تهاوى السد الأخير في لحظةٍ من الزمان وبغتة.



ظلموا أنفسهم:

لو يعلم الظالم ما ينتظره من النكال والوبال، لعلم أنه إنما يظلم (نفسه) قبل أن يظلم غيره!

قال الله تعالى: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم:٤٥]، وقال تعالى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٥٢]، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة.

وأعظم الظلم: الشرك بالله، نعوذ بالله من الظلم كله، دقيقه وجله!

ومن العَجَب أن نصوم يوم عاشوراء في كل عام، ونفطن لعبادة الصوم، ونغفل عن شؤم الظلم، وربما وجدتَ الرجل يصوم يوم عاشوراء وهو مقيم على ظلمه!

وما أصاب فرعونَ البوارُ والدمار إلا بسبب ظلمه وجوره: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٤].

ما حظّ مساجدنا ومدارسنا من التحذير من الظلم ؟! الظلم للعامل، والخادمة، والموظف، والابن، واليتيم، والمسكين، وللأسف الشديد أنك تجد التحذير من قضايا اجتهادية تملأ اللوحات الدعوية، ثم تبحث عن التحذير من الظلم فلا تجد ما يكفي ويشفي، وربما وجدت بعضنا يتورع عن الإخلال بمظهره في الثوب واللحية -وهذا خير-، ثم لا يأبه بظلم العامل أو الموظف. «والظلم ظلمات يوم القيامة» كما قال ﷺ.

وخير ما يورِّثه الوالد لولده سيرةُ العدل، والأمر به: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء: ٩]، وللأب الصالح حفظٌ ورعاية تلحق ذريته على ضعفهم، وتحفظ حقوقهم من بعده: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٨٢]. قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ قال: حفظا بصلاح أبيهما، وما ذكر منهما صلاح.

لِلمظلوم سُلطانٌ ربّاني:

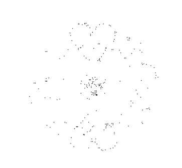
العاقبةُ للمظلوم، ودعوة المظلوم لا ترد، وليس بينها وبين الله حجاب، ونصرة المظلوم أمرٌ شرعي، وقدرٌ كوني: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء:٣٣]، ففي شرع الله جعل الله لولي المقتول سلطانًا على القاتل، فإما القتل أو الدية أو العفو، وأخبر سبحانه بنصرة المظلوم، وهذه النصرة تكون في الوقت والطريقة التي يقدرها الحكيم القدير.

ولاشك أن على المظلوم أن يعمل الأسباب في رفع المظلمة، وألا يتّكل على النصر المحض من رب العالمين؛ فقد جرت العادة أن النصر من رب العالمين يحتاج لبذل السبب حسب الوسع والطاقة، حتى المعجزات الربانية لأنبيائه ورسله فيها شيء من العمل، فموسى - عليه السلام- نصره ربه على القوم الظالمين، لكنه عمل بالأسباب إلى أن ضرب بعصاه البحر، وقد كان الله قادرًا على أن يفلق البحر دون أن يضربه بعصاه. ومريم -عليها السلام- في حال مخاضها وآلامها جاءها الأمر: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم:٢٥]،

فجعل هزّ الجذع سببا في تساقط الرطب. إنّ الانتظار المحض للنصر عمل غير شرعي، بل العمل ما أمكن، حتى يأذن الله بنصره وفرجه.

ومن الخطورة بمكان أن يتحول المظلوم إلى ظالم، جرّاء الثأر والتوسع في أخذ الحق، ولذلك جاء الأمر الرباني: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣]، وكم يشهد الواقع من إسرافٍ في القتل، والتذرع بالمظلومية في ظلم الخلق.

وحين تشاهد ما يحصل في الشام هذه الأيام، وتسمع حجج البغاة والقتلة ممن ينتسب للجهاد في سبيل الله، تجد كثيرًا من الظلم يقع منهم باسم الرد، وأخذ الحق، والانتصار من الظلم، وما لم تكن هناك جهة محايدة لا يُفتَأتُ عليها، وهي التي تحدد المظلمة والظالم، فسيظل كل ظالم مهما بلغ ظلمه يمارس الظلم والبغي والقتل، باسم المظلومية وأخذ الحق، والله المستعان!



يوم الدِّين:

لا يكتمل العدل إلا في ذلك اليوم؛ ففيه يأخذ المظلوم حقه كاملًا وافيًا، ولا تستقيم الحياة الدنيا دون إيمانٍ بيوم الدين؛ ففيه عزاءٌ لكل مظلوم، وردعٌ وزجر عن الظلم.

إن الإيمان بيوم الدين ليس معلومة باردة في الذهن، بل هو معنى يبعث الحياة في الروح، ويَمدُّها بأسباب الصبر والحياة، ولابد أن يُشرَق هذا المعنى على القلب كل يوم وليلة سبع عشرة مرة، ففي كل ركعة يستذكر المسلم ويستحضر بقراءته لسورة الفاتحة «يوم الدين»، فيتعزى المظلوم، ويرتدع الظالم. وفي الدنيا ينتقم الله من الظالم وينتصر للمظلوم، ولكن لا يتمحّض ذلك ويكتمل إلا في يوم الدين. ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾

[إبراهيم٤٢-٤٣].

إن مِن المظالم ما تأخذه اليوم.. ومظالم أخرى لها موعدٌ مهيب، موعدها يوم الفصل: ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴾

[المرسلات:١٢-١٤].

لقد جُعلت المحاكم للفصل بين الناس في الدنيا بالعدل والحق، وكم يقع في المحاكم من المظالم، فرب ظالم ألحن بحجته من مظلوم، ورب قاض يقضي بين الناس بالجهل أو الهوى، فيضيع الحق، وترتبك العدالة، ويُغبَن الناس في حقوقهم.

كثيرا ما كنت أسمع حديث رسول الله ﷺ: «قاضيانِ في النارِ، وقاضٍ في الجنةِ، قاضٍ عرفَ الحقَّ فقَضَى بِهِ فهو في الجنةِ، وقاضٍ عرفَ الحقَّ فجارَ مُتعَمِّدًا أَوْ قَضَى بِغَيْرِ عِلْمٍ فهما في النارِ»، وكنت أحسب أن العلم هو العلم بأحكام الشريعة، وهو من العلم الواجب -ولاريب-، ولكنْ هناك علم آخر في غاية الوجوب الشرعي، ويحصل فيه من التقصير ما يحصل، وهو العلم بالقضية محلّ الدعوى، فكثيرا ما يتم التقصير في تصورها واستيعابها، ويدخل مثل هذا في القضاء بلا علم؛ فيخسر صاحب الحق قضيته بحكم المحكمة، التي جُعلت لإحقاق الحق وإبطال الباطل. هنا يتذكر المؤمن أن الدنيا لن يستتم العدل فيها، ويتذكر يوم الدين، حيث يجتمع الخصوم مرة أخرى للخصومة عند رب العزة والجلال:

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾

[الزمر:٣٠- ٣١]، ومن كسب الخصومة اليوم بالظلم، فموعده يوم الدين حيث لا يكسب إلا صاحب الحق والعدل.



ويلٌ للمطففين:

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾ [المطففين: ١-٦]

العدل مطلوبٌ في كل شيء، وقد توعد الله من ترك العدل في مكياله وميزانه، فنقص أو استوفى على غير العدل والإنصاف.

لولا أن الأمر بالعدل راسخ في كل الشرائع السماوية، لم يصل الوعيد على من خالفه إلى هذا الحد، فإن التطفيف في بادئ الرأي عمل خفيف ليس من أولويات الإصلاح، أما في شريعة الله فإن مفارقة العدل ولو كانت تطفيفا في الميزان والمكيال جريمة تستحق هذا الوعيد، وهي من أولويات الإصلاح، فتبدأ السورة بالوعيد والتهديد حمايةً لحقوق الخلق، وإقامةً لميزان العدل، ومِن قبلُ أرسل الله شعيبا إلى قومه؛ هاديا ومبشرا ونذيرا، فجاءت دعوته بالتوحيد، وتصحيح ما أفسدوه من أمر العدالة في بيعهم وشرائهم: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ

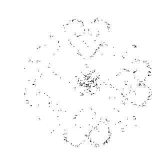
وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٥].

والتطفيف يكون في كل شيء بالتعامل غير العادل، فيحاسب نفسه بميزان، ويحاسب غيره بميزان آخر، ومن أمثلة ذلك: حين يخطئ أحد من طائفتنا، نقول: لا يمثل إلا نفسه، وحين يخطئ رجل من مخالفينا، ننسب هذا الخطأ لهم جميعا. حين نخطئ نعتذر بالنية الطيبة، وحين يخطئ غيرنا فالنية الطيبة لا تكفي. وفي الإعلام: يرون اقتحام المساجد وتحريقها فيعتبرونه خلافا سياسيا فحسب، ولو حُذفت الكنيسة بحصاة لاعتبروا ذلك إرهابا دينيا. وهناك تطفيف في الورع والحسبة؛ فإنه يرى الظلم والبغي على أحد الفضلاء ولا يهتز ضميره، فإذا سمع الدفاع والثناء أدركه خوفُ الغلوّ فأنكر ! وهناك تطفيف في العلم، فتجده يستدل لقوله بقول الصحابي مثلا، فإذا استدل به مخالفه في مسألة أخرى قال: قول الصحابي ليس بحجة!

وأغلب التناقضات العائدة إلى محاباة النفس أمام الآخرين تدخل في عموم التطفيف، وتدخل في الظلم المنهي عنه، وعاقبة الظلم وخيمة، والويل والثبور للمطففين.

يبقى هنا أن نقول: إن الظلم والتطفيف لا يزول بالقانون وحده، بل لابد من الوعظ والتذكير بيوم الدين، ويوم البعث، يوم يقوم الناس لرب العالمين. من المهم أن تأخذ هذه المعاني حظها في الخطب والمحاضرات؛

فإن الفطرة تنتكس فتحسب التطفيف حِذقًا وظَفَرًا، وهو الخسار والبوار، وفي سورة المطففين جاء التذكير بموعد لقائه والقيام له سبحانه.



بعض المساواة ظلم:

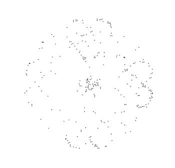
لن تدخل مدينةَ العدل والفهم حتى تَطرُقَ هذا الباب: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ [آل عمران: ١١٣]. الكره لا ينبغي أن يجعل أعداءنا على السواء، والحب لا ينبعي أن يجعل أصدقاءنا على السواء، ومِن عدل الله التام أن فارَقَ بين أهل السيئات وأهل الحسنات: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢١]، ثم مِن عدله أن فارَقَ بين أهل السيئات في دركاتهم بحسب اختلافهم في الإثم والسوء في الدنيا، كما فارَق بين أهل الحسنات في درجاتهم بتفاوت حسناتهم وأعمالهم: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[الأحقاف:١٩].

المساواة في الحكم مع اختلافِ العملِ ظلم، والعدلُ أن يُعطَى كل ذي حق حقه. هناك حاجة فطرية للعدل يُعبَّر عنها بالمساواة في بعض

الأحيان، وكلمة العدل أدق وأصدق من كلمة المساواة.

وفي ثورة الشعوب الأوربية كانت الحرية والمساواة والإخاء شعارًا تهفو إليه النفوس، والمساواة هنا بمعنى: العدل، فهي وقوف الجميع أمام القانون على السواء، ومحاربة التمييز العنصري، الذي يفضل شخصا للونه أو عرقه، وهذا هو العدل، ومن غير المناسب في مثل هذه الحالة محاربة هذا المصطلح الدال على معنى العدل؛ فإنها كلمة شاعت وذاعت وأصبحت مَعْلَمًا في التاريخ، ومخالفة هذا الاسم تعطي فكرة خاطئة، وكأننا ضد العدل وضد الفطرة، وإن كان في مضامين المساواة ما يستحق الاعتراض، كالمساواة التامة بين الرجل والمرأة في الميراث- مثلا-، وهو ضد الشرع وضد العدل؛ فيُعتَرض على هذه الفكرة بخصوصها دون أن نحارب معنى فطريا صحيحا، وإن تركوا اسمه الفاضل واستعملوا اسمه المفضول.

إنما المساواة الخاطئة ما كانت بديلا عن العدل، مثل الحكم المجمل الذي يساوي بين قوم مختلفين ومتفاوتين، أما المساواة البديلة عن التمييز الجائر، والتسوية بين الناس أمام القانون فهذا معنى صحيح لا يخالف شرعا ولا عقلا.



وبعض الحياد ظلم:

من معاني الحياد الجميلة: ألا تميل مع أحد الطرفين لهوىً أو مصلحة، بل تقف منهما على مسافة واحدة، وهذا من العدل، لكنه يصبح ظلما حين يستمر هذا الموقف المحايد حتى بعدما يتبين الظالم من المظلوم. هنا يجب أن يكون لك موقف إيجابي لمصلحة المظلوم وصاحب الحق، تفرض هذا الموقفَ قِيَمُ العدالة والإيجابية، ومن استمر في موقفه المحايد بين الطرفين فقد تجاوز العدل إلى الظلم، وشارك الظالمَ في ظلمه؛ بتفريطه في نصرة الحق وأهله.

أخطر من الظالم طرفٌ ثالث يلوم الظالم والمظلوم، فهذا ظالم يلبس ثوب الحياد والعدالة، وهذا من ظلم القضاة، وهو أشد خطرا من ظلم الخصوم، فالطرف الثالث هو في مقام القاضي الذي يحكم بين الطرفين، ويساعد المظلوم، ويكف بأس الظالم، فإذا لَامَ الطرفين، أو أعرض عنهما، فقد اقترف ظلما خاصا له ألمه الخاص في نفس المظلوم.

لا يزال الناس يتذكرون شؤم التصريحات الروسية وهي تتظاهر بداية الأزمة السورية بالحياد بين نظام قاتل ظالم غاشم معتدٍ، وشعب أعزل مظلوم

مضطهد، لقد كانت تصريحاتهم مضرب المثل للظلم الذي يلبس ثياب الحياد.

وفي القرآن منهج واضح للتعامل مع أطراف الأزمة، يُفصِّل العدل تفصيلًا: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات:٩]، وفي هذه الآية يظهر أن استمرار الحياد وعدم اتخاذ موقف بين الطرفين نوعٌ من الظلم والضعف، بل الواجب أن يتخذ الطرف الثالث موقفا واضحًا، ينصر به صاحب الحق، ويقاوِم به صاحب الظلم.

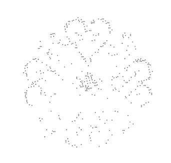
ويظهر في هذا النص الشريف أن الصلح عمل جليل، يتطلب العدل مع القوة التي تفرض هذا العدل، كما قال عمر ﷺ في رسالته لأبي موسى الأشعري: «فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له»، وذلك ما يغيب عن جماعةٍ من المصلحين، حين يكون المصلح لا يملك سوى الكلمة الطيبة، وهذا يجعله يخضع لشروط القوي بُغيةَ إتمام الصلح، فيتم الصلح -إن تم- على غير العدل، وربنا يقول: ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات:٩].

إن الحياد المطلوب هو في البعد عن الهوى، وعدم الانحياز لأحد الطرفين قبل أن تتبين الحقيقة، كما يعمل القاضي مع خصومةٍ ما حال المرافعة

والمدافعة، أما بعد ظهور الحق فإن الحياد -حينئذ- نوعٌ سيء من الظلم، يشبه ظلم القاضي الذي سمع حجج الطرفين، ثم ساوى بين الظالم والمظلوم.

وبعض المحايدين الظالمين بحيادهم يحتجون لأنفسهم بالأخطاء التي ارتكبها كلا الطرفين، وكأنه لا يدري أن نصرة المظلوم لا يشترط فيها عصمة المظلوم من الخطأ، وسلامته ونقائه التام، فمثل هذا الشرط يمنع نصرة المظلوم؛ فإنك لن تجد معصومًا تنتصر له، وفي القرآن وصف الله انتصار الكفار من الروم على الكفار من أهل فارس بأنه نصر الله، وأنه يوم فرح للمؤمنين.

فالعدل أن تقف بجانب المظلوم، وجانب الأقرب للحق والصواب، وربما انتصرت لصاحب الخطأ؛ لأن مقابله صاحب خطايا، ولا ينقضي عجبك من قومٍ صالحين يقفون ضد أقرب الفريقين إلى الحق، ويخذلونهم بحجة بعض الأخطاء، ولا يدرون أنهم بهذا الصنيع ينصرون الأكثر ظلما وخطأ وهم لا يشعرون، وبعضهم يمارس دور النقد الذاتي - بزعمه- في وقت توجب الشريعة فيه مقام العدل والنصرة، فيضيِّع فريضة العدل بتشاغله بالنقد والتصحيح في غير حينه ووقته.



العدل والاعتدال:

العدل أخو الاعتدال، فيرى الحسنات ويرى السيئات، ويحكم للأغلب منهما. ومن الناس من يظلم الفضلاء، وينتقص من مقامهم؛ لأخطاءٍ وَجدَها عندهم، وهو مرتاح الضمير في انتقاصه لهم؛ اعتمادًا على هذه الأخطاء التي تحقق من وجودها، ويقع هذا كثيرًا من المتجرئين على صحابة رسول الله ﷺ، فتجد أمثلهم طريقةً من يُتعب نفسه في البحث والتنقيب في بطون الكتب؛ حتى يتحقق من بعض الأخطاء، فإذا تحقق من وجودها سمح لنفسه أن ينتقصهم ويزدريهم، وما هذا سبيل العدل؛ فإن العدل لا ينظر بعينٍ واحدة، ولا يكتفي ببعض الأخطاء في إسقاط الفضل والعدالة، بل يرى الحسنة والسيئة، ويدرك ما يعتري العمل من ملابسات وعوارض، ويحكم للأغلب منهما، وقد قال الله عن خيرة خلقه، الداخلين في رضوانه وجنته:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف:١٦]، فهؤلاء لهم سيئات بصريح الآية، ولم تَحُل هذه السيئات بينهم وبين الجنة والرضوان؛ حيث غلب فضلهم، ورجحت حسناتهم، وأولى من يدخل في هذه الآية هم

أصحاب رسول الله الذين آمنوا به وعزَّروه ونصروه وأولئك هم المفلحون.

إن الاصطفاء والاختيار الربّانيّ لا يلزم منه السلامة والكمال، كما هو الحال في بني إسرائيل، وقد قال الله عنهم: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الدخان:٣٢] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الجاثية: ١٦].

والعدل يقتضي التمييز بين الفاضل والمفضول: ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ ﴾ [الحديد: ١٠]، وهذا السبق والفضل لبعضهم لا يسمح لنا أن نقدح في بقيتهم، كما قال الله: ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد: ١٠]، فالعدل الذي يميز الفاضل هو الذي يمنع من الإساءة للمفضول.

ومما يدل على أهمية العدل والاعتدال، ما هو مقرر من تفاضل رسل الله، فقد فضَّل بعضهم على بعض، كما قال الله: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وهذا التفاضل بينهم لا يُجيز عدم الإيمان ببعضهم: ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. ومع العدل الموجب للتفضيل، يأتي الاعتدال الموجب للأدب مع الفاضل والمفضول.

عن أبي هريرة ﵁ قال: استبّ رجل من المسلمين ورجل من اليهود،

فقال المسلم: والذي اصطفى محمدا ﷺ على العالمين، في قَسَمٍ يُقسِم به، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم عند ذلك يده فلطم اليهودي، فذهب اليهودي إلى النبي ﷺ فأخبره الذي كان من أمره وأمر المسلم، فقال: «لا تُخيِّروني على موسى، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله» (رواه الشيخان). وقد ذكر العلماء أن التفضيل على وجه الحميّة والعصبية منهي عنه، فإنه مشعر بتنقُّص المفضول، فالعدل واجب، ولا يستغني العدل عن الاعتدال والأدب.



العدل فوق مشاعر الحب والكراهية:

يتساوى الناس في حب العدل والمطالبة به حين يحتاجون إليه، ثم يفترقون حين يكون العدل مخالفا لمصالحهم وأهوائهم، فيثبت أهل العدل المخلصون له، ويسّاقط المتشبثون بالعدل حين يوافق مصالحهم وأهواءهم. التحدي الأكبر حين يتواجه العدلُ مع الهوى وجهًا لوجه، ولذلك جاء التحذير واضحًا في القرآن من تأثير الهوى على إقامة العدل: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾ [النساء: ١٣٥].

والهوى ألوان ومسارب شتّى، ومن ذلك: الكراهية والعداوة، فإن ذلك مظنة الحيف والجور، وأهلُ الإيمان هم أهل العدل حتى مع أعدائهم، ولا يستبيحون الظلم مع من فارقهم في الدين، وقاتلهم عليه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة:٨]. والشنآن مظنة الظلم والحيف، فإذا كان الشنآن في ذات الله، حيث فارقوا دينه، وقاتلوا أولياءه، فإن الظلم حيئذ قد يتلبس لباس الديانة والبراءة من المشركين، وما كان الظلم دينًا لله، وما كان الجور قُربةً لله، ولذلك جاء النص الواضح أن الأقرب لله هو العدل حتى مع الكافرين المناوئين لدين الله: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، وبهذا لن ينفع التحايل على العدل، بإقامته ظاهرا والتحايل عليه باطنا، كما هو الحال في المحاكم الصورية، التي يقيمها المتغلب، وينتقم من خصومه ويبطش بهم باسم العدالة، ورسوم المحاكمة، فالعدل في الإسلام دينٌ لا يقبل التلاعب، والذي أوجبه ويحاسب عليه خبير بما تعملون.

ومن الهوى: الحبّ والقرابة، وقد يعدل المرء مع أعدائه، ثم يحابي أحبابه وقراباته، والعدل الذي يحبه الله أقوى من عاطفة الحب، كما هو أقوى من عاطفة الكره: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وإمام العدل هو محمد ﷺ، وقد أقسم -وهو الصادق المصدوق- أنه لن يتخلف عن العدل مهما بلغ حبُّه: «والذي نفسي بيدِه ! لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقت لقطعتُ يدَها» (متفق عليه).

ومن مسارب الهوى الخفيّة التي تؤثر على العدالة -وجاء القرآن بالنص عليها-، التعاطفُ مع الخصم الفقير أمام الخصم الغني؛ فإن هذا التعاطف يلتبس بالمروءة والأخلاق، وربما هرب الإنسان من محاباة الغني حتى وصل للتحامل عليه باسم النزاهة والعدالة، كل ذلك من الأهواء الخفيّة التي تَعرِض للعدل وتؤثر عليه، والله -جلّ جلاله- يقول: ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء:١٣٥].

والتجربة الإنسانية تُثبت أن الهوى أغلب، وأن العدل ما لم يُحرَس بقوانين صارمة فإنه سيذهب ضحية الأهواء الخاصة.

لقد تطورت الخبرة البشرية في اكتشاف ضمانات العدل، ومحاربة الأهواء الخاصة في الحكم، واشترطوا في ذلك استقلال القضاء؛ حتى لا يكون أداة طيِّعة في الظلم، واشترطوا إجراءات كثيرة تجعل النظام مستعصيا قدر الإمكان عن الاستغلال، ومؤديا لدور العدالة بين الناس. نعم، إن كل ذلك لن يغني عن التقوى والنزاهة الشخصية، لكن النزاهة الشخصية هي أيضا لا تغني عن تطوير القضاء وإجراءاته بما يضمن سدّ الذرائع عن الظلم.

إن نظام القضاء في كل أمة شخصيةٌ اعتبارية تستطيع أن تصفها بالعدل أو الظلم، ومؤلم جدا أن تجد نظام القضاء عند بعض الكفار أقرب وأحكم

في تحقيق العدل من أنظمة القضاء في بلاد المسلمين. العدل شريعة الله، وكل ما يساعد على تحقيقه في الغرب أو الشرق فنحن أولى به وأجدر، والنصوص جاءت بالأمر به، والنهي عن اتباع الهوى، وعلى الأمة أن تطور أدواتها في تحقيق العدل ومحاربة الهوى، ومثل هذه الأدوات ليست من قبيل العبادات التي لا يجوز الزيادة فيها والنقصان، بل هي من الأمور المباحة والمصالح المرسلة، وقد نقل ابن جرير في تفسيره لآية النساء قولًا مُعبِّرًا للزهري في تعامل السلف مع إجراءات العدالة، والحرص على النزاهة: «عن ابن شهاب في شهادة الوالد لولده وذي القرابة قال: كان ذلك فيما مضى من السُّنة في سلف المسلمين، وكانوا يتأولون في ذلك قول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ﴾ الآية، فلم يكن يُتَّهَمُ سلفُ المسلمين الصالحُ في شهادة الوالد لولده، ولا الولد لوالده، ولا الأخ لأخيه، ولا الرجل لامرأته، ثم دَخِلَ الناسُ بعد ذلك، فظهرت منهم أمور حملت الولاةَ على اتهامهم، فتركت شهادةُ من يتهم، إذا كانت من أقربائهم. وصار ذلك من الولد والوالد، والأخ والزوج والمرأة، لم يتهم إلا هؤلاء في آخر الزمان».

وجملة القول أن العدل مع الهوى في معركة دائمة، ولن ينتصر

العدل في الأمة حتى يحاصَر الهوى في قلوب الحكام بالوعظ والتقوى والإيمان، ويحاصَر الهوى في النظام بتطوير الإجراءات والاستفادة المستمرة من الخبرة البشرية، حتى نصل بإذن الله إلى نظامٍ عادل، يقوم عليه رجل عادل.



العدل والإحسان:

الإحسان عدلٌ وزيادة، فإن من يُحسِنُ لأخيه بفضلٍ أو عفوٍ فقد استكمل شرطَ العدل وزاد عليه، ولا تستقيم الحياة دون العدل والإحسان.

إن المجتمع بحاجة لعدلٍ يحفظ الحقوق، وإحسانٍ يجمع القلوب. ومن وصل إلى درجة الإحسان فقد تباعد عن الظلم، ورسخت قدمه في العدل. لقد رأيتُ بعض الفضلاء مهمومًا بالحقوق والعدل، وهو خير- ولا ريب-، لكنه غفل عن أن بعض معالجاتنا توصل إلى حد المشاحّة والمقاطعة، حين نبالغ في التركيز على العدل ونغفل عن الإحسان، فالعدل محفوفٌ ومحفوظٌ بالإحسان، «ويبقى العود ما بقي اللّحاء».

والإحسان يشمل مكارم الأخلاق من التغافل والتسامح والعفو والفضل، ولا تستقيم الأسرة الواحدة -فضلًا عن المجتمع- إلا بالإحسان.

وفي كثيرٍ من الأحيان تجد القريبَيْن يحسب كل واحد منهما أنه مهضوم مظلوم، ولو أرادا أن يُجرِيا العدل دون إحسان لتقاطعا وتدابرا.

إن الذي أمر بالعدل هو الذي أمر بالإحسان، والعفو مندوبٌ إليه في الحقوق الواضحة البيِّنة فكيف بالحق المختلف عليه!؟

ومن كمال الشريعة وتمامها، وحسنها وبهائها، جاء العدل مقرونا بالإحسان، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

وقد رُويَ عن عبدالله بن مسعود ﵁ أنه قال: إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥ ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الشورى: ٤٠].

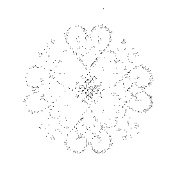
لقد غاب الإحسان وحضرت المُشاحَّة والله المستعان: ﴿ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ [النساء: ١٢٨].





الوقفة الثامنة

الحرية



الحرية والاتباع:

- القسمة ثنائية: فاتباعٌ للهدى أو اتباعٌ للهوى:

الحرية المطلقة لن تعثر عليها في الواقع، هي وَهْمٌ موجود في بعض الأذهان الحالمة فحسب، وهذا له نقاش آخر.

القرآن وهو أصدق حديثًا، وأعمق فهمًا لهذا الإنسان، أخبر أن الجميع «مُتَّبِع»، فإما أن يتبع الهدى، أو يتبع الهوى، فالإنسان تابعٌ متَّبِعٌ لا محالة، قال الله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠].

وإذا كان الأمر اتباعًا لا محالة، فأن تتبع الهدى خيرٌ من أن تتبع الهوى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه: ١٦]، وقال سبحانه: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴾

[محمد: ١٤]، وقال سبحانه: ﴿ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٦].

واتباع الأهواء وأصحابها يحتاج إلى حذر دائم، وإلا ستزل القدم، وتنحرف المسيرة: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة: ٤٩].

ومن ترك الهدى واتبع الهوى فإنه قد استحق العقوبة، ولن ينفعه جاهٌ أو مال أو تاريخ سابق في الهداية: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ [الرعد: ٣٧].

وفي الجملة فإن البشرية كلها ستفترق إلى طريقين: طريق الجنة، وهم: أتباع الأنبياء، وطريق السعير، وهم: أتباع الشيطان: ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٦٣].

الحرية:

أما الحرية بمعناها الصحيح، فإنها فطرةٌ إنسانية، وأشواقٌ روحية، وواجب شرعي، الحرية بمعناها المقابل للعبودية لغير الله، وليست الحرية المرادفة للفوضى والعبثية.

الحرية حياة.. وما الذي يُغري في الحياة إذا سلبوا منها الحرية؟!

إن الحرية متصلة بأصل التكليف لهذا الإنسان: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ١-٣].

وقال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وحين يفتح المسلمون بلادًا لا يُجبِرون أهلها على الإسلام -ولا

يجوز لهم ذلك-، ولا يهدمون كنائسهم وبِيَعهم.. هذه معلومة حاضرة ومتداولة، لكن ينقصها التأمل والانتفاع، ما الذي راعاه الإسلام حين ترك بيوت عباداتهم الشركية وهو يقدر على هدمها؟! ما الذي راعاه الإسلام حين منع من إجبارهم على الإسلام وهو يقدر بقوة الحديد والنار على منعهم من اعتناق دينهم؟! الحرية بمعناها الصحيح راسخة في أحكام الإسلام، وبلغت حدًّا يصل إلى أصل الدين.

إن الذي حكى لنا فظائع اليهود وكفرهم، هو الذي أمرنا بتركهم على دينهم الباطل وعدم إجبارهم على تركه، مع دعوتهم بالحسنى للدين الصحيح.

والحرية كما أنها شرفٌ فإنها مسئولية، فيوم القيامة يُسأل العبد عن اختياره، ولا يكفيه عذرًا أنه أطاع وتابع السادة والزعماء: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٧].

في زمانٍ مضى كنت أقرأ المحاجَّة والخصومة في النار بين الذين استُضعفوا والذين استكبروا، وهي في مواضع عديدة في القرآن منها: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ

ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر:٤٧-٤٨]، وكنتُ أفهم دخول الذين استكبروا في جهنم، وأجد في نفسي بعض التساؤل والتعاطف تجاه الضعفاء، مع يقيني التام بأنه لا يظلم ربك أحدًا، وزال هذا التساؤل حين علمت أن الحرية تشريف وتكليف، وحين رأيت بعيني كيف يبيع بعض الأتباع عقولهم وتفكيرهم وإرادتهم، ويرضخون لأهل الباطل باسترخاء وتبعية وشهوة. في هذه الحالة أنت أمام خطيئة لا تقل عن خطيئة أولئك الطغاة، الذين تمكنوا من الطغيان بسبب هؤلاء الفاسقين: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤].

إن أعظم ما يمنح الحرية هو التوحيد، الذي يخص الله بالتعظيم والإجلال والتكبير، التوحيد القائم في القلب، وليس التوحيد الجاري على الألسنة فحسب، التوحيد الذي يحتاج إلى تعاهدٍ دائم بالصلوات والدعوات، والأذكار وقراءة القرآن. هذا التوحيد يمنح القلب حريته وحياته، وينظر للمخلوق مهما عظمت قوته نظرة المخلوق للمخلوق، وفي قصة الموحد مع المسيح الدجال -وقد أجرى الله على يده من الخوارق ما لا يملكه عظماء البشر- ظل العبد المؤمن صامدا شامخا بتوحيده وحريته أمام فتنة الدجال وبطشه.

وللحرية أعداء يغتصبون الحرية، مثل الظلمة والمستبدين، وعداؤهم

للحرية واضحٌ بيّن، ولكن هناك لصوصٌ أخفياء يسرقون الحرية دون أن يشعر صاحبها، ومن هؤلاء اللصوص: الجمهور المحب؛ فإنه يجعل الرمز والمشهور في سجنٍ قضبانه من حرير، فيفقد الإنسان حريته مراعاةً لهذا الجمهور المبالغ في حبه، وكم تمرد بعض الشرفاء على قيود الطغاة واستبدادهم، ثم عجزوا أمام جمهورهم !

والمبالغة في الحب أو الكره سجنٌ آخر يسلب الحرية دون أن يشعر بها صاحبها؛ فالمبالغ في الحب «تابع».. ينتظر فعل محبوبه حتى يوافقه، والمبالغ في الكُرْه «تابع».. ينتظر الفعل حتى يخالفه، والمعتدل في حبه وكرهه حرٌّ مستقلّ يصنع الفعل ويبني الرأي بعيدا عن الاستلاب لردة الفعل.

إن التعصب «أعورٌ دجّال»؛ يطفئ عين المحب عن الأخطاء فلا يراها، ويطفئ عين الكاره عن الحسنات فلا يراها، ونعوذ بالله من كل أعورٍ دجَّال.

وهذا لا يختص بالأشخاص، بل هناك أفكار تأخذ صاحبها ومُعْتَنِقها كأسرى حرب، فيظل في شَرَكِها لا يبرحها، وينظر للعالم من خلالها، ولا يسمح لنفسه باختبارها أو تطويرها. هذه أفكار انتهكت حرية الإنسان ولكن لا على وجه القوة والغلبة، بل على وجه التستر والخفية.

بعض النجاحات هي الأخرى تسرق الحرية، وهذا من المسالك الخفية

لسرقة الحرية ! فما لم يغادر الإنسان نجاحه السابق ويشرع في نجاح جديد، فسيغدو أسيرا في نجاحه السابق لا يحسن أن يغادره، حتى تتحول حياته إلى حديث مكرور عن ذلك النجاح السابق. وقد اتهم بعض الشعراء قصيدة عمرو بن كلثوم بذلك.

بعض النجاحات تحول بين الإنسان وتطوير أدواته ومهاراته، وفتح آفاق جديدة في حياته، فحاذر نجاحاتك أن تسلب منك حريتك على حين غِرّة، فتكون الصفقة الخاسرة، فإن الحرية أغلى من تلك النجاحات.

إن المعروف بمحاربة الحرية هم الفراعنة في كل زمان ومكان، ولسان حالهم: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

أما الأنبياء فإنهم أهل الحرية وسادتها، حتى في خاصة أهلهم وأسرتهم، وهذا مشهد عجيب يكشف جانب الحرية في تربية الأنبياء لأبنائهم: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات: ٩٩-١٠٦]، قد استأذنه وشاوره، وهذا قانون الحقوق والحرية، ولذلك كانت هنا

إرادتان مستقلتان: إرادة الأب، وإرادة ابنه، فكانت الاستجابة والفضل والشرف لهما جميعا، كما قال الله: «فَلَمَّا أَسْلَمَا»: الأب وابنه.

وشبيهٌ بهذا الموقف في حفظ الحقوق وحرية القرار، كان في حضرة النبي الأكرم ﷺ، كما روى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ أُتِي بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام وعن يساره أشياخ، فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟ فقال الغلام: لا والله لا أوثر بنصيبي منك أحدًا، فَتَلَّه رسول الله ﷺ في يده، ومعنى تَلَّه أي: وضعه، وهذا الغلام هو ابن عباس رضي الله عنهما.

فانظر كيف حفظ رسول الله حق الغلام ولو كان في القدح، وانظر لهذا المجتمع المعافى الذي يتيح لهذا الغلام الحرية ويربيه عليها حتى أصبح قادرًا أن يحتفظ بحقه مع كامل الأدب والرُّقي. هذه مجالس الأنبياء، مجالس الحقوق والحرية، والأدب والأخلاق.

عبادة الاتباع:

وكمالُ الحرية بكمال العبودية لله رب العالمين، ولم يصل بشر إلى مكان النبي محمد ﷺ في معراجه، حيث سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرة ما يغشى.

وفي هذا الكمال البشري الذي لا يتحصل لأحد غيره، وهو سيد الأحرار، تحرر من أهوائه، وتحرر من تعظيم الخلق، يصفه ربه بأجمل وصف: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء:١].

ولئن كان بعض الكفار يرى الحرية في التمرد على الأديان، فما ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتوهم طريقا للحرية أفضل من طريق العبودية لله.العبودية لله هي التي تجعل جميع المخلوقين يتصاغرون أمام الله، والله أكبر! ليس للحرية باب أكبر ولا أرحب من هذه الكلمة، إذا نطق بها الجنان ووافقه اللسان: «الله أكبر»!

إن الطرق الأخرى لا توصلهم للحرية، بل للتمرد والمراهقة والنزق

والفوضى والعبثية، أما الحرية فإنها لا تُنال بكمالها وجمالها إلا على طريق الأنبياء، فهم سادة الحرية، وهم أدرى بِشِعَابها.

الحرية هي الانعتاق من العوائق لا من الحقائق، فالحرّ حين يلتزم بقانون العدل في حياته، فإنه لا يزيد إلا رفعة وكمالا، وذلك الذي يتمرد على العدل ينتقص من حريته وكماله بقدر ما يتمرد، فالعدل من أجمل الحقائق، والحرية بقدر ما تحارب العوائق، فإنها تحارب عن الحقائق وتفديها بالغالي والنفيس.

كان نوحٌ -عليه السلام- سيد الأحرار في زمانه، وتسامى عن خرافاتهم وأوثانهم، أما ابنه فحسب أن التمرد على دين أبيه حرية، وحسب أنه قادر على إبداع واختراع طريقٍ للنجاة بعيدًا عن طريق الأنبياء، وأبوه يدعوه ويناديه: ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [هود:٤٢]، وهو يصرّ على غيِّه، ومراهقته وتمرده ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾، لكن الحقائق لا تتغير ولا تتبدل، وهي أقوى وأبقى: ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾[هود:٤٣].

في طريقي إلى الروضة الشريفة في المسجد النبوي، حيث كان المسجد في هدوئه وسكينته، هزَّني صديقي بهذه الكلمة: إذا تاهَ بك الطريق، فارجع إلى نقطة البداية !

أجل، هنا البداية، والهداية، وما ابتعد عنها أحد إلا ضلَّ وتاه، ولن ننجو من العوائق، ولن نصل إلى الحقائق إلا على هذا السبيل المبين. هنا سفينة نوحٍ، وباقي الأرضِ طوفانُ.

وكمال الطاعة والاتباع لا تعني عدم السؤال والحوار، فإن الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤْمرون، حصل معهم سؤال وحوار مع رب العزة والجلال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة:٣٠].

وفي مجلس رسول الله ﷺ كان أصحابه آيةً في الطاعة والاتباع، ولم يمنعهم هذا من السؤال والحوار. عن أبي سعيد الخدري ﵁، عن النبي ﷺ، قال: «إياكم والجلوس في الطرقات»، قالوا: يا رسول الله، ما لنا بُدّ من مجالسنا نتحدث فيها، قال رسول الله ﷺ: «فإذا أبيتم إلا المجلس، فأعطوا الطريق حقه»، قالوا: وما حقه؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (متفق عليه).

عبادة الاجتماع:

الأمر بالاتباع مقرونٌ مع الأمر بالاجتماع: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وما أعظم القرآن!

كنتُ أنظر إلى واقع المتديِّنين وما عندهم من خلاف وافتراق، وأتوجع لهذا الواقع المؤلم، في الوقت الذي نرى فيه الأمم الأخرى تجتمع بعد افتراق، وتتجاوز خلافاتها الدينية، واللغوية، وصراعاتها التاريخية، حتى أضحوا أمة واحدة، يهابهم القريب والبعيد، ونحن هنا لا نجد انتخابات تحدث إلا صنعت انقسامًا واحترابًا جديدا، ولا يستجدُّ أمر إلا افترقنا وتنازعنا بسببه، حتى أصبح اجتماع الكلمة أشبه بالوهم الذي لا يمكن تحقيقه، لولا ما نراه هناك رأي العين!

وربما قيل: هذا بسبب البعد عن الدين، وهذا حق؛ فإن ديننا يأمر بالاجتماع وينهى عن التنازع، ولكن ما بال الكفار اجتمعت كلمتهم، والمسلمون وفي مقدمتهم المتدينون، كل حزب بما لديهم فرحون ؟!

ومما لاحظته أن المتدين أبعد عن الاجتماع من غير المتدين! فإن المتدين

ينازعك ويفارقك ويحاربك باسم الدين، فإذا دعوته للاجتماع، كأنما تراوده عن دينه، وهو يكرر في نفسه: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[القلم: ٩].

وحين تدقق النظر تجد أن أقرب المتديّنين للتنازع، هم المتسبون للسلفية، المهتمون باتباع الدليل، فلا يَصلون واديًا إلا وجدت معهم خيرًا كثيرا، وتنازعًا كبيرا !

هذه هي الحقيقة الصادمة كما أراها، ليست والله اتهاما ولا تعييرًا، والاعتراف بالمشكلة هي الخطوة الأولى في طريق التصحيح والتدارك.

من المؤلم جدا أن ترى أن دعاة اتباع الدليل سببا في التنازع والافتراق، فترى الجالية المسلمة الصغيرة في بعض البلدان، لهم أكثر من عيد، ولا يستطيعون أن يجتمعوا على يوم واحد.

لا يمكن أن تكون المشكلة في اتباع الدليل، بل هو الشفاء والعافية.. ولكن أين المشكلة إذن ؟!

إن من عايش المشكلة، وتوجع منها، يستشعر عظمة القرآن حين قرن بين عبادة الاتباع، وعبادة الاجتماع: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

إذن مشكلتنا أننا بذلنا جهودًا كبيرة في بيان الطريقة (لعبادة الاتباع)،

وكيف تبحث عن الدليل، وكيف تتحقق من صحته، وكيف ترجح، وكيف تصحح.. بينما لم نبذل جهودا مماثلة في بيان الطريقة (لعبادة الاجتماع)، وكيف تصنع حين تلتقي بقوم آخرين يرجحون ما لا ترجحه، ويصححون ما لا تصححه، ومتى تترك ترجيحك الخاص رعاية لحق الاجتماع، ومتى تترك الاجتماع رعاية لحق الاتباع.. الخ.

فالتنازع إذن ليس بسبب الاتباع، بل لتقصيرنا في فقه الاجتماع. إن غاية ما صنعوه وقالوه هو الحث على الاجتماع، دون أن يكون ذلك وفق منهج وآليات واضحة، تشبه المواعظ باتباع الدليل لو خلت عن تخريج العلماء القادرين على معرفة الدليل والتحقق من ثبوته.

ليتنا نتعلم من صلاة الجماعة، ونحن نمارس فيها فقه الاتباع مقرونا بفقه الاجتماع، ثم ما نلبث أن نغادر هذا الفقه حين نُسلِّم من صلاتنا! ألا يأتي المسبوق في صلاته، فيلحق بالإمام، ويزيد في صلاته وينقص منها بسبب متابعته للجماعة= ما لو فعله منفردا لبطلت صلاته بإجماع العلماء؟!

مثال ذلك: لو أدرك المسبوقُ الجماعةَ في الركعة الثانية، فإن الإمام مع جماعته سيجلسون للتشهد الأول بعد ركعتهم الثانية، ويجلس معهم هذا المسبوق مع أنه لم يصلّ إلا ركعة واحدة، ولا يسوغ له غير ذلك. لو فعلها (المصلي المنفرد) ذاكرا عالما، فجلس للتشهد بعد ركعته الأولى؛ بطلت

صلاته باتفاق الفقهاء، ومع هذا فإنه يفعل حال الجماعة ما لا يجوز له فعله حال الانفراد، رعايةً لحق الاجتماع.

حينما ضعف هذا الفقه (فقه الاتباع وفقه الاجتماع) في العصور المتأخرة، وصل بهم الحال إلى افتراقهم في الجماعات، وأصبح في المسجد الحرام مقام ومحراب لكل مذهب !

ثم صُححت والحمد لله هذه الفُرقة والتفرق في صلاة الجماعة، وبقيت في مناحي الحياة لم تُصحَّح.

إن هذا الموضوع يمثل عقدة مركزية في حياتنا الإسلامية، ويستحق مزيدا من البحوث العلمية، التي تتجاوز الوعظ إلى تتبع الأسئلة المشكلة، وبناء النظرية والمنهج في فقه الاجتماع.

وبسبب غياب الرؤية الواضحة التي تنطلق من الكتاب والسنة أصبحنا نرى من يتعبد لله بالتنازع وهو عند نفسه يصر على الدليل ويتمسك بالراجح.

هل أصبح التنازع دينا نتقرب به إلى ربنا ؟! نعم، هو كذلك في مفاهيمنا الخاطئة، ونسمي ذلك بغير اسمه.

وأحسب أنه لو قيض الله لهذه العقدة، من يجمع تفاصيلها، ويبني

نظريتها، ويوضح منهجها، ويؤصل لها من الكتاب والسنة، فإن الأمة ستختصر باجتماعها طريقا طويلا زاده التفرق والتنازع شعثا وطولا. وربنا قادر سبحانه أن يُهوِّن علينا سفرنا، وأن يَطوِي عنا بُعدَه.

خطيئة الابتداع:

الابتداع زيادةٌ في الدين، وهو بابٌ من أبواب الضلالة، والحق يقال: أن جهود العلماء السابقين أثمرت كثيرًا في تبصير المسلمين بخطورة البدعة، والحرص على العودة لما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه. هذه الجهود لا تكفي، ولازالت الأمة بحاجة إلى نشر هذه المعاني وترسيخها من جهة، ولازال معنى البدعة وضابطها وما يتعلق بها من أحكام بحاجة كذلك للبحث والمدارسة.

وأريد أن أتجاوز هنا هذا المعنى للابتداع، إلى مطلق الزيادة في الدين، والقول على الله بغير علم، لاسيما ما يروج في أوساط طلبة العلم من المحاذرين والمجافين للابتداع.

حين تقرأ سورة الأنعام، يلفت انتباهك التركيز على التشريع بغير دليل،

وأن ذلك من منازعة الله في أحكامه، ومن ذلك: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وذكر سبحانه ما يعتمدونه من أحكام وتفاصيل ما أنزل الله بها من سلطان، وفي سورة الشورى يقول الله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

حين يذكر الفقيه تفصيلًا لا دليل عليه من الكتاب والسنة، ما موقفنا من هذا التفصيل الزائد المنسوب للشريعة دون دليل؟

أما الفقيه فلعله اجتهد بما يعذره عند الله، ولعله إن أخطأ أصاب أجرًا واحدًا، ولكن ماذا عنا ونحن لا نرى حجةً شرعية تبيح لنا التدين بهذا التفصيل؟

إن نسبة الحكم إلى الشريعة أمرٌ جليل، وما لم يكن معك حجة وبرهان فتريَّثْ وتهيَّبْ، ألا ترى أن بعض القوم يُقدم على التحريم احتياطا، وما علم أن الاحتياط هو في الخوف والوجل من القول على الله بغير علم! يسعه أن يمتنع عن الفعل إن ارتاب في جوازه، ولا يسعه أن يحكم بأن الله حرم هذا إلا بسلطان مبين.

قال الله تعالى: ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩].

يُخطئ من يمرّ على هذه الآيات مرورًا عابرا، دون أن يقشعرّ بدنه من أن يكون قد وقع في مثل ذلك بجهلٍ أو تفريط. يُخطئ من يظن أن ذلك خاص بالمشركين، وكأن المسلم يحل له أن يقول على الله بغير علم. ومن يقرأ الفتاوى المعاصرة، ويستمع لكلام العامة والخاصة في المجالس، يتأكد لديه أن هذا الأمر الخطير في كتاب الله يحتاج إلى مراجعة في نفوسنا وتعليمنا ومواعظنا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «ولهذا كان ابتداع العبادات الباطلة، من الشرك ونحوه، هو الغالب على النصارى ومن ضاهاهم من منحرفة المتعبدة، والمتصوفة. وابتداع التحريمات الباطلة هو الغالب على اليهود ومن ضاهاهم من منحرفة المتفقهة.» [الفتاوى: (٨٩/ ١)]. وفي موطن آخر يقول: «وكثير من المتفقهة وأجناد الملوك وأتباع القضاة والعامة

المتبعة لهؤلاء يشركون **شرك الطاعة**» [الفتاوى: (١/ ٩٩)].

إن انتسابنا للإسلام لا يعصمنا من أخطاء السابقين، بل يوجب علينا أن نكون قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسنا، وألا يمنعنا الحب والتقدير من واجب التصحيح والتجديد، وردُّ القول لا يعني انتقاص قائله، واحترام القائل لا يكفي في قبول قوله، حتى يأتي بسلطان مبين؛ فنسبة الحكم لشريعة الله، والقول على الله محلُّ الحيطة والحذر. قال الله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف: ٣٣].

نسأل الله أن يحمي ألسنتنا من القول على الله بغير علم، وألا يجعلنا ممن يفترون على الله الكذب وهم لا يشعرون!



الوقفة التاسعة

مفاهيم

الإخلاص:

الإخلاص معنى شريف، يستعلي الإنسان فيه بمبادئه وأهدافه عن شهواته ودنياه، تنتصر فيه الروح وأشواقها، على الجسد وشهواته. والإخلاص لله تعالى هو الطريق الوحيد لقبول العمل، فلن يقبل الله طاعة في الآخرة إلا بالإخلاص، ومن أشرك في عمله تركه الله وشركه.

وأهمية الإخلاص لا تعني أن يتجرد الإنسان من ضروراته التي خلقه الله عليها، وما وُجد من تعارض بينهما، فإنه فهمٌ خاطئ للإخلاص، وليس الإخلاص المأمور به شرعًا، مثال ذلك: الذكر الحسن، فإن حبه فطرة مغروسة في النفس البشرية، لا يجوز أن تكون هي هدفه الذي يعمل من أجله، بل يعمل من أجل الله ورضوانه، ولا يمنع بعد ذلك أن يفرح بالذكر الحسن، وكان من دعاء إمام الموحدين، إبراهيم -عليه السلام-: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾[الشعراء: ٨٤]، يقول ابن جرير -رحمه الله- في تفسير هذا الدعاء: «واجعل لي في الناس ذكرًا جميلا وثناء حسنا، باقيا فيمن يجيء من القرون بعدي»، فمن فهم أن الإخلاص يعني عدم الفرح بالذكر الحسن، وعدم الحرص عليه، والدعاء به، فقد فهم الإخلاص على نحوٍ مختلف عن فهم إبراهيم -عليه السلام- الذي تعلمنا التوحيد تأسيا به، وبالأنبياء معه.

وفي سورة مريم يخبر تعالى أنه جعل له ولذريته لسان صدق في الآخرين: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾[مريم: ٤٩-٥٠].

كذلك جاء في سورة الصافات، وربنا يذكر مِنَّته على عباده الأنبياء، ويُغري عباده أن يسلكوا طريقهم؛ لينالوا جزاءهم الجميل، وعاقبتهم الكريمة: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾[الصافات: ١٠٨- ١١١]. قال ابن جرير -رحمه الله-: «يقول تعالى ذكره: وأبقينا عليه فيمن بعده إلى يوم القيامة ثناءً حسنا».

وذكر مثل ذلك لغيره من الأنبياء، فالثناء الحسن، ولسان الصدق حبُّه مغروس في النفس، وطريقه طاعة الله، وأن يقدم مرضاة الله على مرضاة خلقه.

ومما هو مغروس في النفس البشرية، حب المال والمغانم، وقد جاءت النصوص الكثير في أهمية الإخلاص حال الجهاد، كما جاء في الحديث: «يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو في سبيل الله» (متفق عليه)، فهل يُفهم من هذا أن ينسلخ من بشريته، حتى يصبح المال والغنيمة أخذها وتركها سواء؟

وهل يستطيعه الإنسان ولو تكلف ذلك وطلبه؟

سادةُ المخلصين من هذه الأمة اختلفوا بعد بدر على الغنيمة، ومن انسلخ من بشريته في حب المال، لن يحرص عليه، فضلًا عن الاختلاف عليه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، وقد ذكر الله في سورة الفتح تزكية الإخلاص في قلوبهم، مع ما كانوا يرجونه من الغنيمة: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ [الفتح: ١٨-٢٠]. قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ يقول تعالى ذكره: فعلم ربك يا محمد ما في قلوب المؤمنين من أصحابك إذ يبايعونك تحت الشجرة، من صدق النية، والوفاء بما يبايعونك عليه، والصبر معك.. وقوله: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ يقول: وعوّضهم في العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة بقتالهم أهلها فتحا قريبا»، فيبقى مع الإخلاص لله في الجهاد حبٌّ بشري للغنيمة والمال، لا يُشترَط في الإخلاص التطهر منه، إنما يكون تابعًا لا متبوعًا.

ومثل ذلك يقال في باقي الشهوات، مثل المنصب، والنساء، والأولاد، وغيرها، ولن تجد شهوة إلا وهي مخلوقة لبقاء الحياة أو

عمارتها، ولا يمكن أن تأتي الشريعة لاستئصالها بالكلية، إلا على وجه الرهبانية المبتدعة التي لم يكتبها الله على عباده، فمن استرسل مع الشهوات غوى، ومن استأصلها بالكلية غلا، ومن هذبها وزكاها رشد واهتدى.

الحزن:

يفهم بعض الناس أن الحزنَ فرعُ الإيمان بالله، واليومِ الآخر، وحسابه وعذابه، وأن قسيم الحزن هو الاستهتار وعدم المبالاة، وقد يُفاجَأ أحدهم حين يعلم أن الحزن لم يأمر به الله ولا رسوله ﷺ، بل نهى عنه في مواطن. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما الحزن فلم يأمر الله به ولا رسوله، بل قد نهى عنه في مواضع وإن تعلق بأمر الدين».

فلا ينبغي إذن أن نستدعي الحزن، ولو كان ذلك بسبب المنكرات، والحرصِ والشفقة عليهم.

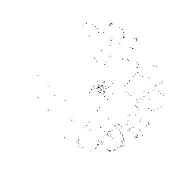
لا يغلبونك على السكينة والطمأنينة: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨]، ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ

﴿ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[يونس: ٦٥]. حتى المصائب التي تحل بالمسلمين لا ينبغي أن تستدعي لأنفسنا الأحزان، بل صبرٌ ويقين، وإيمانٌ واطمئنان، مع العمل النافع بقدر الطاقة والإمكان: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

إن النهي عن الحزن لا يعني القدرة على الامتناع عنه بالكلية، فإنه يهجم على النفس إذا توافرت أسبابه، وللطبيعةِ البشرية ضروراتُها، وقد قال الله لنبيه ﷺ: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥].. ومع هذا: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر: ٩٧].

هذه طبيعة بشرية يُدافعُها المؤمن بالتسبيح والسجود والعبادة والصبر والإيمان، كما يُدافع المرض بالصبر والطب، أما استقبال الحزن والحفاظ عليه كما لو كان طاعة وقربة، فعملٌ غير صالح، وربما وصل الحال بنا إلى استدعاء الحزن وتهييجه في كل فرصة سانحة.

ورأيت بعضهم يتحرج من البهجة والرضا، وكأنّ ممارسة الحياة من شرطها أن تخلو من المنكرات والمصائب. العبرة في مصائب المسلمين بما تقدمه لهم من نفع بمالك ودعائك وعملك، أما إضعاف القلب والهمة بالأحزان، فلا ينبغي طلب ذلك وتكلّفه، وينبغي أن يكون قلبُ المؤمن هو أكثر القلوب رضا وسكينة وطمأنينة.



البراءة من الكافرين:

قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم:٤-٥].

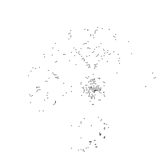
لقد سمى الله هذا النصر: نصر الله؛ إكرامًا وتشريفًا، وأخبر بأن هذا النصر سيفرح به عباده المؤمنون.

إن هذا النصر لقومٍ كافرين!: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ ﴾ [مريم :٨٨ - ٩٢].

ونصرُهم في تلك المعركة هو نصر الله، ويومئذٍ يفرح المؤمنون، فإذا كان فهمك للبراءة من الكافرين يحجبك عن هذا الفرح، فراجع فهمك؛ فإنه على خلاف القرآن! حين يكون الروم (أهل الكتاب) مقابل فارس (أهل الوثنية)، فإن المؤمن لا يقف منهم على مسافة واحدة من البراءة، بل هو مع انتصار الروم ولو كانوا كفارًا، ولو كان سيقاتلهم في غزوة تبوك وما بعدها.

وفي كل معركة وحادثة، ينبغي أن يكون المؤمن مع الجانب الأقرب للحق والعدل، ولو كان كافرًا، وتعاطفُ المؤمن معه في تلك الحادثة لا تعني تزكيته بالجملة.

وجدتُ بعضهم يُشنّع على من يقف مع الجانب الأقرب للحق، إذا رآه بعد ذلك يخاصمه ويعاديه، ويَعدُّ ذلك ضربًا من التناقض، ودليلًا على قِصَر النظر وقلة الفقه، ولو تفكر في موقف المؤمنين من الروم حين قاتلوا فارس، وموقفهم من الروم بعد ذلك، لعلم أن البراءة من الكافرين لا تعني الثبات المطلق في صورتها ونتيجتها، فبراءةٌ من مشركين وقفوا مع الروم ضد فارس، وبراءةٌ من مشركين وقفوا ضد الروم في تبوك، وتغيُّرُ الحال دليل فقهٍ وبصيرة، وليس قِصرًا في نظر، أو رِقَّة في الدين.



حكماء صهيون:

قال الله تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١١].

يصل بنا الحال ونحن نسترسل في التحليل، وتوصيف العدو وقوته وإمكاناته، إلى أن نعطيه منزلةً فوق منزلة البشر، تضاهي خلق الله!

فكل صغيرة وكبيرة هي مرصودة في أجهزة القوم، وكل تصرف هو من تخطيطهم ومؤامراتهم، ثم نعد ذلك حِذقا في الرؤية، وعمقًا في التحليل.

الأمر يسير إذا كان قصارى أمره خطأ في تقدير، وإسراف في تحليل، لكن يكون خطرًا محدقًا حين يقدح ذلك في تعظيم الرب وتوحيده، وحين نتعامل مع الصهاينة أو الغرب أو الشرق، كما لو كانوا يضاهئون الله في علمه وقوته وقدرته وخلقه.

إن من يبالغ في قوة عدوه، يقدح في دينه، ويقضي على نفسه ومستقبله بالهزيمة والتبعية، وما أصابنا الضعف والهوان لقوة عدونا، بل لضعفنا وتنازعنا وبعدنا عن ديننا: ﴿ قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

إن ما كانت تصنعه الوثنية الأولى مع الجن، أصبح اليوم يصنعه بعضنا مع الصهاينة والغرب والشرق باسم العلم والعمق والتحليل: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾[الجن: ٦]. قال الطبري: «﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾: أي إثمًا، وازدادت الجنّ عليهم بذلك جراءة».

يجب أن نضع للتحليل حدًا لا يتجاوزه، ولِتقدير العدو وقوتِه قدْرًا لا يتعدَّاه، وأن نحاذر من نسبة شيء من خلق الله وحده إلى غير الله، وهذا الإيمان والتوحيد هو الذي ينير بصائرنا لرؤية الفرص الربانية، ويقوي عزائمنا على نهضة الأمة من جديد.



مفهوم التديُّن:

قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١-٣].

في دين الله ارتبط الإحسان في عبادة الله مع الإحسان لعباد الله، والتقصير في نفع الخلق مع التقصير في عبادة الخالق، ومن قَصَر تدينَه على زيادة التنسك والعبادة مع الإعراض عن الخلق وحوائجهم، فإنه سلك سبيلًا في التدين خاطئ.

والصلاةُ تعبد وتنسك، والزكاةُ صلة وإحسان، وقيام الليل؛ صلاةً وقراءةً وتهجدًا مقرون بنفع الخلق والإنفاق عليهم: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦- ١٧].

إن هذا طريق الجنة والجزاءِ الأوفى، أما النار فلها طريق آخر يجمع بين التقصير في العبادة، والإعراض عن نفع العباد: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤٢- ٤٤].

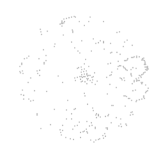
ذات يوم.. عَرَضَت حاجةٌ لبعض القوم من المساكين والضعفاء، تحتاج

إلى مساعدة ومؤازرة، ومِن عجبٍ أن يترك بعض الصالحين مساعدتهم، وينتقدوا الاشتغال بذلك باعتباره اشتغالا بأمور الدنيا عن أمور الدين ! والعقيدةُ أولًا لو كانوا يعلمون -هكذا يقولون-!

هذا المفهوم في التدين يحتاج إلى تصحيح بما يوافق دين الله، في كتابه، وسنة رسوله ﷺ.

إن شخصية الموحد والداعية إلى التوحيد هي نفسها التي تطعم المسكين، وتكفل اليتيم، وتصل الرحم، وتُقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

وفي حديث ضيف إبراهيم المكرَمين، صورة مشرقة لإمام الموحدين، الذي تمتزج في شخصيته عبادة الله مع الإحسان لعباد الله.



الغلو:

قال الله تعالى: ﴿لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

أُسائل نفسي يوم الجمعة، والمسلم مأمور بكثرة الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.. لو أجريتَ معاييرك في سدِّ الذرائع عن الشرك، وحمايةِ جناب التوحيد، هل كنتَ ستفهم (كثرة) الصلاة والسلام على رسول

الله؟ أم كنت ستراها ذريعة قريبة للغلو في رسول الله بأبي هو وأمي ﷺ، وقد نهانا عن الغلو في محبته وإطرائه؟!

إن اختبار (المعايير)، والتأكد من شرعيتها وصحتها مهمٌ للغاية، فإن المعيار الخاطئ إمامٌ على غير هُدى؛ حيث يعتمده صاحبه في الحكم على الأشياء بالحل والحرمة، والصحة والخطأ، ولن تستطيع أن تختبر (المعيار) حتى تُجريه على الفروع المحكوم عليها في الكتاب والسنة، فإن وافق حكمهما صح المعيار، وإن خالفهما انكشف خطؤه.

أما معيار (منع الغلو وحماية جناب التوحيد)، فلو أجريتُه على فهمي السابق، لاستشكلت الأمر بكثرة الصلاة والسلام على رسول الله، وهذا يعني أن هذا الفهم يجب أن يصحح بما يوافق أحكام الكتاب والسنة، وألا نجيز بعض الأحكام للنص دون القياس، وتلك قصة أخرى.

المهم هنا أن هذا السؤال قد أَبَان لي أن الغلو مذموم، ولو كان في محاربة الغلو!

بئس هذا الغلو.. يضلُّ قومٌ (غلوًا) في الصالحين، ويضلُّ آخرون (غلوًا) في حماية جناب التوحيد، وربنا يقول: ﴿لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

ومما يثير التساؤل والمراجعة أن نأتي على أمور كانت باقية طيلة هذه

القرون، وتعاقَبَ عليها المصلحون دون أن يُزيلوها، رغم ما وقر في قلوبهم من حب التوحيد وحماية جنابه، ثم نأتي نحن بعد ذلك ونخالفهم فيها منعا للغلو وسدا للذريعة.. أوَ ما يسعنا ما وسعهم ؟!



الجمال والزينة:

الزينة من خلق الله: قال الله تعالى: ﴿ وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾ [الحجر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ [الصافات: ٦].

والزينة من شرع الله، قال تعالى: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣١-٣٢].

ولأن المسرفين والفساق أسرفوا في طلب الزينة والحرص عليها؛ أصبح بعض المسلمين يقف موقفا متباعدًا عنها، وكأنها منكرٌ محرم.

علاقة المسلم بالزينة لا ينبغي أن تفسدها الممارسة الخاطئة من الآخرين. الزينة ليست هي الغاية والهدف الأسمى في حياة المسلم،

ولكن ليست هي من المعاصي التي يستنكف منها المسلم، وكأن الفوضى وعدم الجمال أقرب لروح الشريعة.

في زيارةٍ لمكتبٍ دعوي في الأحساء، أعجبتني كلمة قالها مديره وهو يشرح حرصهم على جوانب الجمال والنظام، يقول: لقد آمنت بلقيس عند سليمان بالإبهار، ولذلك ينبغي أن نعتني في دعوتنا بالفن والجمال والتنظيم.

لا يجوز أن نستنكف من الزينة وهي من خلق الله، كما نص القرآن على أن السماء الدنيا زيَّنها للناظرين، كذلك هي من شرع الله: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾. فهذه المعاني الفطرية من حب النظافة والجمال والزينة لا تأتي الشريعة بتحريمها، فإن الفطرة السوية من خلق الله، والشريعة تُهذِّب ذلك وتزكيه.

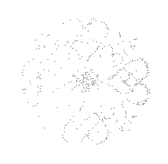
إن بعض العيون الكافرة أدمنت على الزينة، ومن يدعو إلى الله لا ينبغي أن يحجب هذه العيون عن الإسلام بالتفريط في جوانب الجمال والزينة المباحة، ومعاني الإسلام الخالدة تستحق منا أن نعرضها في الثوب الأجمل والأزين. الأذان ينبغي أن نختار له الصوت الأندى، والقرآن ينبغي أن نقرأه بأجمل أصواتنا.

في مشاعر الحج تأسف لمناظر الفوضى والقذارة، وتتحرج من هذا المسلم الجديد الذي جاء من بلاد النظافة والجمال والنظام، وقطع طريقه

الطويل يريد مكة عاصمة الإسلام، فيجد نفسه في انفصام حاد بين اختياره لأجمل الأديان، وما يراه من مظاهر أهله في شعيرة الحج.

لقد ارتبط الحج بهذه الفوضى حتى فقدنا الرغبة في التصحيح والتطوير، وأظن أننا سنجد من يعترض تديُّنًا على أي تطوير يخفف من هذه الحال، ويرى أن الحج لابد له من شعث وتعب، وفرقٌ كبير بين الصبر على شَعَث الطريق، وبين طلبه والحفاظ عليه.

الوضوء على المكاره أجرٌ وقربة، ولكن طلب المكاره والحفاظ عليها من أجل الوضوء فيها بدعة منكرة، ورسولنا ﷺ كان يتعوذ من وعثاء السفر، وكآبة المنظر.



الاحتجاج بالقدر:

قال الله تعالى: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ [الواقعة: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ [الجمعة: ٨].

كما يتعامل الإنسان مع قَدَر الموت، ينبغي أن يتعامل مع باقي الأقدار، فهو يؤمن أن الموت قدر، ومع ذلك يحرص على مدافعة

أسبابه من الأمراض والأخطار، فتجد في خِلقة الإنسان ما يدفعه لطلب الحياة والفرار من الموت، والشريعة جاءت بتحريم الانتحار وتجريمه، وأصلُ الفرار من الموت مفطور عليه الخلق، ومأمور به في الشرع، والمذموم من ذلك ما وصل إلى حد المبالغة.

يحتج بالقدر بعض الضُلّال في حال الشهوة والشبهة، ويتخذون من الإيمان بالقدر عذرًا في مقارفة بعض الذنوب وترك بعض الواجبات، حتى يُخيَّل للإنسان أن الإيمان بالقدر سببٌ في هوانهم أمام الغزاة، واسترسالهم في الشهوات، وما كان للقدر -الذي هو من دين الله- أن يكون سببا في هوانٍ أو ضلال، بل هو مفهوم خاطئ في التعامل مع القدر، ولو أنهم تعاملوا مع الأقدار المذكورة كما يتعاملون مع قدر الموت، ما ضلوا ولا هانوا.

لقد آمن أصحاب رسول الله ﷺ بالقدر، فحملهم هذا الإيمان على الشجاعة والإنفاق ومكارم الأخلاق:

أيُّ يوميَّ من الموت أفرّ   يوم لا قُدِّر أو يوم قُدِر
يوم لا قُدِّر لا أرهبُه   ومن المقدور لا يُنجي الحذر

وهنا ضابط في كل المفاهيم، فإنك لن تجد مفهومًا يُضعف الهمة، ويُورث الهوان، إلا وهو مفهوم خاطئ ولو نسب إلى الشريعة، وإن لم

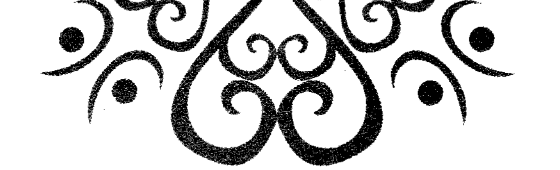
تهتد لسبب خطئه على وجه التفصيل، فإن هذا المآل الفاسد سبب كاف على سبيل الإجمال.

الشريعة ومعانيها لا تزيد الإنسان إلا زكاء وإحسانًا، وما خالف ذلك فإنه فهمٌ على غير سَنَن الشريعة، والإشكال يكون ممن يحترم هذا المفهوم لنسبته للشريعة رغم انحرافه، ويكون مِن آخرين يلحظون هذا الفساد فينكرون المفهوم بالكلية، والهداية في اكتشاف وجه الخطأ والانحراف، وتنقية المعاني الشرعية الصحيحة منه.

وللتفكّرِ والتفكير بقية..

تأتيكم في الأجزاء القادمة بإذن الله

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليما كثيرًا



فهرس الموضوعات



لعلهم يتفكرون

قراءةٌ تفكُريّة في آيات الكتاب العزيز

هذا الكتاب هو الجزء الأول من مشروع «لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» وستلحقه أجزاءٌ أخرى -بإذن الله-. وهو قراءةٌ تفكُّرية في آيات القرآن الكريم، متعلقة بالتفكير والمنهج، والدعوة والإصلاح، وموضوعات أخرى. وكم في هذا القرآن من المعاني والآفاق والأسرار لا يصل إليها المؤمن بغير التفكُّر، ومهما تكاثرت وتتابعت كتب التفسير، فإنه لن يُحيط المفسر المحدود في علمه وعقله بالنص الرباني الخالد.

دار وجوه للنشر والتوزيع

Wojooh Publishing & Distribution House

www.wojoooh.com

WOJOOOH

المملكة العربية السعودية - الرياض

الهاتف: 4562410 الفاكس: 4561675

للتواصل والنشر:

info@wojoooh.com

www.facebook.com /wojoooh

@wojoooh1



SR 10



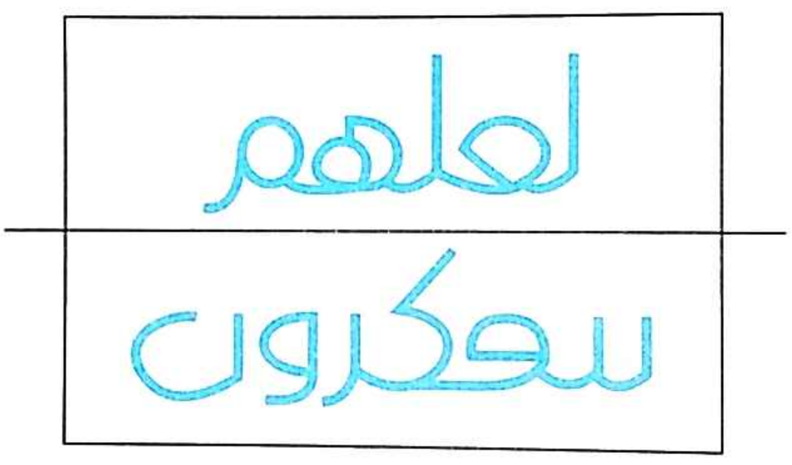
9786030147595

عبد الله بن مرزوق القرشي



قراءةٌ تفكُّريّة في آيات الكتاب العزيز

وجوه
WOJOOOH



الجزء الثاني

قراءةٌ تفكُّريّة في آيات الكتاب العزيز

عبد الله بن مرزوق القرشي

لعلهم يتفكرون
الجزء الثاني
عبدالله القرشي

الطبعة الاولى
1436 هـ - 2015م

ح/ عبدالله مرزوق فاحس القرشي، ١٤٣٦هـ.
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القرشي، عبدالله مرزوق فاحس
لعلهم يتفكرون: الجزء الثاني./ عبدالله مرزوق فاحس القرشي -
الرياض، ١٤٣٦هـ
١٤٢ ص؛ .. سم
ردمك: ٢-٧٩٢٨-٠١-٦٠٣-٩٧٨
١-القرآن والعلم ٢- القرآن-الاعجاز العلمي أ. العنوان
ديوي ٢٢٩،٤٥ ١٤٣٦/٤٢٩٢
رقم الإيداع: ١٤٣٦/٤٢٩٢
ردمك: ٢-٧٩٢٨-٠١-٦٠٣-٩٧٨

دار وجوه للنشر والتوزيع
Wojooh Publishing & Distribution House
WOJOOOH
www.wojoooh.com
المملكة العربية السعودية - الرياض
الهاتف:4562410 الفاكس:4561675
للتواصل والنشر:
info@wojoooh.com
www.facebook.com /wojoooh
@wojoooh1

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين..

أما بعد:

فهذا هو الجزء الثاني من سلسلة (لعلهم يتفكرون).. قراءةٌ تفكّرية في آيات الكتاب العزيز. وقد لقي الجزء الأول قبولًا ولله الحمد والمنة، وسمعت من أهل العلم المتخصصين في هذا الباب ما أرجو أن يكون من

عاجل البشرى، وأسأل الله ألا يحرمني من بشراه يوم ألقاه.

أكثر أوقاتنا بركةً تلك التي نصطفيها للقرآن، في تلاوته وتدبر معانيه. ولم يعظِّم القرآن حق التعظيم من أعطاه فَضْلةَ وقته وهمه. يستحق ذلك الكتاب أن نختار له صَفْوَ أوقاتنا.. حين تصفو الروح وتزكو، وتشفّ عن أشواقها وفطرتها ونقائها، حين يصغي القلب لحركة اللسان، ويواطئه تدبرًا وتفكرا، واستماعًا وانتفاعا: ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) ﴾ [سورة المزمل: ٤-٦].

فانظر كيف اختار الله لتلاوة كتابه وترتيله خير الأوقات وأزكاها، فإن المقصود بهذا القرآن هو القلب، وفي هذا الوقت يكون القلب أكثر إصغاءً وانتفاعا. وقد تنزَّل القرآن حين تنزل على (قلب) محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [سورة البقرة:٩٧]. فإذا كانت مواعظ القرآن وقوارعه لا تهزُّ ضميرك، فتحسس قلبك فإنك قد تركته مقفلا: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) ﴾ [سورة محمد:٢٤]. رجلٌ أميٌّ بسيط يستمع القرآن بقلبه ويؤمن به، يعرف عن الله أضعاف ما يعرفه «المفكر الكبير» الذي مد بصره نحو البشر وما يسطرون وأعرض عن هدايات القرآن وأنواره.

أيها القارئ العزيز: هذا الكتاب بين يديك، محاولة جديدة للتفكّر في

آيات القرآن، وهي لا تخلو من فواتٍ يحتاج إلى استدراك، أو خطأ يحتاج إلى تصحيح؛ والعلم رحمٌ بين أهله.. لكنّ المقصود بعد ذلك أن نتعاون ونتواصى على (عبادة التفكّر)، وألا نحرم قلوبنا وعقولنا من بركات القرآن وهداياته. فإنْ أغراك هذا الكتاب بعبادة التفكر فإنَّ ذلك غاية ما أرجو وأتمنى، وأسأل الله أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا.

المؤلف

عبدالله بن مرزوق القرشي

إيميل: a0503704440@gmail.com
تويتر: @aabualmonther

حلقات التحفيظ

تساءلتُ في نفسي وأنا أشاهد حلقات تحفيظ القرآن في المساجد: مَن صاحب هذه الفكرة ؟! متى بدأت جمعيات التحفيظ ؟! من كسب هذا الشرف العظيم، وأسس لهذه الفكرة حتى غدت حلقات التحفيظ ومعلّموها يلاحقون المساجد في المدن والقرى، ويتبعونها في السهول والجبال، وتخرّج عامة الأئمة في الحرمين وفي غير الحرمين من حلقاتها؟! لقد كانت البلاد قبل عام (١٣٨٢) دون نشاط منظم في تحفيظ القرآن في المساجد، سوى الجهود الفردية والمتفرقة، ثم كتب الله قيام هذه الفكرة العظيمة على يد رجل صالح من القارة الهندية، اسمه: محمد يوسف سيتي،

أسلم في صغره، وأحب القرآن وحلم بخدمته وتحفيظ أبناء المسلمين، في قصة جميلة حكاها الأستاذ خالد الفواز في مجلة البيان العدد (٢٥٣). رحم الله هذا الرجل المبارك، ورضي عنه وعن كل من شجعه وساعده.

هذا "الحفظ والتجويد" قد ساق الله له رجلًا مباركا، وأصبحت حلقات التحفيظ تعمر مساجدنا، وأبناؤها يُزيِّنون محاريبها بأصواتهم وتراتيلهم.

لماذا أُنزل القرآن ؟!

هل يكفي أن نحفظ القرآن ونجوّده ونرتله حتى نسلم من هجره والتقصير في حقه؟

في سورة النحل يخبر سبحانه أن التفكر في كلامه مقصدٌ من مقاصد إنزال القرآن، يقول سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)﴾[سورة النحل:٤٤].

إن حالَنا اليوم مع عبادة التفكر في آيات القرآن، يشبه حالنا مع عبادة حفظ القرآن وتجويده قبل عام (١٣٨٢) !

عبادة التفكر اليوم تشتكي إهمالنا، ولا شيء سوى الجهود الفردية وشبه المؤسسية المتفرقة. مع أننا في أمس الحاجة أن نعيد بناء علاقتنا مع القرآن، علاقة متكاملة فيها الحفظ والتجويد، والتفسير والتفكر، والحب والإيمان والعمل. إننا الأمة الوحيدة التي تملك نصًا ربانيًا لم يدخله التحريف،

متصلا بالسماء مع كل حرفٍ من حروفه. وقد جاءت الاكتشافات إثر الاكتشافات دون أن تمس خبرًا من أخباره، أو حقيقة من حقائقه بشكٍ أو ريبة. في داخل النص القرآني معانٍ عميقة لن تبلغها إلا بعبادة التفكر، وفي داخل النفس البشرية أغوار بعيدة لن تصل إليها هدايات القرآن إلا بعبادة التفكر. للجسد عبادة وعبادته الركوع والسجود والسعي في قضاء الحاجات، وللعقل عبادة وعبادته التفكر في كلام الله والتفكر في مخلوقاته. لو بحثنا عن طاقة العقل التفكّرية، وحسبنا كم صرفنا منها للتفكر في كلام البشر وتصرفاتهم، وكم صرفنا منها للتفكر في كلام الله لأدركنا جيدا معنى من معاني هذه الآية: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠)﴾ [سورة الفرقان: ٣٠].

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم مشغولين بفهم القرآن والتفكر في كلام الله، ويصلون إلى أعماق معانيه ودلالاته، وفي المجلس الأعلى لقيادة الدولة العمرية، كان الدليل الذي يشهد لتقدم ابن عباس في فهمه وعلمه هو التفكر في كلام الله، وبهذا ترى أن القرآن هو الذي يقدم ويؤخر في إمامة الصلاة، والتفكر فيه هو الذي يقدم ويؤخر في مجالس القيادة والرأي والمشورة. روى البخاري في صحيحه: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ : " كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُدْنِي ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ : إِنَّ لَنَا أَبْنَاءً مِثْلَهُ، فَقَالَ : إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ تَعْلَمُ، فَسَأَلَ عُمَرُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، فَقَالَ : أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ

ﷺأَعْلَمَهُ إِيَّاهُ، فَقَالَ : مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ " . فهو بهذا الفقه والعمق والتفكر استحق التقريب في مجلس القيادة والرأي والمشورة. وقد قال رسول الله ﷺ: "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين".

فجر الجمعة

روى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: " أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ فِي الْفَجْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: الم تَنْزِيلُ، وَهَلْ أَتَى " .

لماذا سورة السجدة والإنسان كل جمعة ؟!

هي سنة ثابتة عَلِمنا الحكمة من وراء ذلك أم لم نعلمها، ولكن لا مانع من التماس الحكمة والتفكر فيها. ومن أظهر المعاني في هاتين السورتين تثبيت الإيمان باليوم الآخر، وبعث الأشواق لنعيم الآخرة. وكم يحتاج المؤمن في طريقه الطويل، أن يتجاوز ببصيرته جدار الدنيا، وأن يمد بصره إلى ما وراء ذلك مما أخبر به ربه ومولاه. الإيمان باليوم الآخر ركن ركين للإيمان، وهو مادة الحياة التي تعيد إلى الروح زكاءها وقوتها. والمؤمن يلهج في صلاته كل ركعة :﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾. وما غفل قلبٌ عن

اليوم الآخر إلا ضعف أمام الشهوات، وتراخى أمام التحديات. وأكثر الشر والظلم والفجور سببه الإعراض عن اليوم الآخر: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧)﴾ [سورة الإنسان:٢٧].

إن من يقرأ هاتين السورتين كأنما ينتقل بروحه إلى اليوم الآخر، ويرى بعينه وجوه المجرمين ورؤوسهم الناكسة بين يدي الله، يتوسلون الرجعة والأوبة: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾ [سورة السجدة: ١٢].

وكم في هذا الموقف من خزيٍ بالغ، وحسرة عميقة. وما أوصلهم إلى هذا المصير إلا نسيان اليوم الآخر: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾ [سورة السجدة:١٤].

ثم يعود المؤمن بقلبه إلى الدنيا ويرى منظر المؤمن المتجافي عن مرقده ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦)﴾[سورة السجدة:١٦].

هؤلاء المتذكرون لليوم الآخر قد أعد الله لهم ما تقر به عيونهم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾ [سورة السجدة:١٧]. وكأن سورة الإنسان تفسير لهذه الآية، فإنها تكاد أن تكون في

وصف الجنة، وما أعده الله من كرامة أهلها. وَصَفَ أنهارها، وظلالها، وقطوفها، وحورها، وغلمانها، وأوانيها، ومِزاجها، وبهجتها، ولباسها.. ثم قال لهم وهم في هذا النعيم: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢)﴾ [سورة الإنسان:٢٢]. فكيف سيكون المؤمن المصلي في فجر الجمعة وهو يسمع هذه التذكرة؟! كيف ستكون روحه العائدة من هناك.. إلى زمن العمل والمهلة؟! إنه الإيمان باليوم الآخر وأشواق النعيم في الجنة.. وكم قسونا على أنفسنا حين ابتعدنا عن هذه المعاني، حتى جفّت ينابيع القلوب، وعظمت في أعيننا الدنيا ومتاعُها القليل.

إن أمامنا لقاء وأيُّ لقاء! لقاءٌ مع الله.. ويلٌ لمن كفر به وأعرض عنه ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠)﴾ [سورة السجدة:١٠].

إن الإيمان باليوم الآخر لا يورث إهمال الدنيا والإعراض عنها، بل يورث المؤمنَ القوة على استثمارها والسعي فيها بما يرضي الله، فإنها مزرعة الآخرة، والعملُ الصالح في الدنيا هو الطريق الموصل إلى نعيم الجنة. وليس من المصادفة أن يقرن الله ذكر الآخرة في السورتين بالإنفاق والإطعام: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦)﴾[سورة السجدة:١٦]. وفي سورة الإنسان: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨)﴾

[سورة الإنسان:٧-٨]. والإنفاق يكون عن غنى، أما أولئك المنقطعون للعبادة فأيديهم ممدودة للصدقات، يأخذون ولا يُعطون. إن الإيمان باليوم الآخر يبعث الهمة لنفع الناس، وعمارة الحياة، وإنقاذ المظلومين المستضعفين، والدعوة إلى الهدى، والصبر على ذلك: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)﴾[سورة السجدة: ٢٤].

وإذا قامت القيامة وفي يدك فسيلة، فلا ترمها، واغرسها فإنها عمل صالح يصلح لهذا اليوم العظيم. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا) . [رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد].

وفي هاتين السورتين تذكير بالنشأة الأولى، وخلق الإنسان من ماء مهين. فالمؤمن لا تستبد به اللحظة الراهنة، ولا يسيطر عليه الواقع الضيق من حوله، بل يمد بصره قبل أن يكون شيئا مذكورا، ويمد بصره بعيدا إلى اليوم الآخر، ويعلم أن هؤلاء من حوله سيذهبون كما ذهبت القرون الأولى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦)﴾[سورة السجدة: ٢٦] وقال تعالى في سورة الإنسان: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨)﴾[سورة الإنسان:٢٨]. وبهذا يكون المؤمن أقدر على الإعراض عنهم، والصبر على مواصلة الطريق،

إعراض العاملين عما يعرقل عملهم، وصبر الموقنين بما ينتظرهم: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠)﴾[سورة السجدة:٣٠] وفي سورة الإنسان: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦)﴾ [سورة الإنسان: ٢٤-٢٦].

وكم في هاتين السورتين من المعاني العظيمة، ينصت لها المؤمن بقلبه، فجر كل جمعة: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨)﴾ [سورة الإسراء:٧٨]. يجدد في قلبه إيمانه باليوم الآخر، ويبعث في روحه أشواق الجنة ونعيمها ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩)﴾ [سورة الإسراء:١٩].



الموهبة شرف ومسؤولية

يولَد الإنسان وهو لا يملك من أمره شيئًا، ويجد في نفسه بعض المواهب والقدرات التي لم يصل إليها بجهده وتعبه، بل هي مِنحة ربانية، وعطية إلهية. وحقُّ هذه المواهب شكرُ خالقها ومُعطيها سبحانه. وشكرُ النعمة يكون

بنسبتها لمنعمها، وإنفاقها واستثمارها فيما يحبه الله ويرضاه، فكما أن الموهبة شرفٌ ومزية، فإنها اختبارٌ ومسؤولية، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ (وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ) (لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ) إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٥)﴾ [سورة الأنعام:١٦٥].

إن زيادة الذكاء أو القوة أو المال أو نحو ذلك محل شرف ورفعة في أعين الناس: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩)﴾ [سورة القصص:٧٩]. ولا يكون كذلك عند الله حتى يؤدي العبد حق شكرها: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١)﴾ [سورة القصص:٨١].

لقد كبرت الموهبةُ في نفس قارون، ورأى أن ما أصابه من فضلٍ وغنى هو بسبب استحقاقه لذلك وفضله عند الله، فكانت موهبته وبالًا ونكالًا عليه:

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى (عِلْمٍ عِندِي) أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨)﴾ [سورة القصص:٧٨]

لا يحق للغني أن يفاخر بماله وهو يمسكه عن أهل الحاجات، بل هذا المال ابتلاء واختبار، فإما أخذَ بيده إلى الجنة أو إلى النار.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ (وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ)(٤٤)﴾

[سورة الزخرف:٤٤]. فهذا القرآن ذكرٌ وتشريف، وهو في الوقت ذاته مسؤولية وتكليف.

ومن غفل عن مسؤولية الموهبة وابتلائها، استمتع بها في دنياه، ثم أوبقت أخراه.

- معيارٌ فرعوني في التفضيل:

من أهمِّ ما يميّز مجتمعًا عن آخر: معايير التفضيل والتقييم في ذلك المجتمع. داخل هذه المعاير تكمن ثقافة المجتمع ورؤاه وأخلاقه، وتنكشف قيم المجتمع في معايير تقييمه وتفضيله. في المجتمع الفرعوني كان معيار التفضيل والتقييم هو زخرف الدنيا وزينتها، وبذلك رأى فرعونُ نفسَه متفوقًا على موسى حد الغرور بنفسه والامتهان لغيره: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ (هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ) وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣)﴾[سورة الزخرف:٥١-٥٣].

هكذا كان يُجري فرعون تفضيله وتقييمه، فالتفوق والفضل عنده يقاس بالملك وأسورة الذهب والفضة، بينما هناك معيارٌ رباني آخر يجعل موسى في أعلى علّيين، وفرعون بملكه وأنهاره وأسورته في أسفل سافلين.

كذلك كانوا مع محمد ﷺ، يستكثرون عليه شرف النبوة والرسالة، ويرون أن غيره أجدر بها، بناء على معاييرهم في التفضيل والتقييم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [سورة الزخرف: ٣١]. بينما كان اصطفاء النبوة، واختيار الرسالة، يجري على معيار غير معيارهم: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٤].

وربنا سبحانه لا يفضل أحدًا لموهبته فحسب، بل يفضله بما يكنه في قلبه من معاني الإيمان والنقاء، وما يقدمه من أعمال البر والعطاء: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥)﴾ [سورة التوبة: ٥٥].

والمجتمع المسلم عليه تبعة ومسؤولية في مراجعة معاييره بين الفينة والأخرى، وأن يكون معياره في التقديم والتفضيل معيارًا موافقا لما يحبه الله ورسوله، وأن نتباعد عن المعايير الجاهلية التي تقدم الرجل لماله أو نسبه أو غير ذلك. وفي معيار التقديم والتقييم قوةٌ بالغة في صرف الناس إلى ما يوجبه هذا المعيار.



وأكبر تفضيلا

صليت بالناس المغرب ذات مرة، في مسجدٍ قريب، فلما التفت بعد الصلاة رأيت شيخا كبيرا عرفه الناس بصلاته، وملازمة المسجد حبا ورَغَبا، وهو على هذا الحال عمرا مديدا. لم يكن من أصحاب المال والجاه، وفي آخر الصفوف وجوه القوم من أهل الغنى والجاه، يُتمُّون صلاتهم ! حدثتني نفسي حينها: لو انكشف لنا حجاب الغيب، واطلعنا على منازل الناس في الآخرة، أين سيكون هذا الشيخ الكبير الذي نأسى لفقره وحاله، وأين سيكون غيره من أهل الجاه والغنى؟! ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)﴾ [سورة الإسراء: ٢١]. وكأنما انكشف لي وقتها كم نحن في لهو ولعب، وكم نحن في غفلة عن حقائق الآخرة وجاهها ومنازلها العالية.

هزني هذا الموقف واستشعار التفاوت الكبير بين الناس في دنياهم، والتفاوت الأعظم بين الناس في أخراهم، والسعيد من فطن لجاه الآخرة ومنازلها. إن سبقوك على دنياهم.. فسابقهم على آخرتك، وتذكر أن منزلتك في الدنيا محدودة بهذا العمر القصير، والغبن كل الغبن أن تفوت

عليك منازل الآخرة.. حيث البقاء والخلود. واجعل من تفاوت الناس في الدنيا عظة وتذكرة، لتفاوتهم العظيم في الآخرة.



الهوى عمى

يتسلط الهوى على البصيرة حتى يغدو صاحبه أعمى لا يبصر الحجج والحقائق ولا ينتفع بها، ولو كانت عظيمة مثل انشقاق القمر: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا (وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) ﴾ [سورة القمر: ١-٥].

لقد تسلط الهوى على فرعون حتى عمي عن كل الحجج والآيات، وحارب موسى وقومه، حتى رأى البحر ينفلق لموسى ومن معه، ولم يستبصر ولم ينتفع وتبعه بعد ذلك يحسب أنه قادر عليه ! ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ [سورة الأعراف:١٤٦].

مع الهوى.. لن ينتفع الإنسان بسمعه ولا بصره ولا عقله، ولن ينتفع بعلمه: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ

سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) ﴾ [سورة الجاثية: ٢٣].

نعوذ بالله من الهوى والعمى، ونسأله سبحانه البصيرة والهدى، و﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧) ﴾ [سورة الكهف: ١٧].



ألهاكم التكاثر

عن ماذا ألهانا هذا التكاثر ؟! ألهانا عن الحقائق والمصائر، التي تنكشف للعبد حين يزور المقابر، فيحضر الأجل، ويفوت العمل، وينكشف الغطاء، ويلاقي الجزاء، ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾ [سورة ق : ٢٢].

التكاثر لهوٌ خطير، يستجر قدم العبد، فلا يزال يُلهي العبد، ويُلهِي الجماعة، حتى يتفارط العمر، وتنتهي المهلة، ويندم حيث لا ينفع الندم. إن كل ما يشتغل به العبد لهوٌ ولعب، إلا ما ينفعه ويرفعه يوم يزور المقابر. وهذه أعمار الناس قد ذهبت في لهو التكاثر، فهو يكد ويتعب، ويلاحق

الدرهم والدينار، لا ليسد رمقه من جوع، ولا ليستر جسده من عري، إنما يسعى خلف المال؛ حتى يكون ماله "أكثر" من مال غيره، وولده "أكثر" من ولد غيره، ثم لا تزال أيامه تتفارط وهو في سكرة التكاثر والتفاخر، ولا يفيق من سكرته هذه إلا إذا غادر إلى داره الآخرة، حيث العلم والحقائق: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) ﴾ [سورة التكاثر:٣-٤].

إن الدار الدنيا دار لهو ولعب، وتفاخر وتكاثر، إلا من اتقى ربه ونهى النفس عن الهوى، أما الدار الآخرة فهي دار العلم والحقائق، والجزاء والحساب: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ (وَتَكَاثُرٌ) فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) ﴾[سورة الحديد:٢٠].

لقد استجمع (التكاثُر) أسباب (الإلهاء)؛ فإن مادته وميدانه أهواء النفوس وشهواتها من الأموال والأولاد ونحوها، ثم يزيد الإلهاء حين تدخلها المنافسة والمغالبة، فتسترسل النفوس وتستفرغ وسعها وطاقتها، رغبة في السبق والغلبة. ثم يكتمل الإلهاء حين تخضع هذه المنافسة لمعيار الكثرة والكم والأرقام التي لا تتناهى. فيظل هذا التكاثر يلهو بأصحابه

ويلهيهم، حين يختار لهم ميدان الشهوة، ويدفعهم بالمنافسة، ويحكم هذه المنافسة بالكم والكثرة، أهواءٌ بعضها فوق بعض، تجتمع كلها في هذا "التكاثر".

وفي دين الله تعامل آخر مع شهوة الأموال والأولاد ونحوها، ومع المنافسة، ومع الكثرة. تعامل آخر يختلف عن قانون "التكاثر" الملهي عن الحقائق والبصائر.

أما الشهوات فقد هذبها وزكاها، فلم يستأصلها بالكلية، ولم يسترسل معها بالمنافسة والمكاثرة والمفاخرة. والمؤمن مع هذه النعم يفكر في الشكر لا الفخر: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)﴾ [سورة التكاثر: ٨].

وأما المنافسة فقد أباحها الله، واختار لها ما يوصل إلى رضوان الله، ونعيم الآخرة. نعم هناك منافسة ولكن في أي شيء تكون المنافسة؟! قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦)﴾ [سورة المطففين:٢٦].

إن المنافسة طاقة عجيبة تبعث على العمل وتجويده والاستمرار فيه، وربما كان في المنافسة مالٌ للفائز، والأصل حرمة ذلك إلا ما كان فيه إقامة الدين ونصرته، وفي الحديث: "لا سبق إلا فى نصل أو خف أو حافر". على تفاصيل معروفة عند الفقهاء.

وأما الكم والكثرة، فإنها في عمل الخير مطلوبة، لكنها تابعة وليست

متبوعة. إن الكم ليس المعيار الأهم في التفوق والسبق، كما هو عند الكفار: ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ (أَكْثَرُ) أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) ﴾ [سورة سبأ: ٣٥].

بل السبق بالنية الصالحة، والعمل وفق الطاقة والاستطاعة. وفي هذه القصة درس وعبرة: روى أبوداوود والترمذي وغيرهم، عن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ : أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالًا، فَقُلْتُ : الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا. قَالَ : فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ ؟ "، قُلْتُ : مِثْلَهُ، وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: " يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ ؟"، قَالَ : أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. قُلْتُ : وَاللَّهِ لَا أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا . قَالَ الترمذي: هَذَا حَسَنٌ صَحِيحٌ. إن القصة لا تكشف الرقم الذي تصدق به أبوبكر رضي الله عنه، ولا الرقم الذي تصدق به عمر رضي الله عنه، لكنها تكشف لنا أن المعيار في السبق والتقديم كان في امتثال قول الله: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾[سورة التغابن:١٦]. وقد تصدق عمر بنصف ما يستطيع، أما أبوبكر فقد تصدق بكل ما يستطيع، فسبق بذلك ولو ما قدمه من مال أقل جمعا وعددا. ويفسره الحديث الذي رواه النسائي وابن حبان والحاكم وحسنه الألباني، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: "سبق درهم مائة ألف درهم: رجل له درهمان أخذ أحدهما فتصدق

به، و رجل له مال كثير فأخذ من عرضه مائة ألف فتصدق بها" .

إنه حري بنا ونحن نعيش في هذا الزمان، الذي قامت فيه سوق التكاثر والتفاخر حتى في أعمال البر والتقوى، أن نعود إلى هذه السورة الكريمة، وأن نجدد في قلوبنا معانيها، ونعود لمعايير الشريعة في السبق والفوز، وأن نستيقظ للحقائق والمصائر، قبل أن نزور المقابر. نسأل الله السلامة والعافية.



عبادة نهي النفس عن الهوى

ولو أُبيح لك كلُّ شيء سوى "شجرةٍ واحدة".. لن تستغني عن هذه العبادة ! ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١) ﴾ [سورة النازعات: ٤٠- ٤١]. هذه المعركة لا تضع أوزارها حتى يغادر الإنسان حياته الدنيا، أما قبل ذلك "فليس بعد". ولذلك يستنزل المؤمن هداية ربه وعونه في كل ركعة: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) ﴾ [سورة الفاتحة:٥-٦] .

وفي معركة الهوى لن يسلم المسلم من الخسارة، فإنه يخسر في بعض معاركها ولابد، فتنشأ معركة التوبة والأوبة. يخسر في هوى القلوب

غرورا أو جزعا أو غير ذلك من الذنوب القلبية، ويخسر في هوى الجوارح، لكن المؤمن أبدا يُحدِث بعد الذنب توبة، ويُتبع السيئة الحسنة تمحها. هذه الحقيقة تعطي المؤمن يقظة وقوة، وهو يستشعر أنها معركة دائمة، وأن الخسارة الحقيقية هي الاستسلام وتأخير التوبة.

إن عبادة نهي النفس عن الهوى هي التي تكشف الفرق بين عبادة الملائكة الذين لا يسأمون ولا يستحسرون، وليس في نفوسهم هوى يغالبهم في طاعة الله، وبين عبادة البشر الذين يغالبون أهواءهم، وينتصرون عليها بعدم الذنب تارة، وبالتوبة منه تارة أخرى.

فإذا بلغ المؤمن جنة ربه، توافق هواه مع نعيم ربه، وفتحت له خزائنها وخيراتها: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢)﴾ [سورة فصلت:٣١-٣٢].



وهو الذي يقبل التوبة

كل شيء يذكّره بالتوحيد.. ذنوبُه وجرائره التي اقترفها هي الأخرى تذكره بالتوحيد:

﴿إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت﴾.

إن صلاة الجنازة مشهد من مشاهد التوحيد، ولا أنسى ذلك المشهد المهيب والناس تسوي صفوفها من أجل الصلاة على أحد المسؤولين الكبار، وقد كان ملأ السمع والبصر، ثم ترى كل الإمكانات عاجزة أن تقدم له شيئا في رحلته إلى الآخرة، إلا الدعاء: ﴿إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت﴾.

ما أجمل التوبة بعد الذنب، وما أجمل التوحيد حين يخالط قلب التائب المنيب، وهو يوقن أنه لا يغفر الذنب إلى الله. بمثل هذا الإيمان يغفر الله الحوبة، ويقبل التوبة، ويقبله في عباده الصالحين.



الأب إبراهيم عليه السلام (3/1)

حبُّ الأبناء والذرية فطرةٌ مغروسة في قلب إبراهيم عليه السلام، وهذه الفطرة لم يخلقها إبراهيم في نفسه بل خلقها العليم الحكيم سبحانه:

- حين أخبره ربه بأسعد خبر وأعزه: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾"تحركت فطرته في حب الأبناء والذرية؛ فخاطب ربه" ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [سورة البقرة: ١٢٤].

- وحين أرسل الله بعض ملائكته لإبراهيم بالبشرى، كانت البشرى التي اختارها الله له هي الأبناء والذرية، وربه أعلم بما في نفسه من التشوف والحب لهذه البشرى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨)﴾ [سورة الذاريات:٢٨].

- وفي مقام الشكر وهو مقام جليل عُرِف به الخليل: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [سورة النحل:١٢١]. في هذا المقام يتذكر نعمة الولد ويشكر ربه، ويُخلِّد الله شكره في أشرف كتبه: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩)﴾ [سورة إبراهيم: ٣٩].

- لقد كان إبراهيم يدعو من قبلُ بأن يهبه الله الولد، واستجاب له ربه، ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٩].

هذه الفطرة والعلاقة والحب بين إبراهيم عليه السلام وولده وذُرِّيته تستحق أن نتوقف عندها بالتأمل والتفكر؛ فخير الآباء هو الخليل إبراهيم -عليه السلام-، فنعم الأسوة ونعم القدوة، فهو أبٌ لإسماعيل وإسحاق وذريتهما، وأبٌ لرسولنا الكريمﷺ، وحين أثنى ربنا على اسم الإسلام وحسن اختياره، نسب ذلك لإبراهيم، واختار لإبراهيم صفة الأبوة دون غيرها من الصفات: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [سورة الحج: ٧٨].

وفي معنى الأبوة والذرية اختلف حال الخليل إبراهيم عليه السلام عن حال الخليل محمد ﷺ، فبينما رسولنا الأكرم ليس أبًا لأحد من رجالنا:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [سورة الأحزاب: ٤٠].

فإن إبراهيم الخليل أبو الأنبياء، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)﴾ [سورة مريم: ٤٩- ٥٠].

وفي قصة إبراهيم عليه السلام وتعامله الأبوي كثير من الفوائد والعبر، نكتفي منها بأربعة أمور:

١-لقد كان حبُّ الولد والذرية في قلب إبرهيم تابعًا لحب الله، كان حب الله هو إمام مشاعره وعواطفه، ومهما بلغ حب ولده وذريته إلا أن حب الله أعظم وأكبر؛ لقد أمره ربه أن يجعل زوجه هاجر وابنها إسماعيل في وادٍ غير ذي زرع، على خوفٍ وقلّة ومسغبة، فلم يمنعه حب الولد والشفقة عليه من الاستجابة لأمر الله. وفي صحيح البخاري وصف مؤثر للقصة، لمن تأملها بقلبه، وتخيل نفسه مع زوجه وابنه مأمورًا بهذا الأمر: "جاء بها (=هاجر) إبراهيمُ وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء. فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه

تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقا، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟! فقالت له ذلك مرارا، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا ! ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم حتى بلغ يشكرون".

ثم ابتلاه ربه البلاء المبين، بعدما كبر ابنه وبلغ معه السعي، جاءه أمر الله بأن يذبحه، وهنا تظهر المحبة والخُلَّة لله تعالى في قلب إبراهيم، حيث يكون أمر الله وحبه والتقرب إليه مقدم على كل حب وقرب: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾[سورة الصافات: ١٠٢]، وذِكرُ الطريق لهذا الأمر لا يخلو من فائدة، فهو رؤيا في المنام، ورؤيا الأنبياء حق، ولكنه لا يصل لدرجة الوحي عن طريق جبريل عليه السلام، فضلا عن كلام الله له كفاحا. جاء أمر الله إليه عن طريق الرؤيا في المنام، والأمر عظيم للغاية، ذبح ولده وفلذة كبده بعدما بلغ معه السعي ! ومن تذكر ابنه، وتذكر الذبح بالسكين علم أن هذا هو البلاء المبين. ومع ذلك قدم الخليل حبه لله على كل حب، وبمثل هذا أصبح إبراهيم خليل الرحمن: ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥) ﴾ [سورة الصافات:١٢٥].

ولا يكمل هذا الامتثال في ذبح الولد إلا مع محبة الولد والشفقة عليه، ومع ذلك يستجيب لأمر الله في ذبحه، فيكون حب الله أكبر. ومَن أحب التأسي بإبراهيم -عليه السلام- فلا يعاند فطرته وطبيعته في حب الولد وغيره، ولكن يكون ذلك كله تابعا لحب الله، ويكون حب الله في قلبه أكبر من كل محبوب. وكم يقول المسلم في يومه وليلته: "الله أكبر" ؟! إن هذه الكلمة ليست للّسان فحسب، بل هي تذكير وتأكيد لهذه الحقيقة الكبرى التي جاء الأنبياء لتحقيقها في العباد والبلاد..



الأب إبراهيم عليه السلام (3/2)

ومن فوائد قصة إبراهيم عليه السلام الأبويه وعِبَرها:

٢- أن النَّسَب وحده لا يُعوَّل عليه في النجاة الأخروية، وأن الله لا يمنح أحدا عِزَّ الدنيا والتمكين فيها لنسب أو حسب. ولو كان في الأنساب ما يملك المرء به التمكين في الدنيا أو النجاة في الآخرة لكان ذلك النسب هو نسب إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد سأل ربه لذريته حين أخبره بفضله وإمامته: ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ فجاء الجواب الرباني سنة ماضية لا تحابي أحدًا من

الخلق مهما كان قربه وفضله وإمامته: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾ [سورة البقرة: ١٢٤].

ومع وضوح هذه الحقيقة إلا أن الناس بعد ذلك ظلوا يراهنون على أنسابهم ويتّكلون عليها، فإنها تُعفيهم من وطأة العمل والمجاهدة، حتى ادّعت اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنه لن يعذبهم، فأعاد القرآن الحقيقة التي قالها لإبراهيم عليه السلام، وأنه لن ينجو أحد بنسب أو حسب، وأن الناس سواسية في ميزان العدل والمحاسبة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨)﴾ [سورة المائدة: ١٨].

وفي حياتنا اليوم نرى المسلمين أتباع إبراهيم عليه السلام في ضعف وشتات، يعانون من الظلم وتسلط الأعداء، والقيادة بأيدي غيرهم من الأبعدين عن دين ربهم، ذلك أن الله أجرى العدل على هذه الحياة، وأن من أخذ بأسبابها وجدّ واجتهد فيها، نال عزها والتمكين فيها، وأن الانتساب إلى الإسلام مع التفريط الظاهر في أسباب التفوق والقوة لا يغني عنّا من الأمر شيئا.

ومن مظاهر هذه السنة الربانية ما نراه اليوم في دول العالم، فإنه لا يعتمد نظام على تقديم الأكفأ إلا عزت الدولة وطال بقاؤها، فإذا اعتمدت

القرابة على حساب الكفاءة تسلل الضعف إلى أركانها، وفقدت أسباب عزها وبقائها، سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا.

٣- أن سبيل النجاة في الآخرة والعزّ في الدنيا يتحصل بالهمة والنية، والعمل بالأسباب لا الاعتماد على الأنساب، ومن هنا كانت تربية الأبناء والاهتمام بصلاحهم طريقا واجبا لكل من أحب الخير لأبنائه. وقد اجتهد إبراهيم عليه السلام في إصلاح أبنائه، فكان يدعو ربه لدينهم ودنياهم، وكان يجتهد في وصيتهم بالخير، ويربيهم على الاستسلام لأمر ربه وشرعه، ويشاركهم في أعمال البر والتقوى. فكان آلُ إبراهيم نورَ التاريخ وبهاءه، وظلت ألسنة الخلق تلهج بسيرتهم والسلام عليهم.

- لقد كان إبراهيم يدعو لأبنائه في صلاح دينهم: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥)﴾[سورة إبراهيم:٣٥]. ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠)﴾ [سورة إبراهيم:٤٠]. وبلغ دعاؤه لذريته البعيدة، حتى كان محمد ﷺ دعوةَ أبيه إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)﴾ [سورة البقرة: ١٢٨-١٢٩].

والدعاء خيرٌ وبركة ولا يُعرض عنه إلا غافل محروم.

- وكان إبراهيم يدعو ربه في صلاح دنياهم، وأمنهم وأُنسهم ورزقهم الطيب:

﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)﴾[سورة إبراهيم:٣٧]. وهذا يؤكد أن الاهتمام بالأبناء يشمل إصلاح الدين والدنيا، ولذلك جاء التوجيه النبوي لمن كان حريصا على آخرته بالبذل والصدقة، أنّ ترك الأبناء في غنى وعافية وجهٌ من وجوه الخير والمعروف. عَنْ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ : " كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُنِي وَأَنَا مَرِيضٌ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ : لِي مَالٌ أُوصِي بِمَالِي كُلِّهِ ؟ قَالَ : لَا، قُلْتُ : فَالشَّطْرِ، قَالَ : لَا، قُلْتُ : فَالثُّلُثِ، قَالَ : الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ فِي أَيْدِيهِمْ وَمَهْمَا أَنْفَقْتَ، فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ حَتَّى اللُّقْمَةَ تَرْفَعُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ وَلَعَلَّ اللهَ يَرْفَعُكَ يَنْتَفِعُ بِكَ نَاسٌ وَيُضَرُّ بِكَ آخَرُونَ " رواه البخاري ومسلم.

وأتباع إبراهيم اليوم يعانون ضعفا في دينهم ودنياهم، وينتظرون إصلاحًا يتأسّى بهذا النبي الكريم في الاهتمام بأمر دينهم، وتطوير دنياهم، حتى يكونوا كما أحب إبراهيم مخلصين لله وحده في عبادتهم،

بعيدًا عن الشركيات والخرافات، التي أضلت كثيرا من الناس، عامرة مساجدهم بإقامة الصلاة، ويعيشون في أمنٍ وأُلفة ورزقٍ واسع.



الأب إبراهيم عليه السلام (3/3)

ونختم بهذا المقال الحديثَ عن الفوائد والعِبَر المستنبطة من (أبوّة) أبينا إبراهيم عليه السلام. والحقُّ أن إبراهيم الخليل خير من نتأسى به في الأبوّة؛ فإن الله قد اختاره إمام هدى، ورضيه لنا أسوة وقدوة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ [سورة الممتحنة: ٤]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)﴾ [سورة النحل: ١٢٣]. ومن ائْتمَّ بإبراهيم واتبعه واقتفى أثره، فبِأمر الله ورضاه قد اتبعه، فإن الله قد اختاره واصطفاه إمام هداية لمن جاء بعده: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [سورة البقرة: ١٢٤].

ولن نحقق معنى هذه الآية في قلوبنا حتى نعيد النظر في سيرته القرآنية مرةً بعد أخرى، ونملأ بها قلوبنا كأننا نراها رأي العين، ونتجاوز الإلف والعادة في هذه القصة، لنسمعها وكأننا نسمعها أول

مرة، ونتعامل مع أحداثها كما لو كنا مكانه، ثم نتعبد لله بحبه والتأسي به. كيف يكون الخليلُ إمامَنا ونحن نتتبع أقوال الحكماء في المشرق والمغرب أكثر من تتبعنا لحكمته؟! وكيف يكون إمامنا ونحن غافلون عن صوته حين يركع أو يرفع، أو يحب أو يكره ؟! إن الائتمام بإبراهيم شرف عظيم، لا يُنال بالظن والدعوى، فإن آثارَ خَطوِه ومسيره توصل إلى رضوان الله والجنة، والجنة لا تُدرك بالدعوى. وكم تخاصم القوم في إبراهيم وادّعوا أنهم أولى به، إلا أن الحقيقة لا تحابي ولا تجامل: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)﴾ [سورة آل عمران: ٦٧-٦٨].

نسأل الله أن يصطفينا في أتباع إبراهيم، المحبين له، والمتأسِّين بسيرته، فإنهم خير الأتباع، وفيهم الأنبياء والمرسلون، وعباد الله الصالحون.

ونرجع إلى ذكر الفوائد والعبر في (أُبوّته) ﷺ:

٤- وهي في قول الله حكاية عن خليله إبراهيم: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ (فَانظُرْ مَاذَا تَرَى)﴾ [سورة الصافات: ١٠٢]. فإبراهيم عليه السلام قد اجتهد في الدعاء لولده، واجتهد في تربيته، لكنه بعد ذلك لا يُجبره على امتثال أمر الله. فإن الإجبار ليس طريق الإيمان والعمل

الصالح، فالإيمان قرار ينبع من قلب المكلف، ولا يُقبل إيمان العبد حتى يكون طائعا مختارا. وقد عرف الناس في تاريخهم من يقهرهم على مذاهبهم وأديانهم بالحديد والنار، إلا أن الأنبياء وفي مقدمتهم إبراهيم عليه السلام لا يجبرون على الإيمان والعمل الصالح ولو كانوا أولادهم من أصلابهم. إنما هي الدعوة والإقناع والتأثير، فإذا آمن أحب الله إيمانه وقَبِله، ولذلك نجد في الآية الكريمة بعدما استجاب إبراهيم لأمر ربه، وشاور ابنه واستجاب، ثناء من الله على إرادتين مستقلّتين: ﴿ فَلَمَّا (أَسْلَمَا) وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [سورة الصافات:١٠٣].

يا تُرى ماذا كان سيصنع إبراهيم لو رفض ابنه الاستجابة واستعصى ؟! لن نستطيع الجزم دون خبر بيّن، ولكن يكفينا هنا طريقة الخليل في عرضه لابنه، فاحترم إرادته، وأناله شرف الاستجابة، فأخبر الله بإسلام الوالد وولده. وهذا معنى جليل في التربية على الإيمان والعمل الصالح. هذا محل اليقين، أما الظن، فيظهر أنه لن يجبره على الاستجابة، وقد رأينا من تعامل نوح مع ابنه ما يكشف تعامل النبي مع ابنه حين يعصي، قال ابن عاشور في تفسيره: "وليس إبراهيم مأموراً بذبح ابنه جبراً، بل الأمر بالذبح تعلق بمأمورين: أحدهما بتلقي الوحي، والآخرِ بتبليغ الرسول إليه، فلو قدر عصيانه لكان حاله في ذلك حال ابن نوح الذي أبى أن يركب السفينة لما دعاه أبوه فاعتُبر كافراً". ومسألة الإجبار على الإيمان والعمل الصالح مسألة كبيرة، تتعلق بصاحب المسئولية سواء كان أبا أو مديرا أو حاكما،

وهي بحاجة لبحث مستقل، ويبقى الأصل أن أمر الإيمان ليس طريقه القهر والجبر.

وكم نحن بحاجة إلى أن نتقن طريق التأثير والدعوة والإقناع مع أبنائنا في وقت أصبح المنع فيه متعسرا أو متعذرا.

٥- وهي في قول الله حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) ﴾ [سورة إبراهيم:٣٩].

وفي هذه الآية عزاء لمن تأخرت ذريته، وطال انتظاره ورجاؤه.. لا تحزن؛ فأكثر الأبناء بركة جاؤوا بعد طول انتظار. ألا يسرك أن تنتظر كما انتظر خليل الرحمن؟! وأن تدعو كما كان يدعو؟!

ولئن فرح غيرك بالولد والذرية فافرح أن شابهت الخليل في شوقه وتشوّفه ودعائه وطول انتظاره. لقد تأخر الولد على إبراهيم عليه السلام حتى استغرب خبر البشرى وهو المؤمن بربه وفضله: ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) ﴾ [سورة الحجر:٥٣-٥٦].

إن إبراهيم أسوة لمن جاءه الولد، وأسوة لمن تأخر عنه الولد، أسوة لمن

تمنى الأبوة، وأسوة لمن حصّلها. ومن تأخرت عنه الذرية فظل صابرا محتسبا، يدعو ربه، ويرجو فضله، فقد اهتدى بهدي إمامه إبراهيم، وعسى أن يكون من أتباعه المرضيين.



﴿وخيرٌ أملا﴾

قال الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا (وَخَيْرٌ أَمَلًا) (٤٦)﴾[سورة الكهف:٤٦].

يقول ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية: "يقول تعالى ذكره: المال والبنون أيها الناس التي يفخر بها عيينة والأقرع، ويتكبران بها على سلمان وخباب وصهيب، مما يتزين به في الحياة الدنيا، وليسا من عداد الآخرة ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ يقول: وما يعمل سلمان وخباب وصهيب من طاعة الله، ودعائهم ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه، الباقي لهم من الأعمال الصالحة بعد فناء الحياة الدنيا، خير يا محمد عند ربك ثوابا من المال والبنين التي يفتخر هؤلاء المشركون بها، التي تفنى، فلا تبقى لأهلها(وَخَيْرٌ أَمَلا) يقول: وما يؤمل من ذلك سلمان

وصهيب وخباب، خير مما يؤمل عيينة والأقرع من أموالهما وأولادهما".

إنهم كانوا يمارسون صورةً خاطئة من (الأمل)، وكانت هذه الصورة شائعة ذائعة، ولم يكن علاجُ ذلك محاربةَ الأمل بالكلية، بل توجيههم للصورة النافعة منه، فالباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا. وهذا منهج قرآني في عدم إلغاء المفيد النافع بسبب الممارسات الخاطئة، بل المجاهدة والعمل في التواصل مع الصور النافعة ولو كان الآخرون يتعاملون معها بصورة خاطئة.

إن إقامة الدين والدنيا تتضرر كثيرا حين يجنح المصلحون إلى المبادرة للمنع المطلق كلما شاعت ظاهرة سيئة، فيمنعون بذلك خيرا كثيرا وهم لا يشعرون. إن الخير المحض لا يكاد يوجد إلا في جنةِ الخلد، وخير الدنيا مشوبٌ بالباطل والخطأ والاستغلال، وعمل المصلح هنا هو الاجتهاد في الانتقاء والترجيح، وتغليب الخير على الشر. الصلاة والصيام والجهاد والعلم ونحوها من أبواب الخير هي سبيل أهل الجنة، ولا يخلو زمان ممن يمارسها رياء وسمعة لتكون طريقه إلى النار، ولا يخلو زمان ممن يتستر خلفها لنواياه السيئة، فهل نمنع ذلك الخير العظيم من أجل هذا الشر ؟!

إن هناك فلسفات دنيوية قامت على هذا المنهج الخاطئ في التصحيح والإصلاح، وهو محاربة المظاهر السيئة باستئصال مادتها بالكلية، فيمنعون بذلك خيرا عظيما وهم لا يشعرون. إن الجشع والاحتكار

والتفاوت الكبير بين الطبقات والظلم الواقع على الكادحين، ليس مبررا صحيحا لمعاندة الملكية الفردية كما صنع الاشتراكيون، فإن في معاندة الطبيعة الإنسانية منعا لكثير من أسباب التطور والحياة.

وفي الواقع أمثلة كثيرة لتفكير خاطئ يتجه إليه بعض المصلحين، حين يضيقون ذرعا بمظاهر سيئة فيتجهون لاستئصال هذه المظاهر ولا يدرون أنهم بذلك منعوا خيرا عظيما. مثال ذلك: التنازع والخلاف الذي يُضيع جهد الأمة ويمزق مشاريعها، فيتمنى بعضهم الوحدة والاجتماع ومنع الخلاف بالكلية، ولا ينتبه هؤلاء أنهم بذلك يمنعون خيرا عظيما لا يتحقق بدون الخلاف، فكان الأولى أن يُمنع التنازع ولا يُستأصل الخلاف. والمقصود أن المظاهر الخاطئة لا تُداوى بالاستئصال بل بالتصحيح والعناية والمجاهدة. لا سيما ما كان غريزة وفطرة في الإنسان، فإن الله لا يخلق ذلك في العبد إلا لحكمة وفائدة، واستئصالها بالكلية جهل بالحكمة، وإضرار بالخلقة.

نعود للأمل، هذه الطاقة العجيبة وراء العمل. فلن نجد عملا عظيما إلا ومن ورائه أمل عظيم.

ومن الحكمة ونحن نبحث عن النهضة والتفوق، والسبق والريادة، أن نولي هذه الطاقة عناية عظيمة، وأن نستدرك ما هو موجود في خطابنا وطرائقنا مما يضر بهذه الطاقة ويضعفها. الأمل هو المنبع الذي يروي

عطش العاملين، ويحافظ على حياتهم رغم بُعد الشُّقة وعظيم المَشقَّة. الأمل هو الطاقة الدافعة لنهضة الفرد والجماعة والأمة. حتى ذلك الذي يذهب إلى وضوئه ويتجه إلى محرابه، هناك أمل أيقظ همته، وذلك المنفق من عزيز ماله هناك أمل يساعده على بسط يده: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠)﴾ [سورة فاطر :٢٩-٣٠].

لا يصبر على وعثاء الطريق إلا أصدقاء الأمل، وخير الآمال ما كانت في الطريق إلى الله، وخير الأعمال ما ابتُغي بها وجه الله. بدون الأمل كل الطرق تبور.. حتى الطريق إلى الغفور الشكور !

ولِلأمل عُمْلةٌ مزيفة لا يتجه إليها الثناء، وهي ما كان منفصلا عن العمل، تعمل عمل المخدر والأوهام، هذا ليس أملا بل هو من أماني الغرور: ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤)﴾ [سورة الحديد:١٤].

إن إقامة الدين وعمارة الأرض هدف عظيم، ولا تنتهض الهمة لذلك بغير أمل عظيم. ولا يوجد ما يمنع من الأمل في المال وزينة الحياة الدنيا إذا كان ذلك (تابعا) للأمل الأعظم في الباقيات الصالحات، وابتغاء

مرضات الله سبحانه.

وما أعظم المنة لمن احتسب النية في إيقاظ الأمل، وانتقى لنفسه وأحبابه وأمته خير الآمال وأزكاها.

وفي الحديث القدسي: "قال الله: أنا عندَ ظنِّ عبدي بي" رواه البخاري ومسلم.



جدل المقاصد

في التعامل مع النص الشرعي سيظل الجدل بين أهل المقاصد وأهل الظاهر. وهناك من يغلو في اتباع المقاصد حتى يجور على النص نفسه، وفي المقابل هناك من يغلو في اتباع الظاهر حتى يحقق نقيض مقصود الشارع. لا نحتاج كثيرا من التأمل حتى ندرك خطأ الغلاة من أهل المقاصد وأهل الظاهر. ولكن بين هذين الغلوين نحن بحاجةٍ لكثير من التأمل والاجتهاد، حتى نحافظ على النص الشرعي في ظاهره ومقصوده. ويبقى اجتهاد الصحابة رضي الله عنهم مرجعية لهذه الاجتهادات، نعاير به اجتهادنا ونصحح به مسيرتنا. وكثيرٌ من الهاربين عن أحكام الشريعة يتخذون المقاصد بابًا للهروب من تكاليف الشريعة، ويزعمون أنهم يحافظون على مقاصدها. وربما وجدوا في غلو أهل الظاهر ما يروِّج

ضلالهم ويغري به. وقد لفت انتباهي في سورة التوبة أن هذا المسلك قديم قبل رسالة محمد ﷺ، وأنه باسم المقاصد يتم التخفف من أحكام الشريعة آنذاك، ويحسبون أنهم مازالوا متمسكين بها. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)﴾ [سورة التوبة: ٣٧].

فقد شق على هؤلاء الامتناع عن القتال في بعض الأشهر الحرم، فأصبحوا يؤخرونها ويجعلون شهورا مكانها، ويرون أنهم قد التزموا بالحكم ماداموا قد وافقوا الحكم وهو تحريم أربعة أشهر. هذا التعامل هو من جنس الغلو في المقاصد حتى يجور على النص والحكم ذاته. كما لو أراد أحدهم أن ينقل رمضان الموافق للحر، لشهر آخر يوافق البرد، ويرى أنه بصيامه ذلك الشهر قد التزم بحكم الشريعة. لقد سمى الله هذه الطريقة زيادة في الكفر، وضلالا، وتزيينا لسوء الأعمال. فنأخذ من هذه الآية أن التهرب من أحكام الشريعة باسم المقاصد قديم بقدم البشر والأهواء. وأن التعامل بمقاصد الشريعة له منهج وضوابط وإلا أصبح بابـًا للتفلت من أحكام الشريعة مع التزيين والتلبيس الذي يسكت الضمير وألمه.



﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾

يفقد الباطل فتنته وتأثيره ما لم يكن معه شيء من الحق يُلبِّس به. الباطل المحض لا يَرُوج على أكثر الخلق، فإن الإنسان بخِلقته وفطرته يحب أن يرضى عن اختياره وموقفه، والباطل المحض لا يمنحه هذا الرضا. وفي القرآن جاء النهي واضحا بيّنا: "وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ" [سورة البقرة: ٤٢]. وهذا النهي يفيد المؤمن في خاصة نفسه ودعوته، وفي تعامله مع الدعوات الأخرى.

أما خاصة نفسه ودعوته: فيكون على حذر دائم، ويقظة مستمرة أن يلبس الحق بالباطل، فإنه إن خفي هذا الخلط والتلبيس على بعض الخلق فإنه لا يخفى على رب الخلق سبحانه، وسيجازيه مجازاة الضال المضل. وبعض الذين يتورّطون في مواقف ضالة، من المنتسبين للعلم والدعوة، لا يكاد يكاشف نفسه أو غيره بهذا الضلال، بل يلبس هذا الباطل ببعض الحق، حتى يهدأ ضميره، ويحسب أنه على شيء. ثم يغري الناس باتباع باطله، واختيار موقفه. وربما يَرُوج الباطل بما معه من الحق، وهذا هو التلبيس والتضليل والعياذ بالله. ثم يتمم تلبيسه بتتبعه لأخطاء خصومه وهفواتهم، ولا يدري أن ما معه من حق، وما تتبعه من أخطاء خصومه

لا يشفع له عند ربه في الباطل الذي يريد أن يخفيه بهذا الصنيع.

ومن العجيب أنك لا تجد موقفا ضالا، أو ظلما بيِّنًا في داخل العالم الإسلامي، إلا وجدت معه بعض المُعمَّمين من المتسبين للعلم والدين!

لقد حيرتني بعض المواقف وأنا أشاهد بعض العلماء يختارون لأنفسهم موقفا في غاية الظلم والضلال، كمن ينحاز ويدافع عن ما يفعله النظام النصيري في الشعب السوري! إن شراء الذمم وحده لا يكفي في تفسير المشهد! وحين تسمع لحديث بعضهم وتبريره يتكشّف لك معنى الآية: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [سورة البقرة: ٤٢]، معه بعض الحق، فامتطاه ليصل به إلى الباطل، وهو في صنيعه هذا يحاول أن يقنع نفسه قبل أن يقنع الآخرين، حتى إذا تطاول به الزمن أَلِف الموقف واطمأنّ إليه. إن هذه الآية تخص أهل العلم أكثر من غيرهم، فإن في تلبيسهم إفساد كبير.

ومن اتقى الله وخاف مقامه بين يدي ربه، كان من هذا التلبيس على خوف وحذر، فإن له في النفس خفايا وزوايا، وله عمل في دهاليز النفس البشرية يطّلع عليها من يعلم السر وأخفى: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥)﴾ [سورة القيامة: ١٤-١٥].

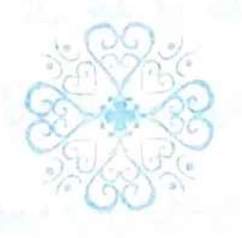
ألا تعجب أن كل فرقة ضالة، وكل جماعة ظالمة، لها من الحديث ما تدافع به عن موقفها، وتجادل به عن اختيارها؟! إن عامة ما يقال هنا

هو من تلبيس الحق بالباطل، ومن آمن بالله واليوم الآخر علم حاجته لمكاشفة النفس، وعرضها على ميزان العدل والحق دون خلط أو تلبيس.

هذا ما يتعلق بالمؤمن في خاصة نفسه ودعوته، أما ما يتعلق بالآخرين، فإن الآية تكشف لنا أنه قد يأتي مع الباطل بعض الحق، والمنصف لا يحمله ذلك الباطل على إنكار الحق الذي معه، فيقف في الجملة ضد هذا التلبيس، فإذا جاء التفصيل قَبِل الحق ولو كان مصدره ذلك الملبس الضلّيل. وهذا مقام رفيع من التجرد للحق، والتعالي عن العاطفة والتعصب والأحكام المجملة. فالمسلم مع كرهه لليهود وشركهم، لا يكره من يعظمه اليهود -موسى عليه السلام- وتعظيم اليهود لموسى عليه السلام لا ينتقص من حبِّنا له شيئا. وأولئك المغرضون الضالون في كل زمان ومكان يمكن أن تجد في كلامهم بعض الحق يتشبثون ويلبسون به، فالكره والضلال والمقاصد الرديئة لقائل هذا الكلام ليست كافية لرفض الحق الذي معهم، ومن رفضه من أجل قائله فقد سقط في هواه، وشابه ذلك الملبس الضليل في تقديم هواه على اتباع الحق ! كل حق يقوله المبطلون فنحن أولى به. وقبولنا لذلك الحق يُضعِف تلبيسهم، ويجرّد باطلهم، ويجدد انحيازنا للمبدأ والحق، وليس للتعصب والهوى. وما لم يحافظ الإنسان على ذلك، فإنه سيترك كثيرا من الحق، وسينجر إلى كثير من الباطل، بسبب الخصومة والمعاندة. فمهما تطاول اليهود على نبينا محمد ﷺ فلن ننسى فضل موسى ولن نقصر في حبه. رغم إنهم يتطاولون

على محمد تعظيما لموسى كما يظنون. نحتاج هذا المعنى كثيرا في خصوماتنا العصرية، حين تشتد الخصومة بين الفرق والجماعات والأحزاب، فكثيرا ما يرد الحقَّ أهلُ الحق بسبب تلبيس الخصوم وما معهم من باطل. وذلك يضعف أهل الحق في ميزان الله، وينتقص من أسباب تأييد الله ونصرته.

يبقى هنا أن يتذكر الشاب المسلم وهو يستمع لمشايخه وعلمائه أنه ليس من بينهم معصوم عن تلبيس الحق بالباطل، وهذا يؤكد له مسؤوليته أمام الله في اتباع البرهان والحجة والسلطان، وألا يترك نفسه كالميت بين يدي مغسله، كما يقال، بل يدقق ويحقق، ويجتهد وسعه، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها.



لا تيأس

فقد كان موسى هائما على وجهه، هاربا خائفا.. ولم يكن يدري، أن الأيام تخبِّئ له الشرف الأعظم: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣)﴾[سورة طه:١٣]. لقد كان ليوسف مكان على عرش مصر، لن يصل إليه وهو ثاوٍ عند أبويه ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١)﴾

[سورة يوسف:٢١]. لقد بقي لنا من قصة موسى صيام عاشوراء، يجدد الآمال في قلوبنا، ويسلي المظلومين، ويذكرهم أن فرج الله أقوى من كل الفراعنة. إنه يوم شكرٍ وفألٍ وأمل. وبقيت الرؤيا الصالحة من قصة يوسف -عليه السلام- تنتصر للأمل وسط الكربة. لحكمةٍ يعلمها الله.. ابتدأ الله قصة يوسف برؤيا صالحة، كانت له ولأبيه عزاء وسلوة وقت الغربة والكربة. وفي الحديث: "لم يَبْقَ من النُّبُوَّةِ إلا المُبَشِّراتُ . قالوا : وما المُبَشِّراتُ ؟ قال: الرؤيا الصالحةُ" رواه البخاري.



الصيام.. لماذا ؟

منذ أن وعيت وأنا أسمع في حكمة الصيام هذه الآية الكريمة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) ﴾ [سورة البقرة :١٨٣]. وكنت لا أتبيّن معناها ومغزاها ؟! فلما نظرت إلى المعركة الدائمة في هذه الحياة، وهي شرط النجاح والفلاح لهذا الإنسان، فإذا هي معركة بين (الهوى، والإرادة).

ولن تجد نجاحا في دنيا أو آخرة إلا بعد أن يخوض هذه المعركة الطويلة المضنية، ولن يبقى أحد في نجاحه وفلاحه إلا استمر منتصرا

في معركة الهوى والإرادة. هنا غرفة العمليات لكل ما تراه عينك من فوز أو خسارة. ذلك التاجر الذي نجح في تجارته كان في ميدان المعركة كل صباح، هواه يأمره بالنوم، وإرادته تأمره بالعمل، ولو أطاع هواه ما كسبت تجارته. وذلك الطالب الخرّيج المتفوق على زملائه، والمحتفى به من أهله وأصحابه، ما كان له أن يذوق هذا النجاح، لولا انتصاره في معركة الهوى مع الإرادة، فبينما بعض زملائه يطيعون أهواءهم في لهو ولعب، وحديث مسترسل لا يعود عليهم بالنفع والفائدة، كان هذا المتفوق يزمُّ هواه، ويطيع إرادته، ويجبر نفسه على اختيار الجد بدل اللعب، والمذاكرة بدل الكسل. وتلك الدولة التي تفوقت في اقتصادها، وأحكمت قوتها، وأتقنت إدارتها، لم تصل إلى ذلك إلا بعد انتصار يومي في معركة الهوى والإرادة.

ولذلك جاء الطريق إلى الجنة واضحا بلا لبس، مستقيما بلا عوج، يمكن أن تختصره في هذه الكلمات المعدودة: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١)﴾ [سورة النازعات: ٤٠-٤١]. هذا المفتاح الذي تفتح به جنات الدنيا والآخرة: الانتصار في معركة الهوى.

إن الهوى مع الغفلة والاسترسال يكبر ويقوى ويتسلط ويستبد، حتى يصبح إلها مطاعا إن أمر أو نهى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ

عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)﴾ [سورة الجاثية: ٢٣]. وهو مع اليقظة والتدريب والاستعانة بالله يهزل ويضعف، ويخاف ويرتبك، والصيام جاء دورة تدريبية عجيبة، تتكرر كل عام لكل من يشهد أن لا إله إلا الله، لتقوية الإرادة، وإضعاف الهوى؛ فيرى الماء الزلال في حال عطشه، فيأمره هواه أن يمد يده، وأن يروي عطشه، ثم يعصي هواه ويصبر على الظمأ، لأنه (يريد) ألا يشرب. ويتكرر بصره على طعام لذيذ، وهواه يأمره أن يتناول لقمة واحدة، فيعصي هواه لأنه (يريد) ألا يأكل، وهكذا الأمر في شهوته. ويظل الصائم بياض يومه في معاندة لهواه، وتمرد وثورة حتى يصبح هواه محكوما لا حاكما، وتابعا لا متبوعا.

إن كل شهوة لشراب أو طعام لا يستجيب لها الصائم، هي قوة يمدّ بها إرادته، وضعف يُلحقه بهواه، حتى تكون المعركة بينهما بعد ذلك لصالح الإرادة الصالحة، على الهوى الفاسد وتلك هي التقوى ! التقوى هي التي منعت يوسف حين خلت به امرأة العزيز في جمالها وشغفها وزينتها، وهو في فتوته وشبابه، في قصرها وحكمها يُرجى خيرها ويُخشى عقابها، ثم تقول له: هيت لك.. وتقول طبيعته: هيت لك.. وتقول هيبتها: هيت لك، وكأنه الصائم ينظر إلى كوب الماء البارد وهو على تعب وظمأ، فيقول: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ ! الله أكبر.. إن في جرس هذه الكلمة وحروفها

صوت النصر والظفر، بعد معركة شديدة مع الهوى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ [سورة يوسف: ٢٤].

إنها معركة الهوى حين يلبس ثوب الإغراء، تتبعها معركة الهوى حين أخذ عصاه الغليظة، ووجهه العابس، وهدد وتوعد: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢)﴾ [سورة يوسف: ٣٢]. ورُبَّ إرادة تهزم الهوى المغري وتجبن عن مقاومة الهوى المخيف، حيث السجن والإهانة وتشويه السمعة، لكن الذي أعانه في الأولى أعانه في الأخرى فاستعصم، وانتصرت إرادته، وقال كلمة المحارب النبيل في المعركة المقدسة: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [سورة يوسف: ٣٣]. إنه يقول ذلك وفي جسده ما في أجساد الناس من رغبة وهوى، وفي نفسه ما في نفوس الناس من حب للحرية وكره للسجن والصغار، لكنه لا يريد أن تنهزم إرادته الصالحة أمام هواه الفاسد. فتلك هي معركته التي يرجو فوزها ويخاف خسارتها. وصبر يوسف وثبت واستعصم حتى فرح وانتصر كما يفرح الصائم عند فطره: ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠)﴾ [سورة يوسف: ٩٠].



الصيام وهزيمة جالوت

أهم ما في التقوى أمران: إرادةٌ قوية تغلب الهوى وتحكمه، ومراقبةٌ لله تقود هذه الإرادة نحو مرضاة الله. فإن الإرادة وحدها دون أن تكون وفق مرضاة الله، قد تتحقق فيمن نجحوا نجاحا دنيويا وهم بعيدون عن مرضاة الله. فالنجاح في العلم أو الطب أو الهندسة أو الإدارة أو الاقتصاد أو الجيش يحتاج لإرادة قوية تغلب هوى الكسل والعجز والدعة والاسترخاء. وكثير من دول الغرب اليوم انتصرت إرادتهم وتفوقوا على من سواهم، لكنّ ذلك وحده لم يجعلهم من الأتقياء. فالتقوى تحتاج لانتصار الإرادة، وأن تكون هذه الإرادة تابعة لما يحبه الله ويرضاه، وأن تحضر المراقبة لله حبا ورَغَبا ورَهَبا. فإذا اكتمل هذان الركنان فقد اكتملت التقوى لصاحبها.

الصيام كتبه الله علينا من أجل التقوى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)﴾ [سورة البقرة:١٨٣]. ولِأهميته وبالغِ تأثيره كان من الفرائض الثابتة في الشرائع السماوية: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [سورة البقرة:١٨٣].

في المقال الماضي حاولنا أن نفهم كيف يكون الصيام طريقا للتقوى،

ورأينا أن الصيام عن الطعام والشراب والشهوة -مع ما في الطبيعة البشرية من الحاجة إليها والتشوّف لها- هو تقوية للإرادة، وإضعاف لسلطان الهوى.. وتلك هي التقوى أو من التقوى. وهنا نكمل محاولة الفهم والتفكر في كون الصيام طريقا للتقوى.

هناك قصة عجيبة تساعد على فهم الصيام وهدفه، إنها قصة طالوت، وقد بعثه الله ملكا لبني إسرائيل: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [سورة البقرة: ٢٤٧]. ثم جاءت الآية والمعجزة على اختيار الله له واصطفائه للمُلْك؛ التابوت تحمله الملائكة: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٨].

لقد كان طالوت ملكا ربانيا، على رأس جيش من بني إسرائيل، لملاقاة جالوت وجنوده. وكان جيش طالوت لا يعاني أبدا من ضعف القناعة بمشروعية المعركة وضرورتها، فهم الذي طلبوا وطالبوا نبيهم: ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٦]، وهدف القتال واضح بيّن : ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ [سورة البقرة: ٢٤٦]. وترسخت هذه القناعة بآية معجزة، لا تجعل للريبة مدخلا . وهنا طالوت يدرك بما آتاه ربه من

بسطة العلم أن التحدي هو تحدي الإرادة، وأن القناعة الفكرية وحدها لا تكفي، ولو تأكدت بالآيات والمعجزات، فلابد من إرادةٍ صادقة، وعزمٍ راسخ، ليتحول العلم إلى عمل، والقناعة إلى امتثال. أما العلم بدون عمل، والقناعة دون امتثال فهو سبيل المغضوب عليهم والعياذ بالله. فجاء الاختبار الرباني للإرادة، ليستبين أهل العزم والصدق: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ [سورة البقرة:٢٤٩] فاسّاقط أكثر الجيش أمام هذا الاختبار، وشربوا منه إلا قليلا منهم. إن من تنتصر إرادته على شهوة الماء جدير بأن تنتصر إرادته في ساحة القتال، حين ينتصر الأقوى إرادةً وليس الأكثر عددا. وحين تمايز أهل الإرادة والصدق والعزم، ساروا إلى جالوت وجنوده، فاحتاج القوم عند ملاقاتهم للتعلق بالله ومراقبته حبا ورغبا ورهبا: ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ (قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ) كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾ [سورة البقرة: ٢٤٩]. وهنا تستكمل التقوى أركانها، والعاقبة للمتقين: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة:٢٥١].

وفي الآية الأخرى يقول الله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [سورة البقرة:٤٥] وهي من هذا الباب، إرادة ومراقبة، والأوامر الشرعية

يُصدِّق بعضها بعضا: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ [سورة النساء:٨٢].

والصيام هو طريق التقوى، فإنه لا يوجد مثل الصيام يوقظ في القلب مراقبة الله، ويذهب للإرادة يقويها، وللهوى فيضعفه. "كُلُّ عَمَلِ ابنِ آدمَ لَه إلَّا الصَّومَ، فإنَّهُ لي وأنا أجزي بِهِ" (متفق عليه).

إن منع الجيش من شرب الماء لم يكن عقابا ولا تعنتا، بل كان لهدف نبيل، حتى يتمايز أهل الصبر والإرادة لمناجزة العدو والانتصار عليه. وجاءت الرخصة بغرفة ماء رحمة وتيسيرا، وهكذا فريضة الصيام ليست للظمأ والعطش والعنت بل هي لحكمة عظيمة ومقصد كريم، وفيها من الرخصة والتيسير ما فيها: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) ﴾ [سورة البقرة: ١٨٥].

أتذكّر هنا آية تشبه هدف الصيام، وتُذكّر بقصة طالوت، وجاءت بتفصيل وتصريح بديع: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾[سورة المائدة: ٩٤]. فهنا شهوة الصيد وإغراؤه، تطاله يده ورمحه لو أراد.. ولكن يتركه

المؤمن بغلبة إرادته على هواه، وذلك من أجل الله.. وتلك هي التقوى. والشواهد في ذلك كثيرة. والمقصود هنا أن نفطن لمقصود الصيام وحكمته، ونتعبد لله بالصيام، ونتعبد لله بتحقيق مقصوده وحكمته في مسيرة الحياة وإغراءاتها.

"من لمْ يَدَعْ قولَ الزورِ والعملَ بِهِ، فليسَ للهِ حاجَةٌ في أنِ يَدَعَ طعَامَهُ وشرَابَهُ" (رواه البخاري).

إن الهوى خصم عنيد ومراوغ، ويأتي للعبد بصورة الترغيب والترهيب، ويتوارى في المال والنساء والولد والمنصب والشهرة وغير ذلك. والانتصار على الهوى لا يكون باستئصال شأفته، فإن ذلك ضرب من الهروب والعجز، ولم تأت الشريعة بذلك، بل بالتحكم فيه حتى يكون تابعا لا متبوعا. وتبقى المجاهدة ما بقيت الروح، ويحدث المؤمن بعد كل زلة أوبة، ويُتبع السيئة الحسنة، ولن يستغني المؤمن عن عبادة نهي النفس عن الهوى، ولو أبيح له كل شيء إلا تلك الشجرة التي أكل منها أبونا آدم وأمنا حواء ! ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢)﴾[سورة طه: ١٢٢].



﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾

في ليلة السابع والعشرين من هذا الشهر الكريم، قرأ الإمام في المسجد النبوي هذه الآية: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) ﴾ [سورة المنافقون:٨].

لقد قرأها الإمام في "المدينة" التي أرادها المنافقون في تلك الحادثة.. قرأها الإمام في ليلة السابع والعشرين من رمضان، حيث يكون موطئ القدمين فيها غنيمة من فرط الزحام ! وهنا عبرةٌ وأيُّ عبرة !

إن "الأعز" هو الذي سينشر اللهُ دينَه حتى يأتيه الناس من كل أقطار الدنيا، يبتغون صلاةً في مسجده.. ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ !

إن "الأعز" هو الذي سيمتد مسجدُه حتى يأتي على بيوتات المدينة مِن حوله، ثم هو على سعته وساحاته لا يكفي لأتباعه.. ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ !

إن "الأعز" هو الذي سيظل عزيزا حتى في قبره.. هنا في المدينة، تأتي

الوفود بالحب والدموع، ليلا ونهارا.. ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ !

إن "الأعز" هو الذي سيجعل الله مسجده ومدينته في مَنَعة.. حتى من الدجال الأكبر، حين يعيث في الأرض الفساد.. ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ !

إن "الأعز" هو من يتسابق سادةُ الناس وضعفاؤهم على مكانٍ في روضته، أو إطعامٍ في مسجده. حيث سيكون الأمان والإيمان.. ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ !

ولو بعث الله هذا "الأذل" من قبره هو وأتباعه، ثم سمع تأمينهم في الصلاة، أو نشيجهم وبكاءهم في الدعاء.. سيرتد إلى قبره خوفا ورهبا ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ [سورة المنافقون: ٤]

صدق الله العظيم، ومن أصدق من الله قيلا، ومن أحسن من الله حديثا:

- ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) ﴾

[سورة المنافقون:٨].

- ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [سورة فاطر: ١٠].



الآمال النافعة والأوهام الخادعة

إن التفاؤل والأمل الشرعي يهدي إلى البر والعمل الصالح، فإذا كان الأمل يجعل صاحبه يسترخي عن التوبة ويقصر في الطاعة ويقيم على المعصية فإنه أملٌ خادع، لا يرضاه الله ورسوله ﷺ. الأمل المشروع هو ما أمدّ العبد بالصبر والقوة والنشاط للعمل الصالح. قال الحسن -رحمه الله-: "إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم؛ فأما المؤمن فأحسن بالله الظن، فأحسن العمل. وأما الكافر والمنافق، فأساءا الظن فأساءا العمل". فما زاد العبدَ برا وعملا صالحا فإنه من حسن الظن بالله، ومن الأمل النافع. وما أفضى للتكاسل عن الطاعات، والمداومة على السيئات فإنه أمل خادع، لا يهدي إلى البر ولا يوصل صاحبه إلى الجنة. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ [وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ] حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥)

﴾ [سورة الحديد:١٣-١٥]. وفي حق الكفار يقول الله: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا [وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ *] فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾ [سورة الحجر:٢-٣].

إن الأمل النافع وحسن الظن بالله هو الذي يعين على القيام بالعبادات ظنا بالله الكريم أن يتقبلها، وهو الذي يعين على الإنفاق والإحسان ظنا بالله الكريم أن يخلفها، أما المتشائم سيء الظن بربه، فلا تنبسط يده بالصدقة والمعروف: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ * وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٨].

التفاؤل النافع يجعل المؤمن في راحة بالٍ مهما أصابه، وعينُه تتخطى الصعاب وتقتنص الفرص. وربما استمعتَ لمتشائم فصدَق فيما يراه من العوائق والغصص، واستمعتَ لمتفائل وصدَق فيما يراه من الطرائق والفرص ! وكلٌ ينتقي من الواقع ما يناسبه ويشاكله، ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ [سورة البقرة: ٦٠] لكنك ستجد العين المتفائلة التي ترى الطرائق والفرص تستنهض صاحبَها للعمل، والعين التي ترى العوائق الغصص تثبِّطه عن النهضة والعمل. إن المؤمن يعلم أن فضل الله واسع فلا يقعد يأسا وقنوطا، وهو إن فعل ذلك فإنما استزله الشيطان بوعد الفقر. وكما يدعو التفاؤلُ والأملُ للعمل، فإن العملَ ذاته سر من

أسرار الأمل؛ فالشكاية والتذمر، والضيق والكدر، طحالب النفوس.. لا تنمو إلا في المياه الراكدة . إن الجلسة مع الناجحين والعاملين عافية للروح والأمل، والمتشائم يُعدِي بتشاؤمه وأكداره. إن أخطر اللصوص من تسلط على "تفاؤلك وأملك" وسرقه على حين غفلة منك . وأنفع الأصدقاء.. أملٌ يسكن فؤادك؛ كأنما هو الرجل الصالح يأخذ بيدك كلما عثرت قدمك، أو ضاق صدرك.

تفقد الحياة سرها وبهجتها إذا لم تنتظر فيها الجميل. الآباء يتابعون خطوات أبنائهم وفي قلوبهم الأمل، والفقير يخرج من ضيق حاله، ويسعى في طلب رزقه، ومن أمامه الرزق والأمل، ولولا الأمل وحسن الظن ما خرج الطائر من عشه، يحلق في السماء يبحث عن رزقه. ولولا الأمل ما خرج الأطفال من بيوتهم كما تخرج العصافير، يطلبون العلم، ويستعدون للمستقبل الجميل. ولولا الأمل ما عكف العلماء في مختبراتهم يبحثون عن الدواء بحث الموقن بلقائه.

التفاؤل والأمل.. مثل الشمعة المضيئة داخل نفسك، فحاذر عليها من أفواه محبيك كما تحاذر من أفواه شانئيك.



حيّ على الصبر والتصبّر

يخطئ من يظن أن الصبر فضيلةٌ مختصة بأهل الإيمان، بل هو خلق لازم لكل من يروم نجاحا وفلاحا في دينه أو دنياه. إن هذه الدنيا لا تصفو لأهل الحق بل هي المدافعة والمنافسة، وهم يتسابقون مع غيرهم على النصر والظفر بالصبر والتواصي به. وقد حكى القرآن حديث أهل الشرك والضلال، وهم يناوئون رسوله ﷺ ويحاربون دينه: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦)﴾ [سورة ص:٦].

إنهم يتمسكون بالصبر في معركتهم مع أهل الحق، ويتواصون به. وأهل الإيمان بالله واليوم الآخر أولى بهذا الصبر والتواصي به.

وقد جاء في السورة ذاتها خطاب للنبي محمد ﷺ بعدما ذكر المشركين وأسلافهم، وعنادهم وصبرهم: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧)﴾ [سورة ص:١٧]. حين يكون أهل الباطل أرسخ قدما في الصبر والمصابرة فسيغلبون، وما غلبوا أهل الحق إلا لتفريطهم في سنن النصر والغلبة. الإيمان لا يغني عن الصبر

بل يدعو إليه ويعين عليه.

إن الصبر ليس مرحلة عابرة بل صديق دائم يتذرع به أهل الحاجات لقضاء حاجاتهم. إنه يشبه صداقة الإنسان لإيمانه وأعماله الصالحة، ويشبه عنايته بموافقة الحق والصواب: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾[سورة العصر: ١-٣].

والصبر شجرة طيبة تنمو في النفس بالرعاية والعناية ﴿وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ﴾ [متفق عليه]. المؤمن لا يتمنى الشدة ولكن إذا ابتلي بها نظر إليها على أنها فرصة لعبادة الصبر والتصبر، والشدة تستخرج من القلب حقائقه، فإن كان من أهل الإيمان أظهرت إيمانه وتألهه لربه، وإن كان منافقا أظهرت خبث قلبه.

وفي يوم الأحزاب مرت الشدة الواحدة على الناس يومهم ذاك. أما أهل النفاق فأظهرت نفاقهم: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢)﴾ [سورة الأحزاب:١١-١٢]. وأما المؤمنون فظهر إيمانهم وصبرهم ويقينهم: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا

(٢٢)﴾ [سورة الأحزاب:٢٢]. فإنهم علموا أن طريق الجنة دونه ابتلاء ومحنة، فلما رأوها ازدادوا إيمانا وتسليما: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾ [سورة البقرة: ٢١٤]. ليس بالضرورة أن ينتظر العبد شدةً عظيمة يتصبر لها، بل في كل يوم تعرض لك فرص الصبر، في غم يصيبك، أو أذى يلحقك، أو شهوة تتزين لك، أو طاعة تحتاج معها للإرادة والصبر. هذه ليست مكدرات تفسد حياتك، بل هي فرص سانحة تعمر بها حياتك وتتزين بها أمام ربك. رُبَّ أذى يبلغك من عابر في الطريق وأنت تقدر عليه، فتحتاج للصبر تكظم به غيظك وتملك به نفسك.

متى سنتعبد لله بعبادة الصبر العظيمة ونحن نتحسس من كل أذى أو كدر. إن المزعجات والمكدرات تهتف في أذنك: حيَّ على الصبر والتصبر. فأجبها بالعزم والإيمان: لا حول ولا قوة إلا بالله. أعز الخلق على الله منحه ربه الفرصة تلو الفرصة للصبر والمصابرة، فآذاه قومه في نفسه، وكذبوه، واتهموه، ووضعوا السلى على رأسه وهو يقول بلسان حاله: لبيك يارب وسعديك. ويصبر ويصابر. وآذوه في أصحابه، واتهموه في عرضه، ومازاده إلا إيمانا وتسليما. فأحبه الله ورضي عنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)﴾ [سورة الأنفال:٤٦].

إن الأمم الأخرى تفوقت علينا بصبرها ومصابرتها، وكل نجاح تراه عينك صغر أم كبر وراءه صبر ومصابرة. وحقيق بالمؤمن ألا يسبقه الآخرون إلى فضيلة الصبر. ومن معاني الصبرِ الثباتُ على طريقك، وألا يستفزك خصومك عن طريقك، وألا تفقد اتجاهك وتفرط في مسيرتك، وتغرق في ردود الأفعال المستمرة. ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)﴾ [سورة الروم:٦٠].

المؤمن قاصدٌ في طريقه لا يسمح لأعدائه أن يوهنوا سيره، أو يغيروا قبلته واتجاهه. ومهما بلغ إيمانك فإن الصبر لن يفقد مرارته وآلامه، ولكن عاقبته الراحة والرضا. وكلما وجدت طعم الألم فاغمس فؤادك في هذا البلسم الشافي، فإن له أثر عجيب في تقوية النفس ومداواة جراحها: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)﴾ [سورة الطور:٤٨-٤٩].



السمعة غالية

تأخذ "السمعة" مكانا خاصا داخل النفس البشرية، وكثيرا ما يكون الأذى الجسدي أهون على الحرِّ من أذيته في سمعته؛ فالأذية في السمعة لها وجعٌ خاص يصل إلى خفايا النفس وأعماقها. هكذا خَلَق الله الإنسان، وتوجُّعه من أجل سمعته أمرٌ خلقي جبلي لا يخضع للإرادة والثقافة. ويظل الإنسان كذلك حتى حين يخرج من إطاره الشخصي الفردي إلى إطارٍ اعتباري مثل المؤسسة أو الشركة أو الدولة، فإن سمعة الشركة تبقى من أثمن ممتلكاتها، وكثيرا ما يختارها الخصوم والأعداء في حروبهم القذرة. قد يظن بعضهم أن الإخلاص لله يقتضي عدم الاكتراث بأمر السمعة، وهذا فهم خاطئ للإخلاص وفهم خاطئ للسمعة.

إن السمعة في هذا السياق ليست العمل من أجل الناس، إنما هي المصداقية والحق الذي يتألم الإنسان في تشويهه، السمعة هنا هي الحق المحفوظ في شرائع السماء، فلا يجوز قذف الإنسان والافتراء عليه بغير برهان. وأئمة المخلصين هم الأنبياء وكانوا يتألمون من أذيتهم في سمعتهم، وما انتقص هذا من إخلاصهم شيئا.

وفي هذه القصة دلالة عجيبة على عمق التأثر بشأن السمعة، فقد روى

البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَغْتَسِلُونَ عُرَاةً، يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى سَوْأَةِ بَعْضٍ، وَكَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام، يَغْتَسِلُ وَحْدَهُ، فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا يَمْنَعُ مُوسَى أَنْ يَغْتَسِلَ مَعَنَا، إِلَّا أَنَّهُ آدَرُ، قَالَ: فَذَهَبَ مَرَّةً يَغْتَسِلُ، فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ، فَفَرَّ الْحَجَرُ بِثَوْبِهِ، قَالَ: فَجَمَحَ مُوسَى بِأَثَرِهِ، يَقُولُ: ثَوْبِي حَجَرُ، ثَوْبِي حَجَرُ، حَتَّى نَظَرَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى سَوْأَةِ مُوسَى، فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا بِمُوسَى مِنْ بَأْسٍ، فَقَامَ الْحَجَرُ بَعْدُ، حَتَّى نُظِرَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَأَخَذَ ثَوْبَهُ، فَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاللَّهِ إِنَّهُ بِالْحَجَرِ نَدَبٌ سِتَّةٌ، أَوْ سَبْعَةٌ، ضَرْبُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام بِالْحَجَرِ ".

وكان هذا من أذيتهم التي أخبر بها سبحانه في كتابه الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ (آذَوْا مُوسَى) فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩)﴾ [سورة الأحزاب:٦٩]. فانظر كيف تأذى كليم الرحمن من هذه الفرية في حقه، وكيف دافع عنه ربه بمعجزةٍ خاصة !

وقبل موسى ذكر لنا القرآن قصة يوسف عليه السلام حين شوّه القوم سمعته زورا وبهتانا، واتهموه في أخلاقه بما هو منه براء. ودخل السجن مظلوما مغبونا، حتى أذن الله له بالفرج، وجاءه رسول الملك يعرض عليه الحرية ويعرض عليه القرب من الملك، فجعلها يوسف في كفة، وجعل سمعته في كفة فآثر نقاء السمعة على الحرية والجاه: ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ

فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠)﴾ [سورة يوسف:٥٠].

وكان بالإمكان أن يرجع الرسول إلى ربه ثم لا يعود، ويكون قد فاتته الحرية، وفاته القرب من الملك، ولا ضير.. فإن الكريم قد يصبر على أذى السجن والبعد والجفاء ولا يصبر على تشويه سمعته.

ويلٌ لمن يؤذي الناس في سمعتهم، ويلٌ له في الدنيا وويلٌ له في الآخرة. إن مواقع التواصل الاجتماعي اليوم تكتظ بالأذية والتشويه، ويسترخص كثير من الناس الكلمة العابرة يقولها في تشويه السمعة بلا بينة ولا برهان، بل وصل الأمر إلى تأسيس الشركات، وتوظيف الناس، وصرف الرواتب لهدف وحيد وهو استهداف بعض المسلمين وتشويه سمعتهم، ومن كانت له معرفة بالواقع يعرف قصة الأسماء الوهمية وما وراءها من أنشطة وأجندات، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)﴾ [سورة هود:١٢٣]

والطريق إلى الله طريق محفوف بالمكاره، والمؤمن هو الذي يحمي لسانه وبصره وسمعه من أذيةٍ بغير حق، ومع ذلك يصبر ويصابر فيما يلقاه من أذية على هذا الطريق، والأذية أمر واقع ولابد: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)﴾

[سورة آل عمران:١٨٦].

الصبر والتقوى والاستمرار في طريق الخير والدعوة هي عدة المؤمن في مواجهة الأذية وتشويه السمعة، ولك رب كريم يدافع عنك ما دمت صابرا متقيا، مشتغلا بالبر والتقوى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)﴾ [سورة الحج:٣٨].

وتذكر دائما أن خصومك يعملون على تشويه سمعتك وهم لا يملكون البراءة ولا الوجاهة، إنما يملكها رب العالمين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى (فَبَرَّأَهُ اللَّهُ) مِمَّا قَالُوا وَكَانَ (عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا) (٦٩)﴾ [سورة الأحزاب:٦٩].

البراءة من الله وحده، والوجاهة من الله وحده، وطريقها الصبر على الأذى، والعزيمة على مواصلة الطريق في البر والتقوى.



العفو.. سيرةٌ وسريرة

هناك شيءٌ ما يربطنا بسورة يوسف عليه السلام، منذ أن يكون الطفل صغيرا في حلقة القرآن يحفظ ويراجع، وحتى يصبح شيخا كبيرا يسمع التلاوة في مذياعه.. وسورةُ يوسف لها تأثيرٌ خاص في نفسه، يجد لها أُنْسا

ونشاطا حين يصل إليها وكأنه كان في انتظارها ! ربما لأنها قصة مليئة بالدموع والآهات، والدروس والآيات. والنفس البشرية تتفاعل مع القصة ما لا تتفاعل مع غيرها: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ (أَحْسَنَ الْقَصَصِ) بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾. [سورة يوسف: ٣].

من قبل كان المشهد الأكثر تأثيرا في نفسي، قصة يوسف في شبابه وامرأة العزيز تراوده عن نفسه، وهو يقول: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [سورة يوسف:٢٣]. ثم تراوده مع النسوة وهو يقول: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾[سورة يوسف:٣٣].

ولاريب أن هذا المشهد مشهد عظيم، لشابٍّ يجد ما يجده كل شاب من نوازع الطبيعة، ودواعي الفتنة، ويبتلى فيها بالإغراء.. والتهديد، ثم يقاوم ذلك كله بإيمان وصبر وثبات.

مع الأيام شعرت أن في قصة يوسف ما هو أعظم وأصعب من هذا النجاح، وهو ابتلاء العفو والتسامح، والتعالي عن المعاناة الخاصة، والإخلاص للهدف الأول الذي اختاره لحياته وهو الدعوة إلى الله والإصلاح. وكل ما يمكن أن يقال في هذه القصة سيكون بيننا وبينه حجاب، يحرمنا من استشعاره والتأثر به، حتى نضع أنفسنا في مكانه ونتساءل بصدق هل نستطيع أن نسمو هذا السمو ؟!

إن العفو في قصة يوسف لم يكن قرارا عابرا محدودا بموقف معين،

بل كان (سيرة وسريرة) ! وظل العفو والتسامح، والإخلاص لأهدافه الأولى سيرة وهديا وسلوكا ثابتا، وسريرة صافية لا تحتفظ بالأحقاد والأغلال. لقد مر على يوسف ثلاثة مواقف يمكن أن تورط حياته بالغل والحقد، وأن تحرفه عن مسيرته وأهدافه السامية. وإذا تورط القلب في جنحة الحقد والغل، أصبح مرتعا لأسوأ المشاعر، واجتمع في قلبه من الأعباء ما ينوء به ظهره، وما يُقعدُه عن التحليق عاليا في أهدافه ومُثُله . فهؤلاء إخوته يأخذونه من حضن أبيه وأمه بأيدٍ تتظاهر بالرحمة وفي قلوبهم نية القتل وجرمه ! ثم يضعونه بأيديهم في الجب ويتركونه وحيدا يواجه مصيره في الكربة والغربة، حتى أصبح هذا الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم بضاعة تباع وتشترى ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾[سورة يوسف:١٩].

كم كان هذا التواطؤ على هذه الجريمة العظيمة قاسيا على قلب الفتى الصغير ! وكم كان هذا الموقف الشنيع قادرا على افتراس طهارة قلبه ونقائه وصفائه ! لولا أن الله أكرمه بهذا العفو وجعله سيرة وسريرة .

ولا يزال هذا البغي والظلم يلاحقه حتى التقاهم في مصر وهو في عزه وسؤدده، وهم يقولون: ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾! [سورة يوسف:٧٧]

ثم يتعرض لظلم آخر لا يقل عنه وقعا وتأثيرا، وذلك حين تمالأ عليه

النظام، وقرر سجنه من بعد ما رأوا الآيات على براءته، ودخل السجن في تهمة رخيصة لأكثر خلق الله عفة ومروءة ! ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾![سورة يوسف: ٣٥]

والعجيب أنه يدخل السجن ثم لا تؤثر هذه المواقف على سيرته وسريرته، ويبقى في عافية نفسية تجعله يُعرض عن هذه الآلام الخاصة، ويظل محسنا كعادته كأنها حياته السابقة عافية ورفاه . وشهد له أصحابه هناك بالإحسان ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[سورة يوسف:٣٦].

وحين فاضت نفسه بالحديث.. كانت عن أهدافه السامية، ودعوته وإصلاحه. كيف استطاع أن يتناسى ما أصابه؟! وكيف استطاع أن يبقى وفيا لهدفه الأول وألا ينحرف عنه مهما أصابه من ظلم وتواطؤ وأذى ؟! ثم يخرج صاحبه من السجن بعد علاقة حميمة بُنيت على العاطفة والإحسان، ويطلب منه أن يذكره عند ربه، ثم لا يذكره ! ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[سورة يوسف: ٤٢].

وهذا الموقف جدير بأن يصل العتب إلى أعماق النفس، وأن يشك الإنسان بعدها في جدوى الإحسان ! ثم نرى يوسف بعد هذه المعاناة العظيمة في أفق آخر لا تصل إليه الأحقاد، ولا تحجبه التجارب الخاصة مهما كان ألمها عن طريقه الذي اختاره لنفسه، وهدفه الذي ارتضاه لعمره.

أما إخوته : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [سورة يوسف:٩٢]

ويأتي بهم ويقربهم ويحسن إليهم كأنما أحسنوا إليه ولم يسيؤوا.

وأما النظام الذي سجنه واتهمه، فيشارك معه في الإصلاح وإنقاذ البلاد، وينسى آلامه الخاصة من أجل الناس والعامة. وأما صاحبه الذي نسيه ونسي إحسانه وبقي بعده في السجن بضع سنين، فلا يسمح لنفسه بعتابه ويتعامل معه كأن شيئا لم يكن.

إن صورة يوسف وهيئته في غاية الجمال، وأجمل منها قلبه بين جنبيه، الذي اتخذ العفو والتسامح سيرة وسريرة. وظل وفيا لإحسانه، ووفيا لمُثُله وأهدافه.

أيها الدعاة إلى الله.. أيها المصلحون.. الطريق طويل، ويعرض للداعية والمصلح ما يعرض له من الظلم والأذى، والتحدي أن يبقى حب الخير والإحسان هو ما يقود مشاعره، وأفكاره، وأحاديثه وأعماله. وألا يحرفه عن أهدافه السامية ظلم البعيد والرفيق، وخصومات الطريق. العفو شجاعة ونقاء.. وانتصار على نوازع النفس للانتقام. وأسعد الناس بخُلُق العفو صاحبه الذي يعيش سعادة الإحسان، ومتعة النسيان. بعكس الحقود الذي يحمل في نفسه ما ينوء به ظهره، وينطفئ به نوره. ومن العجب أن ترى من يستدل بسورة يوسف على حسد الأقارب..

وينسى أن يستدل بها على عفو القريب وتسامحه مهما بلغت أذيتهم !

السلام على يوسف يوم ولد.. والسلام عليه يوم رمي.. والسلام عليه يوم سجن.. والسلام عليه يوم بقي عفوا ومحسنا، وداعية ومصلحا.



﴿واصطنعتك لنفسي﴾

ليس هناك أجلّ ولا أعظم من هذه الكلمة، يسمعها العبد من ربِّه الكبيرِ المتعال!.

كان موسى -عليه السلام- في غربةٍ عن وطنه، وهو يسير في ظلمة الليل وبرده ووحشته، مع زوجه الصالحة بنت الرجل الصالح، غريبان.. يلتمسان نورا ودفئا وهداية ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠)﴾ [سورة طه: ١٠]. ولم يكن يدري موسى أن خطواته في تلك الليلة الموحشة، كانت تقرّبه من الشرف الأعظم الذي كان ينتظره، لقد كان موسى على موعدٍ وأجلٍ مسمى، مع شرف الرسالة، وكلام الرب سبحانه.

أيُّ شرف أعظم من سماعك لكلام الرب ليس بينك وبينه ترجمان

؟! أيُّ طمأنينة وسكينة.. وأيُّ نعمة ومِنَّة أعظم من سماعك لربك وهو يقول لك: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[طه: ٤١]، هذا أعظم الحب والقرب، والاختصاص والولاية. نعم، إن بعض العباد يصنعهم الله على عينه، بحسن أقداره، وجميل اختياره، أولئك الأصفياء الأولياء، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم. إن موسى الذي سمع هذه الكلمة الحانية، كان في خوفٍ ووجل منذ أن استهلَّ صبيا، فقد وُلد مستحقا للقتل في قانون الفرعون، ومِن خوف أمه عليه وضعته في التابوت، ثم قذفت به في اليمّ، وظل فؤادها فارغا إن كادت لتبدي به، لولا أن ربط الله على قلبها. لو علمنا أن هذا الجنين وهو في بطن أمه يصطنعه الله لنفسه، هل كنا سنتوقع أنه سيولد في خوف من القتل؟! وهل كنا نظن أنه سيُقذف به صغيرا ضعيفا في اليم؟! تلك صناعة الرب لأنبيائه وأشرف أوليائه!.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)﴾[سورة البقرة:٢١٦]، ثم يأخذه عدو الله الظالم الكافر، ولا تسأل عن قلب الأم وهي تنتظر ما يصنع هذا الفرعون بابنها.

ثم يقدر الله على موسى أن يَقْتل، فيتآمر عليه القوم ليقتلوه، ويخرج هائما على وجهه خائفا يترقب، مِن ورائه الطلب والثأر، ومِن أمامه الغربة والفاقة، ومع هذا.. «وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي»!.

ماذا كان يدور بخلد موسى وهو يسابق القوم أن يدركوه، والقتلُ قاب قوسين أو أدنى؟!، هل كان يظن وهو يسير مغموما حزينا أن الشرف الأعظم في انتظاره؟!، وأن ربه يبتليه ويربيه ويصطنعه لنفسه؟!، لقد قاسى موسى آلام الغربة، وهو بعيد عن وطنه وأقاربه، وأصحابه وأحبابه. واضطر موسى أن يعمل أجيرا بعدما كان في قصر المُلك ورفاهيته، ورغم ذلك.. «وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي»!.

إن هذه الأقدار والأحداث لم تكن تجري على سبيل المصادفة، بل هي الصناعة الربانية لهذا السيد العظيم، الذي يحبه الله في عليائه، وتحبه ملائكته، وعباده الصالحون، ويُعدّه ربه للمهمة الكبرى.. النبوة والرسالة.

حين أخبر الله موسى عن اصطفائه واختياره لرسالته، ذكّره بسنوات عمره التي كانت تجري أحداثها على عين الله، وكانت مخاوفها ومتاعبها من صناعة الله لعبده ومصطفاه، فذكّره ربه بقصة ميلاده، وما عانته أمه ولاقته من الخوف والترقب.. لكنه سيعود إليها ولو وصل إلى يد العدو!، وذكّره ربه بما لقيه من الغم والهم بعدما قتل الرجل، وذكّره بما ابتلاه ربه من الفتن ﴿وفتناك فتونا﴾، وذكّره ربه بسنوات الغربة التي قضاها في أهل مدين، حتى تم تأهيله وإعداده للمهمة الكبرى الخاصة بالعلي الأعلى سبحانه.

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) ﴾

[سورة طه:٣٧-٤١].

أيها المؤمن بأن فوق هذا الملكوت رباً عظيماً، يدبر ويقدر: تأكد أن أمة محمد ﷺ كريمة على الله، وأن الله يصنعها على عينه، وأن الصناعة الربانية لا تستجيب لأهوائنا وعقولنا القاصرة، ولا تستعجل لعجلتنا. ولو كان هناك طريق للعزة والنصرة ليس فيه بلاء ولا فتنة، ولا غم ولا خوف، ولا صبر وانتظار، لكان موسى أولى به وأحرى. ومِن رحمة الله أنه ينزل مع كل بلاء رحمة، فموسى بعد أن قذفته أمه في اليم، حفظه الله من الموت والغرق، ولما وصل للفرعون أنطق الله الرحمة وأحاطه بها حتى لا تصله يد الظلم والقتل، وحين أصبح فؤاد أمه فارغا وعانت ما عانت، ردّه الله إليها تضمه وترضعه. وحين قتل الرجل وتآمر القوم عليه بعث إليه رجلا يسعى يخبره ويحذره، ثم أنجاه الله من القوم الظالمين، وأغناه ربه بعمل يده! ومع كل بلاء رحمة.

حين تراقب الصراع بين أمة محمد ﷺ وأعدائها من الصهاينة وأتباعهم، وما يقع على هذه الأمة المرحومة من ظلم وطغيان، وكيد وتآمر، فلا تغرق في الأخبار والأحداث اليومية، وتذكر أن الله يصنع أتباع محمد وموسى وإبراهيم على عينه، وأن الله يصطنعهم لنفسه، وأن الخوف من الاستئصال في حال النشأة، والخوف من القتل في حال الفتوة والقوة، وأن الهم والغم والفتنة ما هو إلا طريق الصناعة والرعاية، لِقدَرِ الله الغالب: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١)﴾

[سورة يوسف:٢١].



﴿اذكروا نعمة الله عليكم﴾

ركبتُ مع سائقِ أجرةٍ على حين زحامٍ شديد، وكنت أنتظر الوصول والخلاص من هذه المشقة الكئيبة. تذكرت أنه سيبقى من بعدي في هذا الزحام يبحث عن مشوارٍ جديد، وهو في كل يومٍ يعاني مع هذا الشقاء. سألته عن عمله وأحواله.. فرأيت شكرًا ورضًا لا تخطئه العين، رغم عوزه ونصبه ! فتجدد في نفسي أن الغنى غنى القلب، وأن السعادة ليست مما في أيدي الناس بل مما في قلوبهم. اللهم لا تجعل الغنى في أيدينا،

والفقر والشقاء في قلوبنا. الشكرُ هو علاقة خاصة بين العبد وربه، تجعله في حب وقربٍ دائم. لا تخلو الحياة من نعمة ولا تخلو من حرمان، أما الشاكر فيقرِّب نعمَه حوله، حتى تحيط به إحاطة الجنة والنعيم المقيم، ولا يزال ينظر في هذه النعم ويذكر ربه شاكرا وحامدا. وأما الجَحُود فإن عينه تقتحم النعم مِن حوله، وتبحث نفسُه الكنود عن الألم في حاضره، والحسرة في ماضيه، ويظل يجمع من حوله ما يجعل صدره ضيِّقا حَرَجًا!

في الأوراد والأذكار شكرٌ متنوع ومتكرر، على شَربةِ الماء، وأكلة الغذاء، على الذهاب والإياب.. حتى تفترش السعادةُ حياته وقلبه. مع الشكر لن تعدم ما يسعدك ويبهجك ولو كانت كِسرةً من طعام، ودون الشكر يملُّ المرء حتى من المنِّ والسلوى -والعياذ بالله-: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [سورة البقرة: ٦١].

للنعمة قيمة وبهجة تتجدد مع الشكر والحمد، وللقلب ينابيعُ من الرضا والسكينة تجفُّ بالغفلة عن الذكر والشكر. ولو انكشفت لنا قلوب الخلق لرأينا كيف يهتز القلب للشكر كما تهتز الأرض الطيبة للغيث المغيث، ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)﴾ [سورة الحج:٥].

أجمل ما في الشكر ليس الزيادة التي تأذَّن الله بها للشاكرين، بل العلاقة الراقية بين العبد وربه، وهو يتمتم دائما وأبدا بالحمد والشكر، وهو يشعر بالحياء من ربِّه من كثرة ما ينعم عليه، ويتعاهده بالحفظ والرعاية. حتى إن القلب الشاكر يعرض له بعض الألم والحرمان فيستحيي من ربه أن يراه حزينا مع ما هو فيه من النعم العظيمة. حقيقٌ بهذا الشاكر لربه أن يجازى بجنس عمله من الغفور الشكور. حقيقٌ به أن يجد برد الشكر في حياته الدنيا، سعادةً في قلبه، وسكينة في حياته، وزيادة وإحسانا في دينه ودنياه. إن الله يحب من عبده أن يذكر نعمة الله عليه، ولذلك جاء هذا الأمر الواضح ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ في سورة البقرة، وآل عمران، والمائدة في ثلاثة مواضع، وإبراهيم، والأحزاب، وفاطر. غير الآيات التي ذكرت هذا المعنى بألفاظ أخرى. إنها عبادة مأمورة محبوبة عند الله أن نذكر نعمة الله علينا. وحين نكرر سورة الفاتحة نتعرف على الله بالرحمة، وارتبطت الرحمة بالإحسان والنعمة، وفي سورة الرحمن بيَّن النعم وفصّلها، ثم يقول في كل مرة: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [سورة الرحمن]. وحين يأمرنا الله بذكره ذكرا كثيرا ترى أن ذلك على سبيل الحب والشكر: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ

أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤) ﴾ [سورة الأحزاب: ٤١-٤٤].

جرِّب وأنت ترى بعض النعم عند غيرك وتتحسر عليها، أن تفكر في مجموع حياتك وحياته، وأن تتخيل أن تكون في مسلاخه.. فستفطن للنعم التي عندك وليست عنده، وستفطن للبلاء عنده وليس عندك، ولن ترضى أن تمنحه حياتك مقابل حياته. نحن نعيش في نعم عظيمة، لا يفسدها إلا الطمع والنفس الكنود. إننا نبني شخصية وهمية في الذهن ليست موجودة في الخارج، ونقارن أنفسنا بها فيصيبنا النكد والإحباط، ونذهل عن سعادة وعبادة الشكر. لو فكر الفاروق عمر بطريقتنا هذه لأصابه الوهن والإحباط، فإنه سيرى أباهريرة أحفظ منه للحديث، وخالد بن الوليد أمكن منه في قيادة الحروب، وأبا ذرٍّ أصدق لهجة، وعثمان أكثر مالا.. حتى ينسى أنه الفاروق عمر، أفضل هذه الأمة بعد الصديق رضي الله عنهم وأرضاهم. اجتماع النعيم من أطرافه لن يتحصل لأحدٍ في هذه الدنيا، والموعد الجنة. أما اليوم فإن فاتتك نعمة، فقد كسبت أخرى. وإن أصابك بلاء فقد حفظك من غيره. ولا يوجد في الدنيا مثل هذا الشخص الذي تطمع أن تكون مثله، وقد جمع من كل شخص نعمته وموهبته. وحق الشكر أن تتحرر من هذا الوهم، وتنعتق من هذا الطمع والتشوف الخادع. وتقضي أيامك في ذكر نعمة الله عليك، ويلهج قلبك مع لسانك شكرا لله وحمدا.. واهنأ بالسعادة، وأبشر بالزيادة.. ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠) ﴾ [سورة الزمر: ٢٠].



التفاؤل.. مع المكاره.. توهب الحياة

منذ أن يستهل الصبيُّ ويستقبل الحياة وهو يتعلم قانون الحياة والأمل، فإن نعمة الحياة توهَب للإنسان بعد حمله كُرها ووضعه كُرها، وكأن الحياة تلقِّن أصحابها بأن من وراء العسر يسرا، ومن وراء الكُره نعمةً وخيرا. وكأن كل كره موصول بنعمة، وكل عناء موصول برخاء. لقد اتصلت المكاره باليسر والنعم حتى كادت أن تكون رسلها التي تبشر بها. ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [سورة الأحقاف: ١٥] هل وُهبت الحياة لأحد دون أن يمر على هذا الكُره والعناء ؟! إنه درس بالغ يلقِّننا قانون الحياة والأمل، ويعلمنا التماسك والصبر أمام الكُره والعسر. بعدد الوجوه التي تراها، بعدد الأحياء الذين مروا من هنا، بعدد الأجيال القادمة.. نحن نسمع أصوات النعمة بعد الكربة، واليسر بعد العسر. وفي كل غيث مغيث نرى في برقه المخيف، ونسمع في صوت رعده أن مع العسر يسرا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤)﴾ [سورة الروم:٢٤].



الصفا والمروة

خيرٌ عظيم أن يسعى المسلم بين الصفا والمروة؛ فإنها من شعائر الله. وأعظم خيرا أن يدرك مع ذلك المعاني الثاوية في هذا المسعى، ثم يغمس فيها قلبه كلما سعى بين الصفا والمروة. إن لهذا السعي قصة قديمة حين كان وادي مكة موحشا بلا أنيس ولا جليس. وجاء أبوالأنبياء ﷺ بزوّجه هاجر وابنها إسماعيل عند بيت الله الحرام. ثم تركهم هناك، ليس معهم إلا جراب من تمر، وسقاء من ماء ! "ثم قفى إبراهيم منطلقا، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال نعم. قالت: إذن لا يضيعنا".

هذه الكلمة هي ماء الحياة الذي يغتسل فيه المحرم وهو يسعى بين الصفا والمروة، ويمكث في هذه الحقيقة يرسخها بكل خطوة يخطوها بين الجبلين "آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا".

إن هاجر لم تخلق من طين آخر، وليست شيئا آخر لا يشعر بمشاعرنا، ولا يقلق لقلقنا. بل هي من جنسنا تحب الجليس والأنيس، وتستوحش من الفراغ والوحدة، وتخاف على نفسها وصبيها من الجوع والعطش،

ولذلك تبعته وسألته وكررت عليه المسألة حتى علمت أنه أمر الله ! وفي الحديث: "فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأُنْس" بضم الهمز ويجوز كسرها. كذلك كان إبراهيم يشعر بمشاعر الأبوة ولهفة قلوبهم، ولكن يُخضعها لأمر ربه طاعةً ويقينا. ولذلك حين وصل "عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)﴾[سورة إبراهيم:٣٧].

لقد انتهى سقاء الماء، وأدركهم الظمأ، وبكى الصبي، "وجعلت تنظر إليه يتلوى (أو قال يتلبط)" ! وفي رواية أخرى للبخاري "كأنه ينشغ للموت" أي يشهق ويعلو صوته وينخفض كالذي ينازع !

تذكّر أخي أن هاجر لم تكن تعلم ماذا سيحدث كما نعلم، وأن نياط قلبها يمزقها بكاء صبيها وخشية الهلكة. فذهبت وهي في هذا الكرب، ليس في الوادي إلا هي وابنها وشبح الموت والعطش. حتى لو صرخت.. من يسمع صراخها ؟! فصعدت على الصفا وهي في هذا الكرب تبحث عن الفرج، وظلت تسعى إلى هذا الجبل تنظر منه، ثم تسعى إلى الجبل الآخر تنظر منه، وهي على حالها في الخوف والعطش والبحث عن الفرج والمخرج، وفي قلبها يقين راسخ "آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت:

إذن لا يضيعنا". وفي قلبها الأمل وحسن الظن كأنما تعلم بوجود الفرج حولها وهي تبحث عنه. وربها ينظر إليها وهي تسعى، وصبيها يتلوى، ويدخر لهما ينابيع زمزم يفجرها من تحت قدميه، لكنه الابتلاء لابد أن تستكمل أشواطه. حتى إذا انتهت من سعيها سابع مرة، وكأني بها بلغت ما وصفه القرآن عن أنبيائه: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [سورة يوسف: ١١٠]. "سمعت صوتا فقالت: "صه" تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعد ما تغرف."

إن السعي بين الصفا والمروة يعلمنا معاني اليقين والثقة بالله العلي العظيم، ويعلمنا الأمل وحسن الظن بالله، ويعلمنا كيف يكون النصر مع الصبر، والفرج بعد الكرب. إن سعي هاجر بين الجبلين بحثا عن الماء أو الناس يعلمنا كيف يكون التوكل على الله مع بذل الأسباب واستكمالها.

إن الأمل يا سادة هو الذي يقيم صاحبه للعمل رغم التعب والخوف والظمأ، والإحباط هو الذي يأتي على البقية الباقية من الهمة والعزيمة فيقعدها، ويجلس صاحبها قاعدا يائسا ينتظر الموت. النصر والفرج والظفر في الطريق أمامك لكن دون ذلك ابتلاء وامتحان، ولا يوجد

طريق آخر يوصلنا إلى ذلك النصر دون أن نبتلى وننتظر ونصبر شوطا إثر شوط: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾ [سورة البقرة: ٢١٤].

لم يرتو من ماء زمزم من لم يطعم فيه معاني الفأل والفرج !

لم يرتو من ماء زمزم من لم يذق فيه طعم القدمين الطاهرتين لإسماعيل حين جاءهم جبرائيل بالبشرى والأمل !

لم يرتو من ماء زمزم من لم يطعم فيه هذه الكلمة: "إذن لا يضيِّعنا" !

ليتنا نتداوى بماء زمزم من معاني الحيرة واليأس، ونرتوي من ماء زمزم كلما عطشت قلوبنا لليقين والإيمان.

ويظل المسعى يعلمنا دوما كيف نتشبث بالأمل واليقين مهما طالت خطواتنا في أشواط الابتلاء.





مع اشتداد الألم

التفاؤل مقرونٌ بالإيمان، وفي الشدة.. أكثرُهم إيمانا أكثرهم تفاؤلا: ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾[سورة البقرة:٢٤٩].

وحين أصيب نبي الله يعقوب -عليه السلام- في ابنه الآخر، وزادت مصيبته، عظم أمله وتفاؤله بالفرج بعد الشدة: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣)﴾ [سورة يوسف:٨٣]. وليس للأمل تاريخ انتهاء.. فالشهيد يستقبل حبل المشنقة بثغرٍ باسم، وهو يرى فيه معراجه للجنة والنعيم المقيم.





غلبتْ فئة كثيرة/توازن القوى

قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)﴾ [سورة آل عمران: ١٣]

وقال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾ [سورة البقرة: ٢٤٩].

هناك حقائق كونية هي من خلق الله، وحقائق شرعية هي من أمر الله، ولا يمكن أن تتعارض إلا على وجهٍ خاطئٍ من الفهم. ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾ [سورة الأعراف: ٥٤]. وربما بالغ المرء في فهم النص الشرعي إلى حدٍّ يُلغي فيه نصوصا أخرى، ويصدم فيه حقائق كونية، ثم يصر على فهمه يحسب أنه الدين الذي لا مرية فيه ! ومن ذلك أن بعض الصالحين يفهم آية ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أن الفئة المؤمنة مهما قلّ عددها وعدتها، تغلب الفئة الكافرة مهما كثر عددها وعدتها، وذلك بإذن الله والله مع الصابرين. هل هذا الفهم هو حقيقة شرعية ثابتة ؟ ومن خالف هذا الفهم فهل هو

يخالف الدين وحقائقه ووعوده أم أنه يخالف هذا الفهم المغلوط؟ إن هذا الفهم لا يصح شرعا، وهو يخالف حقائق الشرع وضرورات الكون. ومثل ذلك لا يكون دينا بل فهما مغلوطا. لقد أمر موسى قومه بالقتال، ودخول الأرض المقدسة، وانتهى بهم الأمر أن قالوا له: ﴿يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤)﴾[سورة المائدة:٢٤] فهل ذهب موسى عليه السلام وهو من أولي العزم مع أخيه هارون للقتال ؟! وهل قال سنغلبهم مهما قل عددنا ومهما كثر عددهم ؟! كلا، بل خاطب ربه وقال: "رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥)" [سورة المائدة:٢٥]. وعدَّ ذلك عذرا يعتذر به لربه. كذلك أحكام الهجرة تخالف هذا الفهم الغالي لآية "كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ" فإن القتال مواجهة، والهجرة انسحاب من مواجهةٍ فوق الطاقة، والبحث عن مكان آخر يجدون فيه حريتهم. ربما يعترض بعضهم أن الهجرة انحياز إلى الفئة المسلمة، وهذا يجيز الفرار من الزحف: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦)﴾ [سورة الأنفال:١٦].

وهذا الاعتراض غير صحيح، فإن الهجرة إلى الحبشة لم تكن على هذا الوصف، وهذا يبين أن الهجرة شيء مختلف عن القتال في سبيل الله،

ولو كان المؤمنون يغلبون مهما قل عددهم، والمشركون ينهزمون مهما كثر عددهم، لسقطت أحكام الهجرة، ووجبت المواجهة على كل حال. وفي أحكام القتال ذكر العدد والتوازن، وقد كان في الأمر الأول الواحد يقابل العشرة، وبعد التخفيف أصبح الواحد يقابل الاثنين كما في سورة الأنفال. وهي على الحالين اعتبرت الموازنة ولم تطلق الكثرة والقلة. وبهذا يتبين أن الفهم الغالي لغلبة المسلمين مهما قل عددهم هو فهم مغلوط يخالف النصوص الشرعية الأخرى، كما يخالف حقائق الكون وموازناته وضروراته.

وهنا تنبيهان:

الأول: أن الكلام في توازن القوى على أهميته، إلا أنه يختلف في مقام الطلب عن مقام الدفاع، فالطلب والابتداء مقام اختيار وانتقاء، ويحتاج إلى تأكد أكبر من موازين القوى وتحقيق المصالح وغير ذلك. أما الدفاع فهو مقام اضطرار كمثل البلاد المحتلة وهم يدافعون عن أرضهم وعرضهم، وقد ابتلوا بِشَرِّ المواجهة أو ما هو أعظم، من الاستسلام وما يلحقه من مخازي.

التنبيه الثاني: ضرورة مراجعة فهمنا للنصوص الخاصة ومقارنتها بالنصوص الأخرى. فإذا ظهر التعارض علمنا أنه لخطأ في فهمنا.

والإصرار على نصوص خاصة والإعراض عن النصوص الأخرى هو سبيل أهل الأهواء، ولن تجد صاحب هوى إلا وهو متمسك ببعض الأدلة وغالٍ في فهمها بما يخالف الأدلة الأخرى. والأهواء لا تتناهى، ولكل عصر أهواؤه وأدواؤه. وكما قيل في ضم النصوص بعضها إلى بعض يقال في ضم الحقيقة الشرعية إلى الحقيقة الكونية والضرورة العقلية. فما وجد من تعارض بينها فهو بسبب الفهم الخاطئ للأمر أو الخلق.

ثم إن النصر والظفر له أسبابه الشرعية والكونية، من الإعداد والقوة والتخطيط والعزيمة والصبر واجتماع الكلمة واختيار الوقت والمكان والنجاح في التحالفات وعزل الخصوم ونحو ذلك، والعاطفة وحدها مع الانتساب للإسلام لا تكفي في النصر وتحقيق المقاصد والمصالح



سورة الأحزاب

في هذه السورة تكرر معنى التعظيم لرسول الله ﷺ ورعاية حقه وعدم أذيته وكأنه هو المقصود الأعظم من هذه السورة. ففي هذه السورة ذُكِرت الأذية التي تلحق هذا النبي الكريم من أعدائه المشركين، وأعدائه

المنافقين، وأذية أصحابه، وأذية زوجاته، وأذية الجمهور العام وهو يبلغ رسالات الله، ثم ذكر الله في خاتمتها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩)﴾ [سورة الأحزاب:٦٩].

وفي هذه السورة جاء التوجيه الرباني لنبيه الكريم في التعامل مع هذه الأذية، وهو أسوة حسنة لكل من أوذي من الدعاة والمصلحين .

حين قرأت سورة الأحزاب لفت انتباهي هذا المعنى المتكرر، وكأنه الخيط الناظم لمعاني السورة وآياتها. ثم راجعت الألفاظ فوجدت سورة الأحزاب هي أكثر سورة ورد فيها هذا النداء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، وقد أشار ابن عاشور لتكرار هذا النداء في هذه السورة. ووجدت أن كلمة :(الأذية) ومشتقاتها هي الأخرى أكثر ما وردت في سورة الأحزاب ! ثم يأتي التوجيه الرباني الواضح: ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨)﴾ [سورة الأحزاب:٤٨].

إن العدو يؤذي والصديق يؤذي كذلك، والبعيد يؤذي والقريب يؤذي كذلك. وهذه الأذية وإن اختلفت في دوافعها ومقاصدها إلا أنها تحمل معنى الأذى. وربما استطاع الرجل أن يقاوم ويحتمل الأذى من أعدائه ومناوئيه، ثم يعجز عن احتمال الأذية من أصحابه ومحبيه. بعض الأذى

يأتي من الحب؛ و(عشم المحب) تصعب مقاومته، وقد يترك الإنسان شيئا من مصالحه وقناعاته رعايةً لعشم المحبين!

إن رعاية أذية الأعداء توصل الإنسان إلى سجنٍ قضبانُه من حديد، ورعاية عشم المحبين توصل إلى سجن آخر قضبانه من حرير! ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [سورة الأحزاب:٣٧].

لقد ذكرت السورة أذية المشركين والمنافقين، المشركون يأتون إلى المدينة بجيشهم وعتادهم يريدون أن يستأصلوا شأفة هذا النبي ودعوته. والمنافقون في صفوف المسلمين يبثون الوهن والفتنة ويخذلون المسلمين في كربهم وشدتهم. ولهم ألسنة حداد، تصل إلى القلوب والعقول بشبهاتها وتعويقها: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨)﴾[سورة الأحزاب:١٨].

وأذية أهل الشرك والنفاق مشهورة معلومة. لكن هناك أذية أخرى تأتي من المحب وهو لا يشعر، أذية تأتي من فرط الحب والقرب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [سورة الأحزاب: ٥٣]. ومع الحياء من جهة، والحب من جهة أخرى،

قد تستمر الأذية طويلا، وتأخذ من الجهد والطاقة ما تأخذ، وهي في النهاية على حساب الهدف الأسمى وتحقيق المشروع وبنائه.

كذلك تأتي الأذية من أهل البيت، وربما حصل التنافس البشري المعتاد داخل البيت، وكان على حساب هذا النبي الكريم، فجاء التوجيه الرباني وحسم هذا النوع من الأذى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾ [سورة الأحزاب:٢٨-٢٩]. وهو أقرب لأذية النفقة والتنافس عليها. وفي أذية القسم ونحوه:

﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١)﴾[سورة الأحزاب:٥١].

وفي هذه السورة ذكرت قصة زواج النبي ﷺ من زينب وقد كانت زوجة لزيد الذي نسب لرسول الله قبل أن يحرم التبنّي. وكان لهذا الأمر تأثير خاص على نفسه ﷺ حتى صرح القرآن بعتابه: "وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ" تقول عائشة رضي الله عنها: لو كتم محمد ﷺ شيئا مما

أوحي إليه من كتاب الله، لكتم: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾.

ثم جاء التعامل اللائق بمقام النبي الكريم، وهو كمال الحب والتعظيم والدعاء: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (٥٧)﴾ [سورة الأحزاب:٥٦-٥٧]. ورعاية حقه وعدم أذيته يكون في حياته وبعد مماته: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣)﴾ [سورة الأحزاب].

والوصية للنبي الكريم، ولكل محب وتابع يدعو إلى الله ويعاني أمر الإصلاح:

﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨)﴾ [سورة الأحزاب:٤٨]



القول السديد

الأعمال والاهتمامات تشبه البضائع المعروضة في السوق تنتظر زبائنها، والوقتُ والجهدُ يشبه المالَ المحدود الذي يشتري به المرء ما يحتاجه من السوق. والإنسان.. عمرٌ محدود، وطاقة محدودة، وهو مضطر -إن رشد- أن ينتقي ويختار من الأعمال والاهتمامات ما تتسعُ له نفقته، وأن يختار من ذلك أزكاها وأنفعها.

هذه الحقيقة البسيطة.. ربما تعاملنا في هذه الحياة وكأننا لا نعرفها، وترى عمرنا وجهدنا ننفقه في التافه من القول والعمل، ونشتري به ما يضرنا ولا ينفعنا، وكأن العمر والطاقة بحرٌ لا ينفد ! ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾.[سورة الإسراء:٢٩]

هؤلاء الذين اختاروا لأنفسهم أذية الناس، وصرفوا فيها أوقاتهم.. هل يدركون أنهم أنفقوا أعز ما يملكون في أسوأ بضاعة وأردئها ؟! وأنهم فوّتوا على أنفسهم الأثمن والأزكى من الأعمال والاهتمامات؟!

إن في أذية الناس شهوةً تجعل صاحبها لا يستخسر فيها الوقت والجهد، وفيها ضراوة تزيد وتنمو فيستطيل على كل أحد، حتى يبلغ

بأذاه الصالحين والأولياء بل الأنبياء: ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [سورة الصف:٥].

وبعد هذه الجهود والأعمار تكون عاقبتهم إلى خسار وبوار، فلا هم ادخروا أعمارهم وجهودهم لما هو أنفع، ولا هم حققوا أهدافهم ضد من يؤذونهم؛ فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، ويكرمهم بالبراءة مما يقولون، وبالوجاهة والكرامة.

وفي سورة الأحزاب آيات كريمة تختصر الحقيقة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [سورة الأحزاب٦٩-٧١].

وهنا معنى جميل، وسرٌّ عجيب؛ فإن الإنسان إذا راقب أقواله وحافظ عليها، واختار لنفسه السديد من القول، فإن الله سيصلح أعماله، ويغفر ذنوبه، وهذه غاية الآمال والأماني. إن اللسان يغرف مما في القلب، ويعبر عما يشغله من الفكر، وهو حين يختار لنفسه غير السديد من القول، فإنه اختار لعقله أن يفكر في غير السديد، واختار لقلبه أن يشتغل بغير السديد، وأعمالُ الإنسان لا يمكن أن تخرج عن حركة العقل والفؤاد. أما إذا التزم بالقول السديد، وجاهد نفسه على ذلك، فإن الأفكار الرديئة

تضمر في عقله وتتوارى، وقلبُه يكبر عن المعاني السيئة ويتسامى؛ فتصلح أعماله، وتغفَر ذنوبه، وذلك هو الفوز العظيم.

ولذلك تجد أن نبي الرحمة حثنا على "أقوال" محددة، نكررها كل صباح ومساء، ونكررها بعد الصلوات، وقبل النوم، وعند اليقظة. وربما نكرر الكلمة الواحدة عشرات المرات. هذه الأذكار ليست حركة للسان وحده، بل هي استدعاء لأجمل المعاني القلبية، والأفكار العقلية، وإمدادها بالحياة والنشاط والقوة، حتى يكون عمل الإنسان منسجما مع هذه المعاني الشريفة. ولن يحافظ الإنسان على الأذكار الشرعية، يقولها بلسانه، ويستحضرها بعقله وجنانه، إلا كانت له صلاحا في عمله، ومغفرة لذنبه. ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]

ولن تجد أحدا منهمكًا في أذية الناس، ينفق فيها عمره وجهده، إلا وجدت الغيبة أذكاره وأوراده ! ومن ساءت أقواله، ساءت أعماله ولابد. عن يحْيَى بن أبي كثير، قال: "ماصَلَح منْطِقُ رجُلٍ إلّا عرفتَ ذلك في سائرِ عملِهِ، ولا فسَدَ منْطِقهُ إلا عرفْتَ ذلك في سائرِ عملِهِ".

ومن عناية الإسلام بالأقوال، ما جاء في الصحيحين، من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: "لا يقولن أحدكم : خبثت نفسي، ولكن ليقل : لَقِسَت نفسي". وفي بيان معنى الحديث يقول ابن القيم في

أعلام الموقعين (١٥٠/ ٣): "نهى أن يقول الرجل: "خبثت نفسي" ولكن ليقل: "لقست نفسي"؛ سداً لذريعة اعتياد اللسان للكلام الفاحش وسداً لذريعة اتصاف النفس بمعنى هذا اللفظ؛ فإن الألفاظ تتقاضى معانيها، وتطلبها بالمشاكلة والمناسبة التي بين اللفظ والمعنى. ولهذا قلّ من تجده يعتاد لفظاً إلا ومعناه غالب عليه."

وكم يخطئ على نفسه وعلى من حوله من اعتاد لسانه لغة التشاؤم والإحباط، فإنه يبحث في النفس عن مواطن الهمة فيقعدها، ويظل صاحبها أقدر الناس على الحزن وتوقع المكاره، وأبعدهم عن العمل وصناعة المستقبل. أما لغة الأمل والتفاؤل وحسن الظن بالله، فإنها تنفخ في الروح الهمة، وتكشف الحكمة وراء الكربة، والفرصة داخل الأزمة، وتمد البصر والبصيرة إلى الشمس السابحة في الكون باتجاهه، تبدد ظلامه، وتجلّي نهاره.

إن المريض الذي اعتاد لسانه على الكلمة الطيبة، والفأل والأمل هو الذي يصلح عمله، ويذهب بحثا عن الدواء والشفاء، حتى يأذن الله بفرجه.

إن الجيش الذي اعتاد على الكلمة الطيبة، والفأل والأمل والروح المشرقة، هو الذي يصلح عمله، ويدخل المعركة بكامل طاقته واجتهاده. ولذلك ترى في المعارك أسدّ الأقوال وأحسنها هي لأصلحهم حالا

وفعالا، فهم الذين يقولون: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[سورة البقرة:٢٤٩]

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾[سورة الأحزاب:٢٢]. أما أصحاب الأقوال السيئة فإنهم أسوؤهم حالا وفعالا: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾[سورة الأحزاب:١٣]، ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[سورة الأحزاب:١٨]، ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾[سورة الأحزاب:١٢].

صدق الله ومن أصدق من الله قيلا:

﴿قُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

[سورة الأحزاب:٧٠-٧١].

......

﴿وَهُدُوا إِلَى الطيِّب من القول وَهُدُوا إلى صراط الحميد﴾[سورة الحج: ٢٤].



زينةُ الصحبة

عالَمُ الصحبة والصداقة مليءٌ بالمفاهيم والتجارب. وقد يختلط الأمر على بعضهم فيغلو في خُلق جميل حتى يجور على خلُقٍ آخر. مع الصحبة لا يجمل التكلف، فإن التكلف أغلالٌ لا تصلح لمن أخلصتهم لودِّك وقربك. ولكن هل يصل الأمر إلى أن يرتفع الحياء والمجاملة بين الأصحاب، زيادة في الحب والاقتراب ؟!

إن العفوية وعدم التكلف ليست بديلا عن الحياء بين الأصحاب؛ فالحياء زينة الصحبة وجمالها. وقد استوقفني هذا التعبير القرآني في علاقة النبي الكريم محمد ﷺ مع أصحابه، وهو خير أسوة وقدوة. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

هذا الحياء في الصحبة هو الذي يحفظ بقاءها ونقاءها. فالصاحب الذي يستحق طول الصحبة هو الذي يحافظ على خلق الحياء بينهما، فتراه يستحي أن يؤذيه وهو لا يدري، وربما جاء على نفسه رعاية وحياء من صاحبه. ولا تكاد أن تثبت صحبة مع طول الأيام والليالي إلا ولها رصيد من هذا الحياء.

كان النبي ﷺ حييا مع أصحابه، ويخفض لهم جناحه باللين والرفق والرحمة. ما أجمل الصورة وأجمل العبارة ! ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥)﴾ [سورة الشعراء: ٢١٥].

ترتبك علاقاتنا حين نطفئ بيننا هذا المصباح. الاحتكاك اليومي ينسينا هذا المعنى الشريف، وبهذا الأسلوب الجميل. صاحبك أولى بطيب حديثك، وأولى بتواضعك وعفوك. والصحبة أولى بهذا الحياء الجميل الذي يمد صنائع المعروف بأسباب الحياة.



يذكرون أعداءهم وينسون أنفسهم !

من الغبن أن تستبدّ العداوةُ بصاحبها حتى تُنسيه نفسه وأهدافه. وأكبر هزيمة أمام عدوك أن تذكره وتهتم له أكثر من اهتمامك بنفسك. أيُّ تكريم نمنحه العدو حين يصبح محل القيادة في تفكيرنا واهتمامنا ومشاعرنا؟! وأيُّ امتهان لأنفسنا حين ننساها بسبب أعدائنا؟!

إن الشيطان هو العدو الأكبر لابن آدم، ورغم ذلك، فإن الهدف من خلق الإنسان هو عبادة الرحمن وليس عداوة الشيطان.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [سورة الذاريات:٥٦]. ولن يكون من المفلحين من اشتغل بذم الشيطان وكُرهه والتحذير منه حتى أضاع الغاية من خلقه.

إن المبالغة في العداوة والاهتمام بالأعداء أكثر من الاهتمام بأنفسنا وتحقيق أهدافنا أمرٌ واقع، وهو في غاية الضرر على قلوبنا، وغاية الخطر على مشاريعنا.

أما القلوب فإنها تتشوه وتمرض إذا غلبت كراهيتُها محبتَها، وحضر أعداؤها وغاب أحبابها، وانشغلت بأعداء الله أكثر من اشتغالها وتعلقها بالله. وهذا لا يعني إغفال جانب العداوة والبراءة، فإن العداوة ضرورة لازمة، وواجب شرعي حين تستكمل أسبابها وأركانها، ولكل أمة ودين ومذهب أعداء، لكنّ هذا كله لا يكفي للاسترسال في العداوة والكراهية حتى تكون سيدة مشاعرنا، وقائدة عواطفنا، وحديثنا وهجّيرانا.

وانظر إلى الفتية من أصحاب الكهف، وقد زكاهم ربهم وحَكَم بإيمانهم وهدايتهم: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣)﴾ [سورة الكهف:١٣] لقوا من أقوامهم شدة وعنتا، وعانوا منهم خوفا ورهبا، حتى هربوا بدينهم إلى الكهف. وتركوا بيوتهم وأهليهم، وأموالهم وراحة بالهم، ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨)﴾ [سورة البروج:٨]. **حتى إذا أووا إلى الكهف.. قالوا.. فماذا قالوا؟! هنا تنكشف**

المعاني الراسخة، وتنطق المشاعر الغالبة: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠)﴾ [سورة الكهف:١٠].

هذه هي القلوب التي زكّاها ربها بالإيمان والهداية، مشغولة بربها ونفسها أكثر من انشغالها بكرهها وعدوّها، رغم الأذية والبلاء، في قوة الشباب والفتوة، حيث التفاعل والمشاعر في ذروتها.

إنه درس بليغ في تربية قلوبنا، وترتيب أولوياتها. القلب الذي ينهمك في كراهية الأعداء يفكر في النكاية أكثر من الهداية، وينشغل بالانتقام أكثر من الالتزام. إن ما تسمعه الأذن وتراه العين هو غذاء القلب وقُوتُه، ومن المهم أن نعود إلى المواد المصنوعة لشبابنا، ونراجعها مرة بعد أخرى، ونتساءل كم حضر أعداؤنا فيها، وما حجم الكراهية فيها مقارنة بالمعاني الأخرى التي يحتاجها القلب ويقتات عليها.

إنه أمر غريب أن تشاهد شابا متدينا كان في مجالس الحفظ، ودروس العلم، محافظا على صلاته في المساجد، ثم تراه في ساحة الحرب يسترخص الدماء، ويستمتع بقطع الرؤوس، ويوثق ذلك ويفاخر به، وبعضها رؤوس كانت تنطق بلا إله إلا الله. لا يمكن أن يصل الإنسان إلى هذا الحد من النكاية والانتقام إلا وقد عاش قلبه واغتذى على الكراهية، وغابت عنه المعاني المهمة من حب الله ورسوله ﷺ وعباده الصالحين،

والتواضع، وطلب الهداية لنفسه، وحب الهداية لكل الناس. وسبحان الله كيف تكسر هذه الآية حدة الكره، وتفتح باب الأمل، وتعيد الهدف في تعاملنا مع أعدائنا وهو تقديم الهداية على النكاية، وتقديم مصلحة الإسلام على نوازع الانتقام: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧)﴾[سورة الممتحنة: ٧].

لو أتيحت الفرصة هذه الأيام للانتقام من أعداء الله ومحاربيه، واستئصال شأفتهم، فلن نفكر في تفويت هذه الفرصة، وسنحكم على من فوّتها بالبوار والخسار، وكأننا لم نقرأ موقف نبينا ﷺ مع ملَك الجبال وهو يستأذنه في أن يطبق عليهم الأخشبين ! لقد فوت رسول الله ﷺ فرصة الانتقام مراعاة لمصلحة الإسلام، وأملا في هدايتهم أو هداية ذراريهم. أعداد كبيرة هذه الأيام لم تسمع بالإسلام، وغاية ما سمعته دعايات مغرضة ضد الإسلام، ما موقع هذا الواجب من اهتمامنا ومشاريعنا؟! هذه واجبات الحب لهداية الناس وتبليغ رسالات الله.

تلك خطورة الكراهية واستبدادها وسيادتها على القلوب. أما خطورتها على المشاريع فإنها لا تنمو ولا تنهض حتى ندخر جل تفكيرنا للبناء؛ عمارة القلوب بالإيمان، وعمارة الحياة بالحضارة والعمران. التعليم والصحة والجيش والإدارة والصناعة والاقتصاد ستهزل وتضعف إذا كان الحديث ضد العدو هو أهازيجنا المفضلة. والكره وحده لا يهزم

عدوًا، إنما يُهزم بالعلم والنظام ووضوح الرؤية. لقد انشغلنا بأعداء المرأة عن المرأة، وانشغلنا بأهل التغريب عن مشاريع النهضة والبناء، وانشغلنا بذم الصهاينة والصفويين عن بناء أمتنا. ثم نحسب أننا على شيء !

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) ﴾ [سورة الكهف: ١٠].



وفاء

شيءٌ يشبه الذاكرة.. والإلف.. والحنين.. وكرم الطباع والأخلاق.. ذاك الوفاء ! لا ينبت إلا في الأرض الطاهرة، ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨) ﴾ [سورة الأعراف: ٥٨].

تَفقِدُ العلاقات والقرابات تاريخها وجمالها، وحنينها وأشواقها، إذا وَجدَت نفوسًا بلا وفاء.

وفي القرآن وصَفَ الله عبده الصالح وهو يبلغ أشدَّه، ويبلغ أربعين سنة، في مشهدٍ عجيب من الوفاء؛ وفاء مع العباد ورب العباد، وفاء

مع الكبار والصغار. فهو لا ينسى ولا يتنكر لنعمة ربه، ويظل وفيا لربه بالشكر والدعاء والثناء الحسن. ولا ينسى فضل أبويه ومعروفهم واحتمالهم ويذكرهم في مناجاته لربه. ولا ينسى الذرية من بعده دعاء وشفقة. فهو موصول بوفائه بالسابقين، وموصول باللاحقين. لا يعيش في عزلةٍ من الأنانية: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ (وَعَلَى وَالِدَيَّ) وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ (وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي) إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) ﴾ [سورة الأحقاف:١٥].

في موقف الدعاء يظهر الوفاء، فإنه حديث القلب حيث تزول أسباب التصنع والرياء . وقد عظَّم الله الوفاء والأوفياء؛ فوكَّل الملَك الكريم إذا سمع المسلمَ يدعو لأخيه في ظهر الغيب، أن يؤمِّن الملك ويدعو له بمثل ذلك. فهل هناك أعذب من صوت الوفاء والنقاء، هذا الصوت الذي يتجاوب له الملك الكريم كلما دعا وتضرَّع. روى مسلم في صحيحه، أن النبي ﷺ قال: "دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ، قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ : آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ ".

إننا نمنح أقواما صفونا وبرنا وودنا، وربما ننسى أيادٍ وفية سترتفع كثيرا بالدعاء لك بعد رحيلك والإياس من بِرِّك وعطائك. هذه الأيادي الوفية

تستحق منا أن نصافحها كثيرا، وأن نمنحها حبنا وقربنا وصفونا. إن الوفاء شعور عجيب لا يعرف التمييز والعنصرية، بل تجد القلب الكريم يتعدى علاقته بالإنسان، وتراه وفيا لأرضه، وفيا لذكرياته، وفيا للحياة التي أنفق فيها عمره. يقول أحد الأعراب: "إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ووفاء عهده، فانظر إلى حنينه إلى أوطانه، وتشوُّقه إلى إخوانه، وبكائه على ما مضى من زمانه". لا تمزّق دفاترك القديمة.. أصدقاءك، أساتذتك، جيرانك. هنا عبقٌ خاص تستعيد به العافية والحياة. إن بعض الناس لا يتذكر الوفاء إلا حين يفقده من الآخرين، وينسى أنه هو الآخر مخاطب بالوفاء،؛الوفاء عطاء ونقاء، لا يميز بين الصغار والكبار، ولا يفرق بين الإنسان والمكان. انشغل بوفائك عن وفاء الناس، واعلم أن الملائكة معك في وفائك، تسمع دعاءك، وتردُّ وفاءك. وربُّك هو السميع البصير.



التفاؤل عبادة

التفاؤل أمرٌ متعلق بالمستقبل، والمستقبل في ملك الله وحكمه، ومن الأدب مع الله أن يحسن العبد ظنه بربه الذي يملك هذا المستقبل ويسيره بحكمه. التفاؤل يتعدى النظر للمستقبل.. إلى مالك هذا المستقبل -سبحانه-. وهو الرحمن الرحيم، والعليم القدير، ومهما قدّر من أمرٍ

فلِكمال علمه وحكمته. وقد ذكر الله في كتابه أن المنافقين يظنون بالله ظن السوء، ويحسبون أن الله لن ينصر دينه وأولياءه: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢)﴾ [سورة الفتح: ١٢]. وتوعدهم الله بعقابه وأليم عذابه: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ * عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ * وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ * وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦)﴾ [سورة الفتح:٦].

والظن السيء بالله سبب الهم والغم واضطراب النفوس، كما أخبر سبحانه عن المنافقين يوم أحد: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٤]. إن تفاؤل المؤمن من حسن ظنه بربه، وهو من أجلِّ العبادات، وقد يصل التشاؤم بالعبد إلى سوء الظن بالله والعياذ بالله. إن بعض التحليلات للمستقبل تنتمي لمدرسة: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [سورة الأحزاب: ١٣]. وربما توقع أحدهم الشر فأصبح يتمنى صحة توقعه، وهذا من شؤم التشاؤم والتنبؤ به.

وكما كان التفاؤل من حسن الظن بالله، فإنه من انتظار الفرج، وفي مدرسة يعقوب -عليه السلام- يتعلم المؤمن الثقة بالله وانتظار فرجه، مهما طال الزمان. ولاتزال هذه الآية الكريمة سلوة كل محزون ومكروب، ترفع وجوههم إلى السماء رضا وأملا: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧)﴾ [سورة الطلاق: ٧].



فأشارت إليه

أيها الحزين لتهمةٍ رخيصة كاذبة بَهَتك بها شانئوك.. لا تحزن، ولا يذهب عمرك حسرات وأنت تريد أن تدفعها وترفعها. فهذه مريم عليها السلام يشهد لها الصبي في مهده، ويتكلم ببراءتها بلسانٍ مبين، ولازال أهل الفجور يكذبون ويلاحقونها بالكذب والبهتان. ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾[سورة مريم: ٢٧-٣٣].

هل يوجد أعف من مريم عليها السلام ؟! هل يوجد أظهر وأصدق من شهادة الصبي في مهده ؟! ومع ذلك لم تسلم من الأذى والبهتان ! ذاك مقام عظيم.. يجمع صاحبه بين البراءة والصبر على الأذى، فيجمع الله له أجر العفة والبراءة، وأجر الصبر والاحتساب. كذلك هي الصدِّيقة بنت الصدِّيق أم المؤمنين وزوج رسول الله ﷺ ينزل القرآن ببراءتها وعفتها في

آيات بينات، ولايزال الملايين يكررون التهمة والكذب والبهتان ! هل يوجد أكثر عفةً من أمِّنا عائشة ؟! وهل يوجد دليل أظهر وأصدق من القرآن الكريم ؟! ومع ذلك لم تسلم من الأذى والبهتان ! وأكثر من ذلك سيد الخلق أجمعين الصادق المصدوق ﷺ، صدقه أظهر من الضياء، وتأتي الآيات والمعجزات المتتابعات على صدقه ورسالته، ولايزال الملايين من الخلق يعتقدون كذبه وادعاءه -بأبي هو وأمي ﷺ-.

فإذا رأيت أن خصومك قد بهتوك بما ليس فيك، فاعلم أن الله يريد لك فضلا زائدا، يجمع لك فيه بين البراءة ونقائها وشرفها، والأذية وصبرها وأجرها. وهذا الأجر مما لا يتطلبه العبد ويسعى في اكتسابه، لكن يصبر ويحتسب إن ابتلي به، ويطمع أن يكون مع هذه الثلة الطاهرة المطهرة، في براءتها وصبرها.

إن الأعداء الشانئون إذا تطلبوا عيبا فلم يجدوه، اخترعوا كذبة غادرة واستدلوا لها بالشبهة والإمكان. إن الباغي يتمسك بشبهة الولد من غير والد، ويترك البرهان المبين في شهادة الصبي في مهده بلسان مبين. ويتمسك بشبهة الخلوة بين رجل وامرأة ويترك البرهان المبين في القرآن الكريم. إن استحضار هذه الحقائق يخفف من ألم الاتهام تأسيا وعزاء بهؤلاء الأكارم والأكابر. وهو في الوقت ذاته يجعل الوقت والعمل موفورا فيما يفيد من الإعراض عنهم، والتزود من عمل البر والإحسان.

إن حديث أهل الإفك لا ينقص من الأعمار، ولا يضر إلا أذى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠) ﴾

[سورة آل عمران: ١٢٠]



على خُطى الصدّيق

حالةٌ عصيبة تلك التي عاشها أبوبكر الصديق، تولّى كِبْرَها رأسُ المنافقين عبدالله بن أبيّ بن سلول. واستهدف فيها عِرضَ رسول الله ﷺ، وعِرض أكبر أصحابه وأحبهم إليه؛ فهي زوج رسول الله، وابنة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه. وظلت المدينة شهرا على هذا الحال العصيب، حتى وقع في ذلك بعض الصحابة رضي الله عنهم أجمعين. لقد كان لأبي بكر خصوم شانئون وشامتون، من اليهود والمنافقين. وكان أبوبكر إذ ذاك لا يعلم على وجه اليقين بالبراءة، فهو في حالٍ عصيبة؛ يظن بابنته خيرا، ويسمع قالة السوء، ويعلم ما يخفيه أعداؤه في صدورهم من غلٍّ وضغينة.. وأمرُ العرض أمرٌ عظيم. وبينا هو على هذه الحال، علم أن قريبه مسطح الذي يصله وينفق عليه دون انقطاع، قد شارك القوم في اتهام ابنته وفلذة كبده !

ما أبلغ الألم في قلب الصديق من كلمة مسطح، فقد كان أولى بنصرته وحميته، في هذه المدينة التي تضم يهودًا ومنافقين لا يرقبون في سمعة الصديق إلًّا ولا ذمة. لقد كان أولى بنصرته وحميته من أجل ما بينهما من وثاق الإيمان وهم قد آمنو وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله، وشهدوا جميعا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان. وهو أولى بنصرته وحميته من أجل وشائج القرابة ومودتها. وأولى بنصرته وحميته من أجل إحسانه وعطائه القديم الذي لم ينقطع. ما الذي حملك يا مسطح على مشاركتهم في هذا البهتان العظيم ؟! وعائشة هناك مع أمك تدفع عنك كلمةً عابرة قالتها أمك حين عثرت في مرطها : "تعس مسطح" قالت عائشة وهي في غفلتها عن بهتان المنافقين وما كانوا يمكرون: "بئس ما قلتِ؛ أتسبين رجلا قد شهد بدرا؟!". وعندما علمت عائشة بما يتحدث به الناس بكت بكاء شديدا "حتى إني لأظن أن البكاء فالق كبدي". ولما تنزّل الوحي ببراءة الصديقة بنت الصديق، وانجلت الكربة، بقي في نفس أبي بكر شيء على قريبه مسطح، وعزم على عقوبته، وأقسم أن يقطع عنه ما كان يصله به ويحسن به عليه. يا الله.. هذا غاية ما يعاقبه به ! وما علم أبوبكر أن فئاما من المسلمين بعده، سيفتح الله عليهم من الخير والمال، لا يصلون به قريبا، ولا يحسنون به إلى ذي رحم. دون أن يصيبهم أذى أو سوء. إن غاية ما يعاقب به الصديق من خاض في عرضه، واتهم ابنته في تلك الحال العصيبة، حيث كان عدوه ابن أبيّ يتولى كِبْر هذه الحملة الباغية =

أنه يتوقف عن عطائه!

جدير بهذه العقوبة أمام هذا الموقف أن تعد من مآثر الصديق ومناقبه، فإنه عظيم كريم في فضله، ورحيم كريم في عقوبته. اكتفى بذلك دون أن يسيء إليه أو يبغي عليه، لكن ربه يريد له مقاما أعلى وأجلّ، يريد له أن يعفو ويصفح مهما كبر الذنب في عينه، وأن يتذكر إيمانه، وقرابته، وهجرته، وحاجته. وهذا مقام عظيم في العفو، والحرية من المواقف الشخصية. وهو مقام يتناسى ما بينه وبين غيره من الخلق، ويتذكر ما بينه وبين الرب سبحانه، فيتقرب له بالعفو مهما تألم؛ رجاء عفو الله وكرمه وإحسانه. كم نخطئ في جنب الله وهو يوالي علينا نعماءه، ثم نستغفره ونتوب إليه، فيغفر ويتوب. ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)﴾ [سورة النور: ٢٢] فلما نزلت هذه الآية، "قال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه. وقال: لا أنزعها منه أبدا" (متفق عليه).

وفي هذه القصة درس بليغ لأصحاب الإحسان والأيادي البيضاء.. إنهم لن يسلموا بهذا الإحسان من أخطاء الناس وزلاتهم. فإن هم أحسنوا من أجل الناس فهم وشأنهم، وإن هم أحسنوا من أجل الله فلا يقطعوا معروفهم وليعفوا وليصفحوا حبا في الله وفي عفوه ومغفرته.

يجب أن يكون الإحسان علاقة راقية عالية بين العبد وربه، فوق المواقف الشخصية.. وذلك مقام الصديقين . إن الإحسان في الإسلام ليس علاقة بين المحسن والمحتاج، بل هو علاقة بين المحسن وربه، في صفقةٍ رابحة يبتغي به النجاة من أهوال جنهم، والفوز بجنة الله ورضوانه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)﴾ [سورة الليل: ١٧-٢١]. وأولى من يدخل في هذا الوصف أبوبكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه. إن إساءة قريبك أو من أحسنت إليه، فرصة سانحة لعبادة العفو، والتشبه بالصدّيق رضي الله عنه. وكيف سنعفو ونصفح ونواصل البر والإحسان دون خطأ أو إساءة ؟! الإساءة مؤلمة وهي في نظر الصديقين فرصة لأن يتجاوز المحسن ألمه، وأن يتعالى عن حظ نفسه، وأن يجدد العلاقة مع الله في هذا الإحسان. فإذا غلبتك نفسك وقطعت معروفك، فتذكر عودة الصديق -ولو بعد حين- وتشبه به في العودة والأوبة، ولو عزمت وأقسمت. وهنا معنى مهم فيمن أخطأ أو أساء، فإن الخطأ وارد على بني آدم، والتعامل معهم بشرط العصمة تعامل خاطئ. فإن مسطح على فضله وإيمانه وهجرته وجهاده وشهادة الله له فيمن شهد بدرا، زلت قدمه وأخطأ بلسانه. لكنه خطأ المؤمن الذي له ما يشفع له، وليس خطأ المنافق الخبيث عبدالله بن أبي بن سلول. فإذا رأيت خطأ أخيك فتذكر أخطاءك في جنب ربك، واغفر له كما تحب أن

يُغفر لك. وتذكر ما له من خير وإحسان، وحاذر أن تمعن النظر في خطئه حتى يلهيك عن حسناته الأخرى، وحتى يشغلك عن علاقتك بربك والتقرب له بالعفو والصفح. إن هذه المعاني لن تمنع الألم في قلبك من ذلك الخطأ، لكن ستمنع الألم من الانتصار عليك. ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)﴾ [سورة النور: ٢٢].



يُحِب المتوكلين

في طريقي لصلاة الفجر.. كان الإمام يقرأ القرآن بصوته الجميل، في هَدْأَةٍ من الدنيا كأنما هي تنصت لصوت القرآن. وحين سمعت الإمام يقرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ (يُحِبُّ) الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[سورة آل عمران: ١٥٩]. كأني أسمعها أولَ مرة ! يكفي شرفًا وإغراءً أن يخبرك ربك بأنه يحبك حين يرى قلبك متوكلا عليه، ومتَّجِهًا إليه. وتلك عبادة القلوب التي لا يطّلع عليها إلا علام الغيوب.

كنت أقرأ هذه الكلمة موصولةً بغيرها فأغفل عن جلالها وكمالها، ولو لم ينزل في التوكل إلا هذه الآية لكانت كفاء وشفاء. ليس بينك وبين

أن يحبك الله إلا أن تنفض قلبك من التعلق بالعباد، وتفوض أمرك إلى رب العباد. شعرت بهذا النقاء وهذا الحب الإلهي الذي يستنزله العبد بالتوكل على الله. شعرت بالحرّيةِ والكرامةِ والقلبُ يعرض عن العباد ويتطلّع نحو السماء.

التوكل ليس كسلا وإهمالا للأسباب، بل هو قوةٌ وطهر ونقاء؛ تجعل الأسباب في يديك دون أن تستوطن فؤادك. التوكل على الله مقامٌ عظيم من مقامات التوحيد وتعظيم الرب سبحانه. وهذا ما يجعلنا نفهم تأكيد القرآن على التوحيد، وهو يبدئ فيها ويعيد.

التوحيد ليس فكرة بدل فكرة، بل هو حياة بدل حياة. الموحد هو الذي يستقبل زمانه بالثقة والسعادة والرضا لأنه مفوض أمره إلى الله: القوي العزيز، العليم الحكيم، الرحمن الرحيم. ومن لم يَطعَم قلبُه هذه المعاني فما عرف التوحيد إلا في الدفاتر والقراطيس. مع التوكل يتسع الغار الضيق الذي أحاط به الأعداء من كل جانب. مع التوكل ينفتق الطريق للنجاة من جيشٍ عظيم بقوته وعدته وعدده، يقوده الفرعون الأكبر، والبحر يحول بينهم وبين ما يشتهون. ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣)﴾

[سورة الشعراء:٦١-٦٣].

كلا.. إن معي ربي سيهدين. لا تولد فجأة في الضمير، بل هي قصة طويلة من العلاقة والتوكل وتعاهد القلب وشوائبه. لكنَّ موسى -عليه السلام- لم يجلس مع قومه ويترك الأسباب وينتظر الفرج من السماء، بل عمل كل ما في وسعه بقلبٍ متوكل ومفوض أمره إلى الله فكان الفرج والمخرج. ومحمد ﷺ لم يجلس في داره والقوم يأتمرون به ليقتلوه وينتظر الفرج من السماء، بل عمل كل ما في وسعه بقلب قوي متوكل على الله، فلما أدركه القوم في الغار قال لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [سورة النساء: ٤٠] وكان الفرج والمخرج.

التوكل على الله قوةٌ وحياة وعمل وليس كسلا وضعفا وانتظارا. لن تخلو الحياة من هواجس المستقبل ومخاوفها، غير أن المؤمن يتخذ من هذه الهواجس والمخاوف فرصةً لعبادة التوكل وتفويض الأمر إلى الله. ولعمر الله إن ما يحصل في هذه القلوب من مقامات التوكل ومجاهداتها أثقل في الميزان مما يُعجِب الناس من أعمال الظواهر والجوارح. علِّق على جدار قلبك بخط جميل وظاهر هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [سورة الطلاق: ٣]. واطرُدْ بها همومك ومخاوفك، وتحدّ به مكر الأعداء وكيد الفجار. ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [سورة هود: ٥٥-٥٦].

بالصبر تُداوي عناء يومك، وبالتوكل تدواي هواجس مستقبلك: وَ ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) ﴾[سورة العنكبوت:٥٨-٥٩] ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) ﴾[سورة إبراهيم: ١٢].

أيها المؤمن بربك.. لا تسمح لتحليلات المستقبل في (عقلك).. أن تهز التوكل على الله في (قلبك)؛ "إِنَّ اللَّهَ (يُحِبُّ) الْمُتَوَكِّلِينَ".

مَنْ هذا الذي يستحق توكلك وهو عبدٌ ضعيف مثلك، يُدركه المرض والهرم، وتأخذه السنة والنوم، ويخطفه الموت ولو بعد حين ؟! ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾[سورة الفرقان:٥٨]. ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) ﴾[سورة النساء:١٣٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) ﴾[سورة آل عمران:١٥٩-١٦٠].



خِيرة

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧)﴾ [سورة الفتح:٢٧].

والمؤمن إذا تشوّف لأمر ثم فاته، لا يفقد أمله، فربما أخره لأمرٍ يعلمه، وجعل من دون ذلك خيرا كبيرا. وقد اعتادت العامة أن تقول للشيء يفوتها مما تحبه وتنتظره: خِيرة. وهو معنى مشرق يحافظ على الأمل والتفاؤل. ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)﴾ [سورة البقرة: ٢١٦].



التوحيد أعظم وأشمل من الفكرة

يلفت انتباهك وأنت تقرأ كلام الله هذه الحفاوة الخاصة بأمر التوحيد،

فهو يبدئ فيه ويعيد ! وأجرُه أعظم الأجور، بل هو الشرط اللازم لقبول العمل وحسن الثواب عليه في الآخرة. والشرك هو الذنب الأكبر الذي لا يغفر الله لصاحبه يوم القيامة ويغفر مادون ذلك لمن يشاء، وصاحب الشرك في نار جهنم خالدا فيها أبدا. مع هذه الحفاوة الخاصة بشأن التوحيد، يتأكد لدينا القصور والتقصير في فهمنا للتوحيد؛ فإننا نفهم التوحيد أنه فكرة صحيحة مقابل أفكار خاطئة، وهذا جزء مهم من التوحيد، لكن التوحيد أكبر من ذلك وأعظم. فالتوحيد هو نظام للتفكير يفرق بين الحقائق والخرافات، والتوحيد هو نظرة صحيحة للكون وخالقه ومبدأ الحياة وغايتها، والتوحيد هو وضوح لمصدر التشريع والأحكام، والتوحيد هو حياة أخرى مختلفة عن حياة أهل الشرك والوثنية. وكم نُقصِّر في حق التوحيد إن لم نتعامل معه بهذا الشمول والوضوح، ونعرف الفرق بين حياة أهل التوحيد وحياة أهل الشرك في كل جوانبها. القلب العامر بالتوحيد هو الذي يوقن بأن (الله أكبر)، وهو الذي ذاق طعم الحرية، والكرامة. التوحيد يعيد للقلب حياته، ويعيد للعقل نظامه، ويعيد للحياة سكينتها وسعادتها.

مع كل أمرٍ شرعي يحضر التوحيد، فالمسلم حين يشرب بيمينه مثلا فهو قد اختار في التشريع والأحكام دين الله، الذي يتلقاه من رسول الله ﷺ. المشركون في عهد النبي ﷺ كانوا يدركون أن الدخول في الإسلام يعني اختيار حياة بدل حياتهم الأولى، ولو كان الأمر مقصورا على كلمة تقال،

لقالوا هذه الكلمة وعشر كلمات غيرها.

ما الذي نستفيده من هذا الفهم والشمول لمعنى التوحيد؟ إننا نستطيع بهذا الفهم أن ندرك السبب وراء الحفاوة الخاصة في القرآن بأمر التوحيد. وبهذا الفهم سنحرص على معرفة آثار التوحيد في نظام التفكير، ومعرفة آثاره في القلب والعقل والحياة والتشريع. إن في القلب عالَمٌ من الأعمال، وبالتوحيد يتجه هذا العالم نحو القبلة: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾

[سورة الزمر: ٢٧-٢٩].

رأيت ذات مرة صورة شابٍّ مسلم يحيط به أعداؤه من كل جانب، وهم أكثر منه قوة وأكثر جمعا، وحين يأخذونه سيأخذونه إلى عذاب شديد. فكان في نظرته الثبات والكرامة بما يهز النفوس ويدهشها، وأيقنت أن ذلك لا يكون إلا بحياةٍ سعيدة مع القرآن والتوحيد. لقد كان في تلك النظرة "الله أكبر" . التوحيد معايشة مستمرة، ورعاية وسقاية دائمة، بالأذكار والأوراد والصلوات وقراءة القرآن.



﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾

جرّب ذات مرة.. واطلبْ من جلسائك "المسلمين" الإجابة باختصار عن هذا السؤال: إلى أيّ شيء يدعو الإسلام؟

بالتأكيد ستجد نفسك أمام جوابات متعدّدة، وهي في الغالب لا تخرج عن أحكام الإسلام العامة والخاصة.

جرّب مرة أخرى واسألْ نفرًا من غير المسلمين: ماذا تعرف عن الإسلام؟

ربما تجد هنا توافقًا بعض الشيء، لكنها في الغالب تدور حول القتال، والختان، والحجاب، وربما بلغ بنا الأمر إلى حد الموسيقى.

لاحظوا ياسادة أن السؤال هذه المرة عن العنوان المُعبِّر عن الإسلام، عن صفحة الغلاف -إن صحّ التعبير-.

هل هو أمر حسن أن تتعدّد الإجابات في عنوان الإسلام؟ هل هو أمر صحيح أن يتعرف غير المسلمين على ديننا بصفته قتالاً في سبيل الله، أو ختانًا، أو حجابًا؟

إن المسلمين يتفقون أنه لا يجوز أن يُزاد في الإسلام حكم، أو يُنقص

من الإسلام حكم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾[سورة النحل:١١٦]. فالأحكام الشرعية -حِلاًّ وحرمة- حق خالص لربنا سبحانه. ولكن ماذا عن "عنوان الإسلام" ووجهه الذي يعرفه الناس به، ويميزون بينه وبين باقي الملل والديانات، هل هو حق متاح لكل محبٍّ للإسلام ومنتسب إليه؟

أما في شؤون الدنيا ودعواتها وشركاتها وتجمعاتها فإنهم يولون الاسم والعنوان والشعار عناية فائقة، اختيارًا واحترامًا، ولا يسمحون لأحد أن يعبث بشيء من كلماته أو رموزه أو ألوانه. ولهم في ذلك علامات تجارية ومنافسات ومسابقات مشهودة. ولا غرو، فإنها أسماؤهم ووجوههم التي يعرفهم بها الناس.

أما الإسلام فإنه أصبح اليوم كثير الوجوه والأسماء، وكأن الحكم إذا ثبت شرعًا فإن ذلك يكفي لأن يتحول عنوان الإسلام ووجهه، وتلك مشكلتنا الخطيرة.

وفي قصة أبي سفيان مع هرقل في صحيح البخاري عظة وعبرة؛ فإن هرقل دعا نفرًا من قريش وكانوا من أعدائه آنذاك، يسألهم عن محمد ودينه. وكان أبو سفيان -وهو المتحدث عنهم- أحرص ما يكون على الطعن في رسول الله -ﷺ- والإزراء بدعوته ودينه أمام

هرقل عظيم الروم.

وكان مما سأل عنه هرقل كما يقول أبوسفيان: "فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في هذه المدة(صلح الحديبية) لا ندري ما هو صانع فيها. قال: والله ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه". وهذا يعني أن كل الأسئلة الأخرى لم يكن لأبي سفيان أي مدخل يشوّش بها على رسول الله ودعوته، حتى ذلك السؤال الذي سأله هرقل: "فماذا يأمركم؟ قال: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة".

تأمّل جمال الإسلام ووجهه الذي يُعرف به، وتأمّل إحكام الأمر حتى إن ألدّ الأعداء لم يجد فيه مدخلاً ومتّسعًا. وإذا قارنت بين جواب أبي سفيان -عدو الله ورسوله آنذاك- أمام هرقل عظيم الروم، وجواب جعفر بن أبي طالب -صاحب رسول الله وداعيته- أمام النجاشي ملك الحبشة، علمت حجم تفريطنا وتقصيرنا في حق الإسلام حين أصبح عنوان الإسلام وصفحة غلافه حقًا متاحًا لكل مسلم وغير مسلم.



التكذيب الخرافي

ارتبط العقل الخرافي بتصديق الأكاذيب والأساطير، فهو لا يملك القدرة على فرز الأكاذيب ورفضها، بل تجده يصدق كل ما وصل إليه ووافق هواه. ولذلك تجده يصدق الشيء ونقيضه، ويصدق ما يستحيل العقل قبوله. وإلا فكيف يقبل العقل أن يمنح أقدس الصفات وهي صفة الألوهية لصنمٍ من تمر يعبده ويعظمه، فإذا جاع أكله !

ولذلك فإن التوحيد لم يأت بفكرة بدل فكرة، بل جاء (بتفكير وفكرة)، جاء بنظام يتعامل مع الأخبار والأفكار، ويحرر العقول وأصحابها من ظلمة الخرافة والضلالة. ولم يعرف التوحيد حق معرفته من آمن (بأفكار) التوحيد وأهمل (تفكيره) ونظامه. العجيب في هذا العقل الخرافي أنه بقدر ما يتساهل في قبول الأكاذيب والأساطير، فإنك تجده يتشدد أحيانا فيرفض الحقائق الظاهرة التي يدل عليها الخبر الصحيح والعقل الصريح، بل يدل عليها الحس والظاهر ! إنه تكذيب بغير نظام، تكذيب خرافي يشبه التصديق الخرافي. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧)﴾ [سورة الأنعام :٧].

ففي الوقت الذي تصدق عقولهم الأكاذيب والأساطير، تجدهم هنا يكذبون الحس الظاهر الذي يصدقه الخبر الصادق والعقل الظاهر. ومن هنا نعلم أن العقل الخرافي لا يحسن التصديق كما أنه لا يحسن التكذيب. وأن الأدلة الظاهرة لا تنفع المرء حتى يتحرر من عقل الخرافة، ويفيء إلى رشده، فيكون تصديقه على بينة وتكذيبه على بينة. إن العقل الصحيح من جنود التوحيد وأنصاره، ولا ينتفع العبد بالآيات والبينات حتى يتحرر هذا العقل من سطوة الخرافة. فإن الخرافة تختطف صاحبها حتى يفقد القدرة على البصر والبصيرة.



ليسوا سواء

التعامل بالإجمال مع الأعداء دون فرز أو تفصيل، يعبر عن حالة عاطفية لا تركن إلى العقل ومعطياته المركبة، ولا تتفق مع العدل وأحكامه المتزنة. وفي القرآن تأسيس ظاهر للفرز والتفصيل في النظرة للمخالفين: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ [سورة آل عمران:١١٣].

والسنة مليئة بالتفريق بين كافر وكافر، وعدو وعدو. إن فهم الاختلافات الداخلية بين أعدائك يجعلك أكثر قدرة على التعامل المختلف معهم،

وكسر اجتماعهم، والتأثير عليهم. أما الحكم المجمل الذي يجمعهم في سلة واحدة، فهو لا يعبر عن الحقيقة من جهة، ولا يمثل العدل من جهة أخرى، ولا يتيح الفرصة للتأثير وصناعة التحالفات من جهة ثالثة. غالب المواقف المجملة هي مواقف عاطفية بسيطة تستريح من عناء البحث والفهم، وتستريح من تبعات التأثير وصناعة التحالفات. لا ينبغي للأمة المسلمة أن تسمح للأكثر عداوة لها أن يستفرد ببقية أعدائها، وأن تترك له ساحة التأثير وصناعة التحالفات دون مزاحمة ومغالبة. الإسلام يجعلنا في موقف العادل الذي يفهم الفروق ويعتمد الفرز والتفصيل، ويجعلنا في موقف القوي الذي يفكر في التأثير ولا يكتفي بالخوف والهروب.

تذهب كثير من أوقاتنا ونحن نناقش هل هذه الطائفة من أهل الإسلام أو من أهل الكفر، وتذهب أوقات أخرى في إثبات عداوتها وخبثها.. وليكن، فماذا علينا أن نصنع في التعامل معهم ؟ هذا سؤال يقفز الأسئلة النظرية إلى السؤال العملي المفيد. وليكن عدوا.. كيف نتعامل مع هذا العدو ؟ هل نتعامل معه بالتحذير والهروب والأحكام المجملة، أم نتعامل معه بالفهم والتفصيل والتأثير ؟! إنه لن تنهض أمة حتى تعلم أعداءها وتتعلم كيف تتعامل معهم. والهروب يجعلك في موقف المدافع الضعيف، ويفوِّت عليك كثيرا من الفرص في كسر عداوتهم، وعزل الأكثر عداوة وضراوة.

إن المساواة بين أبي جهل والمطعم بن عدي، والمساواة بين أبي لهب وأبي

طالب.. ظلم في ميزان العدل، وجهل في ميزان العقل. إن الذين مزقوا الصحيفة الجائرة في الحصار لم يكونوا من أهل الإسلام، ومن أجار النبي ﷺ بعد رجوعه من الطائف لم يكن من أهل الإسلام. ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ هي المفتاح الذي يوصلنا إلى العدل، والمفتاح الذي يفتح المجال واسعا في الفعل والتأثير. لقد أراحوا أنفسهم مَن حكموا على أعدائهم حكما مجملا؛ أراحوا أنفسهم من عناء البحث والفهم، وأراحوا أنفسهم من تبعات الفعل والتأثير، ولكن من الخطأ أن نجعل هذه الراحة والكسل هي حكم الإسلام، وهي مقتضى الولاء والبراء.



يفسح الله لكم

للمجلس والجليس حقٌّ وفضل، وقد جاء الإسلام بمكارم الأخلاق، فحث الجالس في مجلسه أن يُفسِح المكان للقادم إليه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١)﴾ [سورة المجادلة: ١١]. وهذا الأمر وإن نزل بسبب مجلس رسول الله ﷺ فإنه يشمل مجالس المؤمنين من بعده، فإن

المؤمن القادم للمجلس حقيق بالإيثار والتوسعة، والترحيب والكرامة. إن القرب من رسول الله ﷺ فضلٌ عظيم، وربما تمسك الرجل بهذا الفضل ونسي حق القادم في إيثاره وفضله وإحسانه.

وجاء الأمر بالإيثار والتفسح في المجالس حيث يكون للقرب من رسول الله ﷺ شرف وفضل تتشوف إليه النفوس المؤمنة، فكيف بغيره من المجالس ؟! القادم إلى مجلسك يشبه الضيف، ويشبه الغريب، ويستحق أن تفسح له في مجلسك، وحديثك، واهتمامك.. وجزاؤك موفور عند ربك: ﴿يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾. ومعنى أن تفسح له في المجلس أن توسع له في المكان، وتأخذ من بعض سعتك ليجد له مكانا ومُتَّسعا.

و مقصود الأمر هنا يتسع لأكثر من هذا، من البحث عن فسحة له في قلبك، وفسحة له في حديثك، وإكرامه وإيثاره بما يحب ربك ويرضى. إن مجالس المؤمنين تتواسع لهم وتتراحب بالإيثار، ومجالس غيرهم تتضايق عليهم بالأثرة والإعجاب. إن المجلس والمكان يضيق حتى يتفسحوا فيه، والوقت يضيق عن الحديث حتى يتفحسوا فيه، ومن مكارم الأخلاق أن تختار لجليسك ما ينشرح له صدره من الاهتمام والاستماع والكلام وتوسع له فيه. ومن عاجل نعمة المؤمن أن يجد الفسحة والسرور في الدنيا والآخرة. في داخل القلوب مجالس كريمة يجد المؤثرون لهم فيها مكانا ومُتَّسعا. وفضل الله واسع، وفسحته للمؤثرين ظاهرة وباطنة، والله واسع عليم.



التفاؤل وإخوانه

لا يعيش التفاؤل وحده في قلب المؤمن، بل هناك معانٍ أخرى تسكن قلب المؤمن، وباجتماعها يقطع الطريق إلى جنات ربه. ومن ذلك الخوف من عذاب الله، وقد أخبر الله عن حديث أهل الجنة وهم في نعيمها وخيراتها: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)﴾[سورة الطور: ٢٥-٢٨]. وخير التفاؤل ما أعان البر والعمل الصالح، وما كان بجوار المعاني الأخرى المبثوثة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.



رحلة الشكر والإحسان

العطاءُ والإحسان رحلةٌ طويلة، وكثيرٌ من النفوسِ الطيبة والمعادنِ النبيلة تبتدئ هذه الرحلة، وتسير في طريقها الطويل. والأصعب في

هذه الرحلة هو الاستمرار فيها إلى نهاية المطاف؛ فإن المحسن يتعرض لمواقف صادمة ومؤلمة قد تصل به إلى أن يفقد ثقته في الناس، ويفقد علاقته بالإحسان؛ فإنه يواجه جحودًا ونسيانا ممن أحسن إليهم، وهذا أهون ما يلقاه في هذا السبيل. ويلاقي الأذية والتتبع والإساءة، كأنما أساء إليهم ولم يحسن ! وربما أحسن إلى أحدهم المرة بعد الأخرى ثم طلبه ولم يقدر على مساعدته، فينقلب عليه كأنه لم يحسن إليه قط ! وقد يبغي عليه آخرون ظلما وعدوانا، فينظر في وجوه البغاة المعتدين، فيرى فيها بعض من أحسن إليه، واقفا في صفهم، يرمي بسهامهم، ويسير في ركابهم ! إن هذه المواقف وأمثالها تصيب المحسن بصدمة وحيرة، صدمة من مقابلة الإحسان بالإساءة، وحيرة في استيعاب ذلك وتفسيره. وعسيرٌ على الإنسان بعد ذلك أن يكمل طريقه في الإحسان، وأن يجد صفاءه ونقاءه وتضحيته وإحسانه.

وفي سورة الإنسان ثلاث آيات، فيها الزاد والراحلة لمن أراد أن يكمل حياته في طريق الإحسان. وفيها قصة الشكر: من أول الإحسان إلى آخر الشكر. يقول الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا (شَاكِرًا) وَإِمَّا كَفُورًا (٣)﴾ [سورة الإنسان: ١-٣]. هذه قصة الإحسان الأول، فالإنسان هنا يولد وهو مغمور بالنعمة، وقد جعل الله له الحرية إما شاكرا وإما كفورا. فيبتدئ المسلم

المحسن رحلته الطويلة بالشكر، وهذا الشكر يوجب عليه أن يعبد الله وحده لا يشرك به أحدا. ويوجب عليه أن يحسن إلى الناس كما أحسن الله إليه. وهنا تأتي الآية الثانية في الشكر: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ (جَزَاءً وَلَا شُكُورًا) (٩) ﴾ [سورة الإنسان: ٨-٩]

فهذا المحسن تمتد يده بالإحسان لكل ضعيف محتاج، حتى أولئك المحاربين المفارقين له في دينه، عندما يشتد عليهم الوثاق، ويصبحون في حال الأسر والضعف. أيُّ قلب هذا الذي يسع عطفُه وبرُّه المسيءَ والمفارق والمحارب ؟!

وهنا تبتدئ الضمانة الأهم لمواصلة البر والإحسان في رحلته الطويلة: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ (جَزَاءً وَلَا شُكُورًا) ﴾.الزهد في شكر الناس، وليس هذا زهدا في الشكر، بل القلوب مفطورة على حبه والفرح به، لكنه يريد شكرا خيرا من شكرهم، وجزاء خيرا من جزائهم. فيأتي الجواب ملاقيا لهذا الزهد في شكر الناس، والطمع في شكر الله. يأتي الجواب بعدما يذكر ربهم ما أعطاهم من عظيم نواله، وجميل بره وإحسانه: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ (جَزَاءً) وَكَانَ سَعْيُكُم (مَّشْكُورًا) (٢٢) ﴾ [سورة الإنسان:٢٢]. فلما زهدوا في جزاء الناس وشكرهم، أحسن الله جزاءهم، وشكر الله مسعاهم

! هذه قصة الإحسان والشكر، فالمسلم تبدأ حياته بإحسان ربه إليه، وتنتهي بشكر الله له. والمسلم هنا مشغول بشكر الله والإحسان إلى الخلق، ينتظر جزاء ربه وشكره، وزاهد في جزاء الخلق وشكرهم. إن قلب الإنسان ما لم يتعلق بانتظار الشكر من ربه، تعلق بشكر خلقه، وانقطع إحسانه بنسيانهم وجحودهم وإساءتهم: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣)﴾ [سورة سبأ: ١٣]. إن آية "لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا" وآية "إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا" شفاء وعافية من كل الجراحات التي يشعر بها المحسن في طريقه، وهي عفو وعافية يغمس فيها المحسن قلبه كلما تجدد إحسانه، وتجددت إساءتهم. ومَن أحسن إلى الخلق ينتظر شكرهم وجزاءهم مات مغبونا محسورا، ومن أحسن إلى الناس وهو زاهد في شكر الخلق طامع في شكر الخالق، اتصل إحسانه، وتجدد بره ونواله، وعاش حياته في عفو وسعة، ينتظر حسن المآل والعاقبة.



النفس اللوامة

هناك مساحةٌ داخل النفس البشرية:

- لا تصل إليها سلطة.

- ولا يستغني عنها مجتمع.

هذه المساحة هي من أخطر المساحات الموجودة في هذه الدنيا؛ فإنها من جهةٍ بعيدة عن عين الرقيب، ومن جهةٍ أخرى لها تأثير بالغ في كثير من القرارات والأعمال، ولا يتماسك مجتمعٌ دونها ! ومن حسن خلق الله لهذا الإنسان أن أودع في هذه المساحة معاني الفطرة، والتفريق بين الحَسَن والقبيح، وفي هذه المساحة المُضمَرة عن عيون الخلق تتواطأ النفوس على تفضيل الصدق وذم الكذب، ومدح السخاء وذم البخل، ومحبة الوفاء وبغض الغدر والخيانة، وأمثال هذه القيم. إنها (سلطة الضمير).. نعم هي مساحة مُضمَرة ومستترة (=ضمير)، ولها سلطة على تحديد القيم وتأنيب المرء في قراراته وأفعاله(= اللوّامة). وهي شيء عظيم أقسم الله به في كتابه الكريم، فقال جل جلاله: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢)﴾ [سورة القيامة:٢]. و(لا أقسم) صيغةٌ من صيغ القَسَم، كما قال سبحانه في موطن آخر: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)﴾ [سورة الواقعة: ٧٥- ٧٦]. ويشبه هذا القسَم قول العربي: لا والله لَأفعلنَّ كذا. فالنفي قبل القَسَم يؤكد القسم وينفي ما يخالفه.

لقد اكتشف العالَم أساليبَ كثيرة في الرقابة والشفافية والمحاسبة، وذهبوا في تطويرها إلى أمدٍ بعيد، ورغم ذلك بقيت مساحةٌ مُضمَرة مستترة عن

كل هذه الأساليب، فاضطروا هنا (لأداء اليمين). فترى رئيس الدولة حين يستلم مسؤوليته يقف أمام الناس ليؤدي اليمين الدستورية. هذه اليمين من أجل تلك المساحة الخطيرة داخل النفس التي لا تصل إليها سلطة، ولا تنفذ إليها عين الرقيب !

ولِخطورةِ هذا الضمير والنفس اللوامة فإنه لا يتماسك مجتمع دون العناية والرعاية لها. حتى تلك المجتمعات الفاسدة التي نشأت علاقاتهم على الإفساد والسلب والنهب وقطع الطريق، لن تتماسك علاقتهم -ويالَلْغرابة- إلا بالركون إلى هذا الضمير والنفسِ اللوامة واحترامها. قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا (تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ) لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩)﴾ [سورة النمل:٤٨-٤٩]. فانظر إلى هذا الرهط الفاسد المفسد، كيف احتاجوا للقَسَم الذي يَصِلُون به إلى ضمائرهم، حتى يكونوا عصبة واحدة.. وهم في حال إفساد، يعزمون على القتل والكذب ! وهذه مفارقة عجيبة حين يُقسِمون ويتفقون على أن يفسدوا ويكذبوا ! ذلك أنه لن يستقيم اجتماعهم وأمرهم إلا ببقاء شيء من الضمير يركنون إليه، وهم بتقاسمهم بالله يستبقون الشيء من الضمير ويحافظون عليه. ولو نكث أحدهم لاعتبروه خاطئا محتقَرا ولاموه وأنَّبوه !

في هذا الضمير نظامٌ متكامل من القيم واحترامها، ومن المحاسبة والتأنيب، ومن الصدق والشفافية.. مهما تظاهر أمام الخلق وتوارى عن عيونهم وهرب من قانونهم. ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥)﴾ [سورة القيامة: ١٤-١٥].

وإذا نحن علمنا عظيم هذا الشأن حتى أقسم الله بها في كتابه فماذا عسانا أن نعمل من أجل هذا الضمير ومن أجل النفس اللوامة ؟!

إننا في أمسّ الحاجة ألا نغفل في برامجنا الدينية والتربوية عن استصلاح هذه المساحة من النفس البشرية، والحفاظ عليها.. باعتبارها مستودَع القيم وتماسك المجتمع. هنا تسكن المروءة والقيم والأخلاق، وهنا يسهر الحارس بلومه ووعظه وتأنيبه، وهنا تختفي الأصباغ والخداع وتظهر الحقائق دون تزييف. إن منابر المساجد يجب أن يصل صوتها إلى هذه المساحة من النفس البشرية، وألا يذهب صوتها في تتبع المظاهر حيث يعمل القانون ورقباؤه، بل تصل إلى خطاب الضمائر والسرائر. الأصواتُ الندية في المحاريب هي غذاءُ الضمير ومادة حياته. المواعظُ الصادقة والقول البليغ هو صوت مسموع لهذه النفس اللوامة. ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣)﴾ [سورة النساء: ٦٣]. هذا التوجيه الرباني لنبيه ﷺ بشأن المنافقين، الذين فسدت ضمائرهم، واحترفوا التحايل بالظواهر والأيمان الكاذبة.

إن الضمير يحتاج للمساعدة بالقوانين المحافظة التي تبعد الإنسان عن مواطن الفتنة والهلكة. فالمسؤول الذي يجد نفسه دون قوانين وإجراءات حازمة مع الفساد ستزل قدمه وتتخوض يده في المال العام إلا من رحم الله. أما إذا وجد القوانين في مساعدة ضميره فإنه سينجو إلا ما ندر. كذلك الفتيان والفتيات الذين يجدون أنفسهم في بيئة تساعد ضمائرهم سيكونون أسعد بالصلاح والفلاح. ليس مقبولا أن نعول على هذا الضمير في الوقت الذي نبني فيها قوانينا على مخالفته ومحاربته. أما الفرد الذي يبتلى بالعيش في مثل هذه البيئة فإنه سيكون أمام مهمة تشبه القبض على الجمر !. لكن يجب أن يحافظ القانون والمنع على موقعه المساعد للضمير، ويبقى في رتبة المساعد والتابع. أما إذا أسرفنا في الاعتماد على المنع والقانون فإنا سنجعله متبوعا والضمير تابعا. وسيهزل الضمير جرّاء إهماله كما تهزل العضلة في الجسد حين تهملها وتحرمها من النشاط والحركة. وهذه القضية في غاية الأهمية والحساسية للأبوين مع أبنائهم، والمسؤولين مع من دونهم. الإسراف في المنع يضعف المناعة. والإسراف في المنع لا يبني فردا ولا مجتمعا منتميا للقيم والأخلاق والصدق والشفافية، بل يبني فردا ومجتمعا راضخا لسلطانها يتحيّن الفرصة للهروب والتمرد. ويبني في النفس قدرتها على التحايل والتظاهر والتهرب من عين الرقيب وسلطانه. إن المجتمع المسلم المحكوم بقوانين الشريعة والقيم والأخلاق لن يسلم بالكلية من النفاق،

ولكن هناك تعاملٌ نبوي يحصر النفاق في أضيق صوره، وهناك مجتمع آخر يمد النفاق بطاقات جديدة من الناس والمهارات. من أجل المناعة لا تهمل المنع ولا تسرف فيه. من أجل هذه الضمائر وعافيتها وقوامتها اجعل قوانين بيتك أو مجتمعك في خدمتها، لا تهملها ولا تسرف فيها. في المجتمع المسلم الضمير أولا والقانون ثانيا. ومتى تقدم هذا القانون وبالغ في تتبعه وسلطانه فنحن نخدم النفاق من حيث لا ندري. وسبحان الله كيف جاءت الآية في ترتيبها مع حالات النفاق: ﴿ (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ) وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) ﴾ [سورة النساء: ٦٣].

يقول ابن جرير في تفسيرها: "فأعرض عنهم وعظهم"، يقول: فدعهم فلا تعاقبهم في أبدانهم وأجسامهم، ولكن عظهم بتخويفك إياهم بأسَ الله أن يحلّ بهم، وعقوبته أن تنـزل بدارهم..". إن حالة النفاق هي في التظاهر والتحايل على القانون، فالحل ليس الإسراف فيه الذي سيفتق للنفاق الحيل، بل الحل هو مخاطبة الضمائر ووعظ السرائر بالموعظة المؤثرة والقول البليغ.

ما أعظم هذه النفس اللوامة.. التي أقسم العظيم الجليل بها: ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) ﴾ [سورة القيامة:٢]. وهنا معنى مهم وهو السياق الذي جاء فيه هذا القَسَم، لقد جاء هذا القَسَم ثانيا، وجاء قبله القَسَم بيوم القيامة: ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) ﴾ [سورة القيامة: ١]. إنه المنتهى

والغاية، وهو المقصود الأعظم، وكل نجاح لا يوصل إلى الفوز والنجاة يوم القيامة فإنه شأن تافه. وكأن الطريق إلى الفوز يوم القيامة هو هذه النفس اللوامة، هو النجاح المعتمِد على صلاح الضمير. ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)﴾ [سورة الطارق:٩-١٠]. لو كان ربنا يريد أن تصلح الدنيا بالقوانين وحدها، لم يمهل إبليس اللعين إلى يوم القيامة، الفلاح في عالَم الإنس والجن مبني على الاختيار والحرية، ومبني على صلاح الضمير. ويمكن أن يكفر ولد الرسول أو زوجه في بيته. والنجاة في هذا اليوم العظيم يوم القيامة، يبدأ من الضمير والنفس اللوامة. أما الصلاح في الظاهر مع فساد السرائر فإنه طريق موصل إلى الدرك الأسفل من النار. أيها المؤمن بالله.. الحريص على نجاتك ونجاحك يوم القيامة.. التفت إلى ضميرك، وتعاهده بالاستصلاح، بالصدقة التي تخفيها يمينُك عن شمالك، بعبادة السر، بالانتصار على شهوتك حال خلوتك، بتعاهد قلبك الذي لا يراه الخلق وتجديده بالعفو والتواضع والحب والرحمة. ضميرُك يا صديقي.. هو المكان الأهم في حياتك، وهو المسؤول عن أعمالك وقراراتك، وعليه التعويل في نجاحك وفلاحك، وهو يستحق الكثير من العناية والرعاية. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)﴾ [سورة البقرة: ٢٣٥].





الهوى يزيّن لصاحبه الباطل

صاحب الحق يسعد بالحق والحجج والبيات الدالة عليه، وصاحب الباطل يستعيض عن البراهين بالركون لباطله وتزيين الشيطان له، ولكن شتان بين تزيين الهوى وبينات الهدى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم (١٤)﴾ [سورة محمد:١٤]. إن صاحب الهوى يطول به العهد، ويُعرِض عن ربه وبيناته، ويزَّين له باطله حتى يحسب نفسه من المهتدين: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧)﴾ [سورة الزخرف: ٣٦-٣٧]. فالمؤمن لا يفتأ يعرض مواقفه وقناعاته على نور الوحي، يصححها ويتدارك فواتها؛ فإن الإنسان بغير الرجوع إلى نور الوحي يمكن أن يركن لعمله ويتزين في نفسه مهما كان سيئا وقبيحا، فإن فرعون ذاته تزين عمله في نفسه: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ [سورة غافر: ٣٧].

وتذكر أن خطأ خصمك لا يعني صوابك ورشادك، فلا يغرك خطأ الآخرين لتركن إلى مواقفك. فإن العبرة في الهداية هي أنوار الرسالة،

وانشغال اليهود بضلال النصارى لا يجعلهم من أهل الهداية، وكذلك انشغال النصارى بضلال اليهود. وكم اغتر صاحب الخطأ بخطئه بسبب انشغاله بخصمه ويقينه بخطئه، ويحسب بعد ذلك أنه من المهتدين.



وللأخلاق سلفٌ ونسب

كثيرا ما نقارن العقائد والأفكار بعقيدة أهل السنة والجماعة، وهذا خير ولاشك؛ فإن الأمة قد دخلها من الأهواء والبدع والانحرافات ما شوّه صفاء عقيدتها التي كان عليها محمد ﷺ وأصحابه. والغفلة عن أمر المعتقد سيجعل العقائد المنحرفة تتسلل إلى قلوب الناس وعقولهم، وتحرفهم عن حقائق القرآن وأنوار الوحي والرسالة. ولكن أين نحن من هذه اليقظة والمحاذرة فيما يخص الأخلاق؛ فإن للأنبياء وأتباعهم أخلاقا يعرفون بها. فتجد الرجل على أخلاقٍ لا تشبه أخلاق أهل السنة، ثم ننسبه للسنة وسلف الأمة من أجل أفكاره ومقالاته فحسب !

ما الذي جعلنا نحصر الانتساب في موافقة الأقوال والمعتقدات دون الشمائل والأخلاق ؟! ما الذي يجعلنا نحاذر من الخطأ في القول حتى لا نخرج من شرف السنة ثم نغفل عن الأخلاق وبوائقها ؟!

إن للأخلاق نسبا يشبه نسب الأفكار، وللأخلاق خطرا وشأنا عظيما، ويبعد أن يفارق الرجل أخلاق أهل السنة وسلف الأمة ثم يطمع في شرف الانتساب إليهم والالتحاق بهم. وربما أخطأ المرء في بعض الأقوال العلمية وكان أسعد حظا بالسنة ببركة تشبهه في أخلاقهم وشمائلهم المعروفة.

إن الذي يمارس العنصرية له سلف آخر غير سلف الأمة، ذلك الذي استنكف من السجود لآدم -عليه السلام- لأنه مخلوق من طين وهو مخلوق من نار. لقد استكبر على آدم بعنصره ! ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢)﴾ [سورة الأعراف: ١٢].

والذي يمارس الفتنة وإيغار الصدور هو أبعد عن سلف الأمة وأقرب لمن ينزغ في صدور العباد يبتغي الفتنة وأسبابها: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)وَإِمَّا (يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ) فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)﴾[سورة فصلت:٣٤-٣٦].

وذلك الذي يتجسس ويسترق السمع هو أبعد عن السنة وسلفها، بل هو متشبه بالشيطان: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠)﴾ [سورة الصافات:١٠].

إن أهل الحق وسلف الأمة لهم أخلاق كريمة يعرفون بها، ومن طمع في التشبه بهم، واللحاق بهم في درجاتهم العليا، فليعتن بصحة أخلاقه كما يعتني بصحة أفكاره وأقواله ومعتقداته. وأول ما افترق الخلق، وابتدأ الانحراف؛ كان بسبب الكبر والحسد الذي أفسد قلب الشيطان وأخلاقه وامتنع من السجود لآدم -عليه السلام-. إن لكل خلقٍ سلف، والقرآن يخبرنا بأخلاق الأنبياء في كرمهم وإحسانهم، ويخبرنا بأخلاق أعدائهم.. فاختر لأخلاقك السلف الصالح، وتشبَّه بهم في أخلاقهم كاجتهادك في التشبه بأفكارهم ومعتقداتهم وأقوالهم.



آيات لكل صبّارٍ شكور

الآيات المبثوثة في الكون ظاهرةٌ بيِّنة، لن تتهجَّى حروفَها حتى تدخل مدرسة الصبر والشكر، وتُقيم الزمان الطويل في أروقتها ورَدَهاتها. في مدرسة (الصبر والشكر) تتعلم كيف تقرأ الآيات، كيف تنتفع بها، كيف تتعرف على حروفها وهجائها، ومعانيها ومقاصدها.

لِلآيات المبثوثة في الكون وفي تقلبات الليالي والأيام صوتٌ بالغ لا تسمعه أذنك إلا بالصبر والشكر. أرأيت الحروف المرصوفة أمام أمّيٍ لا

يقرأ ولا يكتب.. إنها ليست سوى رموز وطلاسم لن يستطيع أن يتبيّن معانيها أو يفهم مراميها. كذلك الآيات المكتوبة في الكون، والأيام التي يداولها الله بين الناس، هي آيات بينات مكتوبة بحروفٍ لا يقرأها إلا كل صبار شكور. في أربعة مواطن مختلفة تأتي هذه الآية العجيبة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ في سورة إبراهيم ولقمان وسبأ والشورى ! يعيش جهلا وأمّية وعمى وغفلة عن آيات الله كل من أخفق في أخلاق الصبر والشكر.

إن الذي واجه البلاء والشدة وفقْدَ النعمة بالصبر والخلق النبيل، وواجه الرخاء والمنحة والنعمة بالشكر والخلق النبيل؛ هو الذي تشف بصيرته فتنكشف له الآيات، ويحسن قراءتها، ويسمع خطابها، ويتعظ بمعانيها. بين المسلم الصبور والشكور وآيات هذا الكون وتقلبات الأيام لغةٌ وخطابٌ وحنين. وهو معها بصيرٌ ذو عينين، وسميع ذو أذنين، وله قلب شهيد.

إن الهوى عمى يحجب صاحبه عن البصيرة، والمؤمن لا يستبد به هواه وعاطفته حال النعمة فيبطر، ولا يستبد به هواه وعاطفتة حال الشدة فيجزع. بل يغلب هواه وبطره بالشكر والتواضع، ويغلب هواه وجزعه بالصبر واليقين: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣)﴾ [سورة الحديد:٢٣].

إن أسرع الناس استعجالا للنعمة هو أسرعهم نسيانا لها إذا حضرت، ومن ترك الصبر في الأولى جديرٌ بأن يترك الشكر في الأخرى. ومن هدايات القرآن قصة النبي الكريم سليمان، وقصة النبي الكريم أيوب. أما سليمان عليه السلام فهو موعظة الشكر لأصحاب الرخاء، وأما أيوب عليه السلام فهو موعظة الصبر لأصحاب البلاء. وجاءت هاتان القصتان في سورة (ص) متتابعة، وكلاهما عند ربهما محل الثناء والرفعة : سُلَيْمَانَ ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) ﴾ [سورة ص: ٣٠]، وأيوب ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) ﴾ [سورة ص:٤٤]. وخليق بالمؤمن أن يتعامل مع مكدرات حياته في يومه وليلته أنها دروس يومية تزيد لياقته في الصبر والاحتساب، وتمنحه الفرصة أن يكتب عند الله صبّارا. وخليقٌ به كذلك أن يتعامل مع مواطن بهجته وسعادته في يومه وليلته أنها بفضل الله وحده، ليست بمواهبه وقدراته وعلى علم عنده، بل هي من الله ليبلوه أيشكر أم يكفر.

إن النعم وما أكثرها اختبارات وابتلاءات وفرص في الطريق لتُكتَب عند الله من الشاكرين. ومن رزق الصبر والشكر فهنيئا له كمال البصيرة، التي لا تغفل عن آيات الله وعظاته ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾.



عبادة الجمال

الجَمالُ مقصدٌ عام في أحكام الشريعة، فإن الله جميل يحب الجمال. ولئن انشغل الناس بجمال أشكالهم وصورهم، فإن المؤمن يشكر ربه على هذا الجمال، ويشتغل بجمال أقواله وفعاله وأخلاقه. ألا يستوقفك هذا الوصف في موطن الخلاف والطلاق: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩)﴾ [سورة الأحزاب: ٤٩].

وحين تسمع هذا الجمال المأمور به حتى في حال الفراق والطلاق، تتذكر أحوالا من قلة الذوق والجمال في حال القرب والوفاق، فضلا عن الخلاف والطلاق ! إن خير ما ندعو به إلى الإسلام هو هذا الجمال، الذي يخطف قلوب الناس مهما ابتعدوا عنا في أديانهم أو ألوانهم أو لغاتهم. الوجه البشوش، والبسمة المشرقة لا تحتاج إلى ترجمان، ولا تعترف بحواجز اللسان، وتبلغ القلوب بسحر جمالها. إن أعظم الناظرين إليك هو ربك ومولاك، ومن الإحسان في العبادة أن تتجمَّل أمامه بالنظافة، وسنن الفطرة، وجمال الأخلاق التي لا تستثني أحدا، ولا تستثني حالا بما فيها الخلاف والطلاق. بل يأتي الأمر بهذا الجمال والمعروف والإحسان في حال القتل العمد، وهل هناك شيء ينهك المعروف والإحسان ويبرر

تركه مثل القتل العمد ؟! حتى هذه لا تخرج عن معايير الجمال الرباني والأمر به: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [سورة البقرة: ١٧٨]. وهو ذات المعنى المأمور به في الطلاق: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٩].

وفي محاجّة المشركين المعاندين يظل المؤمن في كمال أدبه وجماله، وما أحوج المدافع عن الإسلام لقيم الذوق والجمال. الجمال الذي يكسو حجته، ويُزيِّن بيانه، فيخطف العقول ببرهانه، ويسحر القلوب بذوقه وجماله. وقف الخليل يحاجُّ عن ربه أمام كافرٍ عنيد، وصلت به البجاحة إلى أن يدعي مقاما لا يصلح إلا لله. ومع حب إبراهيم لربه، وغيرته على دين الله، فقد اكتفى بالحجة القوية عن السباب والشتيمة التي يستحقها هذا الكافر، ولكن لا تليق بلسانٍ يدافع عن الحق وينافح عنه: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٨].

إن هذا الكافر لا يستحق هذا الرقي والعفة في لسان إبراهيم، ولكن يستحقها هذا الدين الذي يدافع عنه إبراهيم، ويستحقها هذا الجمهور المحايد الذي يريد الداعية أن يُقبل على الحق والهداية.

فهذا الدين دين الجمال، والجمال مأمور به في دين الله، لا يستثني خلافا

وطلاقا، ولا يستثني قتلا وعدوانا، وهو سيرة الأنبياء مع أكثر الناس كفرا وعنادا، ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤)﴾ [سورة طه: ٤٤]. لا عبرة بأخلاقٍ تذروها رياح الخلاف، ولاعبرة بجمال لا يستر خلافاتنا، ولا يُزيِّن دعوتنا ومواعظنا.



الدعاء الشرعي

في المسجد الحرام تسمع صوتا مختلفا حين يدعو الإمام للمسجد الأقصى. تأمينٌ مختلف.. يحكي الجرح الغائر في أعماقنا، والحلم الجميل الذي يجمع أقصانا لأقصانا. لكننا ندعو كل عام، بل ندعو كل ليلة، ومازال الأقصى في قبضة الصهاينة ! لقد وعدنا ربنا في كتابه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [سورة البقرة:١٨٦]. هنا نحتاج أن نبحث عن الدعاء الشرعي الموعود بالإجابة، والآية من كتاب الله يفهمها المسلم بجمعها مع غيرها من الآيات، وبالنظر في هدي النبي ﷺ وسيرته؛ فإنه قد أرسله ربه ليبين للناس ما نزل إليهم. إن الذي يصلي بغير وضوء وهو قادر عليه لا يطمع في قبول صلاته، ولا يرجو أجرها ونوالها ونهيها عن الفحشاء والمنكر، لأنها صلاة

على غير الصفة المشروعة. كذلك كل العبادات.. لها شروط وصفات، لا تُقبل إلا بها.

إن الدعاء الذي نفهمه ونتعامل به شيء متمايز عن العمل، وربما يغني عن العمل، ولذلك تجد القلوب التي اجتمعت في المسجد الحرام، والأصوات التي ضجت بالتأمين للمسجد الأقصى، تعود إلى مضاجعها دون أن تشرع في مساهمة عملية لإنقاذ المسجد الأقصى ! ولسان حالنا: لقد دعونا ربنا وهذا يكفي ! ليس هذا الدعاء الذي وعد الله بإجابته، بل الدعاء المقرون بالعمل، الدعاء الذي يحفز الروح للعمل وكأن خبرا من السماء جاءها بأن ذلك لك.. فانهض له. الدعاء الذي يتوّج العمل بعد أن بذل (أقصى) ما في وسعه. ذلك دعاء الأنبياء ولا أكرم عند الله من الأنبياء. تأمل كيف يطلب الله من أنبيائه العمل حتى حين تحضر المعجزات في الفرج والمخرج. فنوح: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [سورة هود:٣٧].

وموسى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣)﴾ [سورة الشعراء: ٦٣]. وماذا عسى أن يصنع بعصاه ؟! إلا أنه أمرٌ يؤكد عمل العبد وبذله للسبب.

ومريم: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥)﴾ [سورة مريم:٢٥]. لم يسقط الرطب دون أن تهز مريم جذع النخلة، بقوتها

الضعيفة ويدها الواهنة من الهم والغم وآلام المخاض.. لكنها قوتها التي تستطيع فاسّاقط عليها الرطب جنيا. وأيوب: ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ * هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) ﴾ [سورة ص:٤٢].

هذا كله وقت المعجزات التي تأتي على غير السَنَن المعتادة، نصرا من الله وفرجا. ومع ذلك يطلب الله شيئا من العمل. إن اقتران الدعاء بالعمل هو فيما يستطيع ويطيق، أما إذا عجز عن العمل فإنه لم يفرط ويتكل. وإبراهيم عليه السلام أخذه قومه وألقوه في النار وهو لا يقدر على شيء من العمل، وقال: حسبنا الله ونعم الوكيل، فأنجاه الله مما كانوا يمكرون.

إن الاستغناء بالدعاء عن العمل المقدور ليس عملا شرعيا، ولا تشمله آثار الدعاء الشرعي. لقد دعا رسول الله ربه يوم بدر، وأطال في الدعاء حتى قال له صاحبه الصدّيق شفقةً عليه: يارسول الله بعضَ مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك. هذا الدعاء الشرعي المقرون ببذل كل الوسع في العمل واتخاذ الأسباب. إن من يدعو ربه أن يدخله الجنة ثم لا يدخل الإسلام وهو يعلمه ويعرض عنه فإنه لم يدع ربه الدعاء الشرعي. هذا في خير الآخرة ومثل ذلك في خير الدنيا.

الدعاء الشرعي هو المتصل بتقوى الله وفق الوسع والطاقة، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [سورة التغابن: ١٦].

فإذا فقد الإنسان القدرة على العمل، ودعا ربه فإنه قد استوفى ما عليه،

واتقى الله بما يستطيع، وربه قادر على أن ينصره ويجيب دعوته كيفما شاء، وفي أي وقت شاء. سألت أحدهم: كم مرة دعا ربه بسعة الرزق؟ فقال: كثيرا كثيرا. قلت: وماذا صنعت من عمل ومحاولة واجتهاد في سعة الرزق أثناء عامك هذا؟ فلم يجد شيئا ! هل هذا هو دعاء الأنبياء ؟! هل هذا هو الدعاء الشرعي ؟! الذي يستغني به صاحبه عن بذل الوسع والطاقة في العمل. إن أمة تترك ساحة الاقتصاد والإدارة والقوة العسكرية والبحث العلمي دون اجتهاد كاف، وعدوّها يعمل بكل جد واجتهاد في أسباب القوة والتفوق.. لا تطمع في النصر عليه، ولا ترضي ضميرها بأنها ترفع يديها للسماء وتدعو على عدوها بالمصائب والقوارع.

إن الذي أمرنا بالدعاء ووعدنا بالإجابة هو الذي أمرنا بالعمل، وهو الذي أمرنا بالتأسي برسول الله ﷺ ولم يكن يستغني بدعائه عن عمله.



مرآة الأخلاق

الاختبار الحقيقي للأخلاق ليس في التعامل مع الوجهاء والكبراء، بل في التعامل مع الضعفاء.. حيث لا تطمع في نفعهم، ولا تخشى من ضرهم، ولا يبقى حينها إلا حقيقة الأخلاق. الخادم والفقير والضعيف،

هم من يكشف هذه الأخلاق. وقد اقترن الرياء بالبخل، فإن الرجل المرائي لا يجد ما يدفعه لنفع المسكين.

أما الرجل المخلص فإن النفع والرحمة والأخلاق الحسنة ليست زينة يتزين بها أمام الخلق حتى يخلعها إذا خلا ببيته، بل هي عبادة وطبعٌ نبيل. يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾ [سورة الماعون: ٦-٧].

إن الضعفاء والمساكين والجيران ونحوهم هم المرآة الكاشفة لأخلاقك، تنظر إليها بلا تزيين ولا تخييل. فالكلمة الطيبة، والصدقة، والمعونة حيث تغيب أسباب الرياء، هي الكاشفة لصدق الأخلاق، وعمق الإيمان. قال رسول الله ﷺ: "والصدقة برهان" رواه مسلم. أي برهان على صحة إيمانه.



مسؤولية الكلمة

من أجل كلمةٍ واحدة يقولها الزوج لزوجته: "أنتِ عليَّ كظهر أمي".. لا تحل له إلا بعد كفارةٍ شديدة، إما أن يعتق رقبة، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا. من أجل كلمة واحدة تُفرَض عليه هذه الفرائض، وتلك حدود الله وللكافرين عذاب

أليم. هذه مسؤولية الكلمة في الإسلام، ولن تستقيم الحياة إذا فقدت الكلمة مسؤوليتها. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤)﴾ [سورة المجادلة:٢-٤].

إن الإنسان يدخل الإسلام بكلمة، ويخرج منه بكلمة، ويتزوج بكلمة، ويطلق بكلمة.. والكلمة لا تفقد مسؤوليتها إلا إذا فقد المجتمع أسباب العز والبقاء. لقد كان الناس إلى عهدٍ قريب يحترمون الكلمة كاحترام الأمم للدساتير. ويحتمل الإنسان كل شيء في سبيل حماية كلمته وصيانتها من الخُلفِ والكذب. وإذا أعطى الإنسان لغيره (قالة) كانت عليه مثل السيف المصلت. إن الكلمة تحمل شخصية صاحبها وقيمه وكرامته، ومن أهان كلمته بالخُلْف والتغيير والتبديل، فقد أزرى بنفسه قبل أن يضر غيره.

إن آيات المجادلة وما فيها من حُكْم الظهار وكفارته، تعلمنا مسؤولية الكلمة، وتربية النفس والأبناء على حفظها، والتعامل معها بكامل الاحترام والمسؤولية.



الكذب

لم يَعُد الكذب في زماننا نزوةً عابرة، ولم يعد سلوكا مشينا يلابسه بعض الأفراد فحسب، بل أصبح صناعة واحترافا وذكاء وتجارة ! الأموال الطائلة تنفق اليوم في صناعة الكذب العالمي وتشويه الحقائق، حتى تشك في بعض الأحيان حين تشاهد بعض وسائل الإعلام وما تقترفه من كذب ممنهج.. هل هي مع ذلك كله تعد الكذب من الرذائل والمنكرات ؟! لقد اتفقت الأديان، وتواطأت الفطر على قبح الكذب واستنكاره، ومع ذلك هو اليوم صناعة رائجة ! في القرآن استوقفني هذا الوصف في شأن الكذب: ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ [سورة المائدة: ٤١]. فالأذهان تنصرف في العادة لمن يقول الكذب لا لمن يسمعه ! إن هذا الوصف يكشف معانٍ مهمة في صناعة الكذب الخبيثة، فإن الكذّاب لا يجد له سوقا رائجة حتى يجد آذانا تُدمن على سماعه، فجاء الوصف على وجه المبالغة "سمّاعون" لكثرة الاستماع. وهذا الكذب شؤم وإثم يلحق الكاذب والسَّماع. لأنهم يصنعون سوق الكذب وبضاعته الخبيثة. وهذه طريقة الشريعة في حسم مادة الشر، فإن الإثم والشؤم يلحق الكذّاب والسمّاع، وآكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه. وكلمة "سمّاعون" تذكرنا بوصف الكذاب في

الحديث الشريف، فإنه يفعله ويتطلّبه ويدمن عليه: "وما يزالُ الرَّجلُ يكذِبُ ويتحرَّى الكذِبَ حتَّى يُكتبَ عند الله كذَّابًا". ومن العجب أن يظل الرجل على كذبه وتحرّيه حتى يلقى الله، فيحلف لربه كما كان يحلف في الدنيا، ويكذب كما كان يكذب، ويحسب أنه على شيء ! قال الله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨)﴾ [سورة المجادلة: ١٨].

لقد ارتبط الكذب بالخيانة والغدر وتهتُّك القيم والأخلاق، ولا ثقة للعاقل بنصرة كذاب وخائن، فإن من كذب وخان قومه سيخونك ولو بعد حين. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢)﴾ [سورة الحشر: ١١-١٢].

أما المؤمن فإنه يتنزه من رجس الخيانة والكذب والغدر حتى مع أعدائه، فالعداوة في قانون المؤمن محكومة بالقيم والأخلاق، وهي وضوح وشفافية، وصدق وشجاعة، لا كذب ولا خيانة: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)﴾ [سورة الأنفال: ٥٨]. فهذا العدو تظهر عليه أمارات الغدر والخيانة، لا

يبدؤه أهل الإسلام بالحرب حتى ينبذوا إليه ويعلموه، ليكونوا في العلم والاستعداد سواء . فالمؤمن بربه يحفظ ذمته وعهده حتى مع عدوه الذي ظهرت عليه أمارات الغدر والخيانة. أما الكذاب الخائن فإنه يخون قومه ويتحالف مع عدوه، ثم يخون عدوه، ذلك أن الخيانة طبع راسخ في نفسه. يشبه الكذب عند الكذاب، يكذب ويتحرى الكذب، ويظل كذابا في حياته وبعد مماته عندما يلقى الله فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء. كما أن سَمَاع الكذب هو الآخر عادة وإدمان حتى يكون "سمّاعا للكذب". ولولا هؤلاء السمّاعون للكذب ما راجت بضاعة الكذب، وما قامت سوقها.



لانفضّوا من حولك

في بيئة العلم يحدث بعض القسوة والجفوة من المشايخ وأهل العلم، وجلَّ من لا يخطئ. أخطر ما في الأمر أن يغيب معيار الخطأ والصواب، ويصل الاعتذار لقسوة الشيخ وفظاظته إلى قبوله وتبريره، ومطالبة المستفيد وطالب العلم بالصبر والاحتمال. وربما ذكروا في ذلك قصصا لبعض السلف هي أحوج للاعتذار والاستغفار من الاقتداء

والاستبشار. إنه لا يوجد أحد من الخلق أعظم فضلا ومِنَّةً من رسول الله ﷺ، ولا يوجد أحد أعظم حبا وأدبا من أصحابه رضي الله عنهم أجمعين، ومع ذلك يخبر ربنا أنه لو كان فظا غليظ القلب لا نفضوا من حوله، رغم فضله وعلمه العظيم، ورغم حبهم وحرصهم الكبير: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [سورة آل عمران:١٥٩] فهل نلوم بعد ذلك طالب العلم إن ترك القاسي الغليظ من المشايخ، أم نلوم ذلك الشيخ الفظ الغليظ؟! إن كرامة الإنسان شيء مقدس، وعلمٌ أو عالمٌ لا يحوط هذه الكرامة بالحفظ والرعاية لم يعرف حق العلم، ولا يستحق الوقت الذي يقضيه معه.

إن مجيء طالب العلم إلى الشيخ والجلوس بين يديه، وسؤاله والاستفادة منه، شيء من الذل لكنه ذل مقبول يرفع الإنسان وينفعه، ولا يصل للكرامة بسوء. وهذا النوع من الذل هو الذي أوصى العلماء باحتماله في سبيل طلب العلم. أما ما وراء ذلك من سوء الكلام، وجرأة الأفعال فليس من حق العلم وحبه أن يحتمل ذلك ويصبر عليه. على أن الإنسان يفرق بين إساءة عابرة تستحق العفو والتسامح، وإساءة وغلظة دائمة. وخير العلم والعلماء ما حُفِظت معهم الكرامة، واتصل بهم الود ومكارم الأخلاق. إن وضوح هذا المعنى مهم بسبب ما تراكم في أدبيات طلاب العلم من التبرير لتلك الأخطاء، حتى غاب المعيار للصواب

والخطأ في هذا الباب. ومهمٌ كذلك للعناية بكرامة الإنسان واحترامها، ولا تطمع لرجل يقبل الإساءة ويستمرئ الإهانة أن يكون من أئمة هذا الدين، الذائدين عن حماه، والمبلغين لشرعه وهداه. إن بناء هؤلاء الأئمة لا يكون (بالمعلومات) فحسب، بل يكون ببناء العلم، والدين، والقيم.



البيان

لستُ أدري كيف استطاعت هذه الحروف المحدودة أن تملأ مكتباتنا أوراقا وكتبا ؟! كيف استطاعت هذه الحروف المعدودة أن تعبِّر عن كل أفكارنا ومشاعرنا ؟! كيف أخذها الشعراء فنسجوا منها ثياب الشعر الطويلة ؟! كيف حفظت هذه العلوم في هذا الوعاء الصغير من الحروف؟! يتعلم الطفل حروف الهجاء ويحسب نفسه قد تعلم ثمانية وعشرين حرفا، وهو لا يدري أنه أمسك بيده مفتاح العلوم وخزائن المعرفة ! كيف انطلقت كل لغة من حروفها القليلة فملأت فضاءها كتابة وبيانا ؟! ودون هذه الحروف كيف كنا سنبني العلوم، ونشيد الحضارة ؟! وكيف سنكتشف هذه المعاني في القلوب والعقول والفضاء ؟! سبحانك يا رب! ﴿الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ [سورة الرحمن: ١-٤].

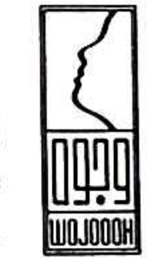
فهرس الموضوعات

لعلهم يتفكرون

قراءةٌ تفكُريَة في آيات الكتاب العزيز

هذا هو الجزء الثاني من سلسلة «لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ».. قراءةٌ تفكّرية في آيات الكتاب العزيز. وقد لقي الجزء الأول قبولًا ولله الحمد والمنة، وسمعت من أهل العلم المتخصصين في هذا الباب ما أرجو أن يكون من عاجل البشرى، وأسأل الله ألا يحرمني من بشراه يوم ألقاه.





دار وجوه للنشر والتوزيع
Wojooh Publishing & Distribution House
www.wojoooh.com
المملكة العربية السعودية - الرياض
الهاتف: 4562410 الفاكس: 4561675
للتواصل والنشر:
info@wojoooh.com
www.facebook.com /wojoooh
@wojoooh1

